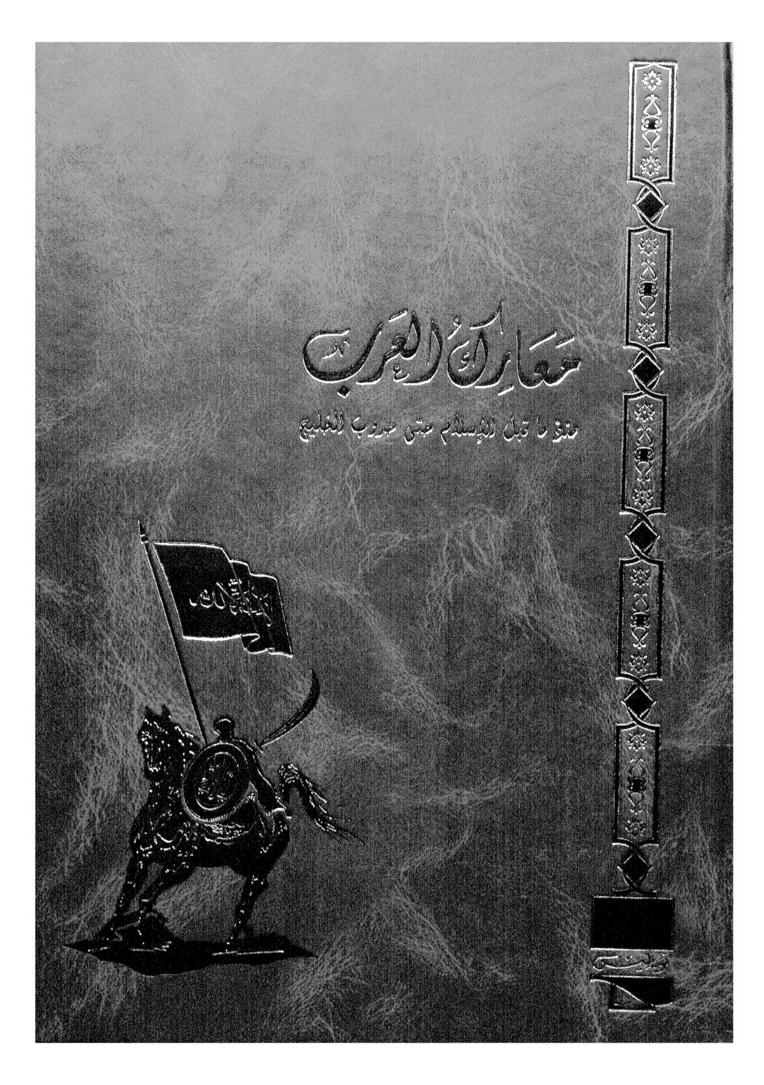

معارك العرب
منذ ما قبل الإسلام حتى حروب الخليج

معارك العرب (2)

اسم الموسوعة : معارك العرب
منذ ما قبل الإسلام وحتى حروب الخليج
اسم الكتاب : ظهور الإسلام (منذ بداية الدعوة إلى فتح مكّة)
المؤلّف : العميد الركن الدكتور سامي ريحانا
قياس الكتاب : 20x28 سم
عدد الصفحات : 248
عدد صفحات الموسوعة : 5920
مكان النشر : بيروت – لبنان
دار النشر والتوزيع : دار نوبليس
تلفاكس : 961 1 58 34 75
هاتف : 961 (1) 58 11 21 - 961 (3) 58 11 21
بريد إلكتروني : NOBILIS_INTERNATIONAL@hotmail.com
الطبعة الأولى : 2007

العميد الركن سامي ريحانا

دكتور في التاريخ

# معارك العرب

## منذ ما قبل الإسلام
## وحتى حروب الخليج

المجلّد (2)

ظهور الإسلام

(منذ بداية الدعوة إلى فتح مكة)

NOBILIS
2007

# المقدّمة

تأثّر التاريخ اللاحق للجاهلية، أي الإسلام، بالنبي محمّد ﷺ الذي اعتبر المبشّر بالدين الجديد وقائد الأمّة الإسلامية وملهمها ومنظّم أمورها في كلّ ما لهذه الكلمة من معنى.

فالتاريخ الإسلامي يبدأ بالنبي محمّد ﷺ ويستمرّ بعده بخلفائه الذين دعوا «الراشدين»، ثمّ بالدولة الأمويّة، فالعبّاسيّة في طوريها الأوّل والثاني، ثمّ بالدويلات الإسلامية التي سيطرت خلال حقب من الزمن على التاريخ الاسلامي وطبعته بطابعها الخاص.

لذلك رأينا من واجبنا، في بداية هذا التاريخ، التطرّق إلى النبي العربي الذي ولد في مكة، كما سبق القول، في عام الفيل السنة ٥٧٠م[١]، والده محمد بن عبدالله بن عبد المطلب، وأمه آمنة بنت وهب. توفي والده قبل أن يولد فكفله جده وكلّف بدوية من بني سعد اسمها حليمة كي ترضعه وتربيه في البادية، حيث الهواء النقي والعادات المستقيمة واللغة الفصحى.

بقي في البادية حتّى سن الخامسة، ثمّ أُعيد إلى أمه التي سافرت به لزيارة أخوال جدّه في يثرب وتوفيت في طريق العودة، فأصبح يتيم الأبوين. وعند الثامنة من عمره توفي جدّه فتولاّه عمّه أبو طالب، وكان معيلاً لعائلة كبيرة، فيما أن بعض أعمامه كانوا من الأغنياء، لا سيما أبو لهب الذي ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾[٢].

---

(١) وقيل سنة ٥٧١م.
(٢) المسد: ٢.

عمل محمّد مع عمّه في التجارة، فزار الشام واكتسب معرفة وشهرة لفتت أنظار المكيّين الذين أطلقوا عليه لقب «الأمين» لاستقامته وأمانته. لذلك عندما أعيد بناء الكعبة اختلفت القبائل المكيّة في من يضع الحجر الأسود مكانه، لكنهم اتفقوا على أن يضعه الفتى محمّد، ففعل بعدما أشار إلى أن يوضع الحجر على قماش كبير تمسك كلّ قبيلة بطرف من أطرافه ويرفعونه إلى الأعلى.

شخصية محمد المميزة لفتت إليه نظر خديجة بنت خويلد، وهي أرملة يصفها ابن الأثير بأنها: «ذات شرف ومال، تستأجر من مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه»[1]، فعهدت إليه في الاتجار بمالها، فاتجر وربح فازدادت إعجاباً به فعرضت عليه الزواج بها فتزوّجها.

ويصف ابن كثير قصة الراهب مع النبي ﷺ عندما مرّ ركب قريش ومعه النبي ﷺ بصومعته كما يلي[2]:

«فلما نزل الركب بُصرى من أرض الشام وبها راهب يقال له بحيرى في صومعة له. وكان إليه علم أهل النصرانية، ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط[3] راهب فيها، إليه يصير علمهم عن كتاب فيما يزعمون، يتوارثونه كابراً عن كابر. فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى - وكانوا كثيراً ما يمرّون به (قبل ذلك) فلا يكلمهم ولا يَعْرِض لهم - حتّى كان ذلك العام. فلما نزلوا قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً، وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته، يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ في الركب حتّى أقبل وغمامة تظلّله من بين القوم، ثمّ أقبلوا فنزلوا في ظلّ شجرة قريباً منه. فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة وتهصرت[4] أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتّى استظلّ تحتها. فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته وقد أمر بطعام فصنع. ثمّ أرسل إليهم. فقال إني صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش، فأنا أحب أن تحضروا كلّكم، كبيركم

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ١، ص ٥٦٩.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ٢، ص ٣٠٦ - ٣٠٧.
(٣) قط هنا معناها الدهر.
(٤) تهصرت أي مالت وتدلت.

وصغيركم، وعبدكم وحرّكم. فقال له رجل منهم والله يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم. ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمرّ بك كثيراً فما شأنك اليوم! قال له بحيرى: صدقت قد كان ما تقول ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلون منه كلّكم. فاجتمعوا إليه، وتخلّف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنّه في رحال القوم تحت الشجرة. فلما رآهم بحيرى لم يرَ الصفة التي يعرف ويجده عنده فقال: يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي قالوا: يا بحيرى ما تخلّف أحد ينبغي له أن يأتيك إلاّ غلام، وهو أحدثنا سناً، فتخلّف في رحالنا. قال لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم. قال: فقال رجل من قريش مع القوم: واللاتِ والعزّى إن كان للؤم بنا أن يتخلّف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا. ثمّ قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم، فلما رأى بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده، قد كان يجدها عنده من صفته، حتّى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرى، وقال له يا غلام: أسألك بحق اللات والعزى ألا أخبرتني عما أسألك عنه.

وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما. فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له: «لاَ تَسأَلنِي باللاَّتِ وَالعُزَّى شَيْئاً، فَوَاللَّهِ مَا أَبْغَضْتُ شَيْئاً قَطُّ بُغْضَهُمَا». فقال له بحيرى: فبالله إلاّ ما أخبرتني عما أسألك عنه؟ فقال له: سَلْنِي عَمَّا بَدَا لَكَ. فجعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره. فجعل رسول الله ﷺ يخبره. فوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته. ثمّ نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه موضعه من صفته التي عنده. فلما فرغ أقبل على عمّه أبي طالب فقال: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال بحيرى: ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً، قال: فإنه ابن أخي. قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمة حبلى به، قال: صدقت. ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنّه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده. فخرج به عمّه أبو طالب سريعاً حتّى أقدمه مكّة حين فرغ من تجارته بالشام».

وبالفعل ظهر النبي محمّد ﷺ المؤهل لقيادة الأمة العربية وإخراجها من غياهب الجاهلية والوثنية إلى الحضارة والدين الحنيف.

# القسم الأول

# ظهور الدعوة الإسلاميّة

# الفصل الأول
# بداية الإسلام

لقد سبق ووصفنا وضع شبه الجزيرة العربية في الجزء الأول من هذه الموسوعة، من جهل بالديانة السماوية خاصة. لذلك حاولت الديانتان السماويتان، اليهودية والنصرانية، ملء الفراغ في هذا الإطار الديني. لكنهما ورغم اعتناقهما من قِبَل عدد من القبائل والأفراد، فإنهما لم تتمكنا من الولوج إلى عمق شبه الجزيرة ولا حتّى إلى مكّة. لذلك أخذ عدد من رجالات قريش يلتمسون الحنيفية.(١)

من جهته، ومنذ أن بلغ الأربعين من عمره، مال النبي محمّد ﷺ إلى الاعتزال والتعبّد في غارٍ في جبل حرّاء خارج مكّة، ودعى المؤرّخون هذه الخلوات باسم «التحنث والتحنّف» أيّ الخروج من حنث الضلالة إلى حنيفية إبراهيم.(٢)

## أولاً – ابتداء الوحي

روى ابن الأثير على لسان عائشة والنبي محمّد ﷺ تفاصيل بدء نزول الوحي على النبي ﷺ، فكتب:(٣)

«قالت عائشة رضي الله عنها: «كان أول ما ابتدىء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة، كانت تجيء مثل فلق

(١) الحنيفية هي ديانة ابراهيم الخليل أي أصل الديانات السماوية.
(٢) بيضون وزكار، تاريخ العرب السياسي، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٤، ص ٣٨.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء أول، ص ٥٧٥ – ٥٧٦.

الصبح، ثمّ حُبّب إليه الخلاء، فكان بغار حراء يتعبّد فيه الليالي ذوات العدد، ثمّ يرجع إلى أهله فيتزوّد لمثلها حتّى فجأه الحق(١) فأتاه جبريل فقال: يا محمد أنت رسول الله ﷺ. قال رسول الله: فجثوت لركبتي، ثمّ رجعت ترجف بوادري(٢) فدخلت على خديجة فقلت: زملوني، ثمّ ذهب عني الروع.

ثمّ أتاني فقال: يا محمّد أنت رسول الله، قال: فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق فتبدى لي حين هممت بذلك فقال: يا محمّد أنا جبريل وأنت رسول الله. قال: اقرأ. قلت: وما أقرأ؟ قال: فأخذني فغتني(٣) ثلاث مرات حتّى بلغ منّي الجهد؛ ثمّ قال: ﴿اقْرَأْ بِاسمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ﴾(٤) فقرأت فأتيت خديجة، فقلت: لقد أشفقت على نفسي، وأخبرتها خبري، فقالت: «أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكلّ(٥) وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق.

ثمّ انطلقت بي إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها، وكان قد تنصر، وقرأ الكتب وسمع من أهل التوارة والانجيل، فقالت: اسمع من ابن أخيك، فسألني فأخبرته خبري. فقال: هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران ليتني كنت حياً حين يخرجك قومك، قلت: أَوَ مخرجي هم؟ قال: «نعم، إنه لم يَجِيءْ أحد بمثل ما جئت به إلاّ عُودِيَ، ولئن أدركني يومك لأنصرنّك نصراً مؤزراً».

وأول من استجاب لدعوة رسول الله ﷺ هي زوجته خديجة.

كتب الواقدي:

«أجمع أصحابنا أنّ أول من استجاب لرسول الله ﷺ من أهل القبلة خديجة، ثمّ كان أول شيء فرض الله من شرائع الإسلام

---

(١) أي فاجأه.

(٢) جمع بادرة أي لحمة بين المنكب والعنق.

(٣) الغت أو الغط أي: غطتني.

(٤) العَلَق: ١.

(٥) الكل أي العيال.

عليه بعد الإقرار بالتوحيد والبراءة من الأوثان الصلاة، وإن الصلاة لما فرضت عليه ﷺ أتاه جبريل وهو بأعلى مكّة فهمز له بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت فيه عين، فتوضأ جبريل وهو ينظر إليه ليريه كيف الطهور للصلاة، ثمّ توضأ رسول الله ﷺ مثله، ثمّ قام جبريل فصلى به وصلى النبي ﷺ بصلاته، ثمّ انصرف، وجاء رسول الله ﷺ إلى خديجة، فعلمها الوضوء؛ ثمّ صلى بها فصلت بصلاته».[1]

## ثانياً – بداية الدعوة

وبعد أن ترسخت معالم النبوة في نفسه، أخذ النبي ﷺ يبشر بدعوته السماوية فآمن به عدد من أقربائه وأصدقائه وأهل قريش. وكان التبشير في البداية سراً قرابة ثلاث سنين إلى أن أمر الرسول ﷺ بالعلنية بقوله تعالى ﴿فاصدع بما تؤمر﴾،[2] وطلب منه ان يبدأ بعشيرته بقوله «وأنذر عشيرتك الأقربين».[3]

أمر النبي ﷺ ابن عمه علياً بن أبي طالب[4] بأن يعد طعاماً ويدعو أعمامه ففعل. حاول محمد ﷺ أن يبشر أعمامه فمنعه عمه أبو لهب، لكن النبي أصرّ وقال لأعمامه: «والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل ما جئتكم به، قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة»، إنما دون نتيجة.[5]

نقل محمّد ﷺ دعوته إلى أهل مكّة لنبذ عبادة الأوثان والإيمان بإله واحد، كما راح ينادي بالإصلاحات الاجتماعية وذلك بالرفق بالإنسان من أي عرق أو لون، وفقيراً كان أم غنياً. ثمّ طلب من الأغنياء أن يساعدوا الفقراء بدل استغلالهم.

عند هذا الحدّ، رأى المكيّون، ولا سيما المرابون وأصحاب المال من زعماء قريش، أن الدعوة موجّهة ضدّهم فأخذوا يضطهدون

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء أول، ص ٥٧٧.

(٢) الحجر: من الآية ٩٤.

(٣) الشعراء: ٢١٤.

(٤) وكان عنده يرعاه مساعدة لعمه المعيل.

(٥) ابن اسحق: ٥٥ – ٥٦.

النبي ﷺ وكلّ من آمن به. لذلك نزلت في القرآن اللعنات عليهم، وبخاصة على عمه أبو لهب الذي ﴿تبّت يدا أبي لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب. سيصلى ناراً ذات لهب. وامرأته حمّالة الحطب. في جيدها حبل من مسد﴾.(١)

ولم تكن ردود فعل جميع أهل قريش كرد فعل أبي لهب، بل آمن بالنبي ﷺ كثيرون أبرزهم علي بن أبي طالب وأبو بكر الصدّيق. روى ابن الأثير خبر تصديق أبي بكر لما جاء به النبي ﷺ فكتب:(٢)

«لما رجع إلى مكّة علم أنّ الناس لا يصدقونه، فقعد في المسجد مغموماً، فمر به أبو جهل فقال له كالمستهزىء: هل استفدت الليلة شيئاً؟ قال: نعم. أُسْرِيَ بي الليلة إلى بيت المقدس. قال: ثمّ أصبحتَ بين ظهرانينا! فقال: نعم. فخاف أن يخبر بذلك عنه فيجحده النبي ﷺ، فقال: أتخبر قومك بذلك؟ فقال: نعم. فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي هَلُمُّوا، فأقبلوا فحدثهم النبي ﷺ فمِنْ بين مصدّق ومكذب ومصفق وواضع يده على رأسه، وارتد على رأسه، وارتدّ الناس ممن كان آمن به وصدّقه، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر فقالوا: إنّ صاحبك يزعم كذا وكذا، فقال: «إنْ كان قال ذلك فقد صدق إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة».

أما المسعودي فيذكر «أنّ أول من أسلم من الرجال هو علي بن أبي طالب، وكان تابعاً للنبي ﷺ في جميع أفعاله، مقتدياً به... وهو موضع التكليف بظاهر قوله عزّ وجل: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾(٣) ... ثمّ أسلم أبو بكر رضي الله عنه، ودعا قومه إلى الإسلام، فأسلم على يديه عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيدالله، فجاء بهم إلى النبي ﷺ فأسلموا. فهؤلاء النفر سبقوا بالإيمان».(٤)

---

(١) المسد: ١ - ٥.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ٥٨١.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، جزء ٢، ص ٢٩٩.

(٤) المسعودي، المرجع نفسه، جزء ٢، ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

## أ- إسلام حمزة بن عبد المطلب وضربه لأبي جهل:

كان حمزة عمّ الرسول ﷺ من أبرز رجالات قريش ومن أبطال العرب المشهورين، لذلك جاء اعتناقه الإسلام واعترافه برسالة النبي محمّد ﷺ من أهم أحداث بداية الدعوة التي ينبغي أن نذكرها بتفصيل نقلاً عن ابن الأثير:[١]

«ثمّ إنّ أبا جهل مرّ برسول الله ﷺ وهو جالس عند الصفا، فآذاه وشتمه ونال منه وعاب دينه، ومولاة لعبدالله بن جُدعان في مسكن لها تسمع ذلك. ثمّ انصرف عنه فجلس في نادي قريش عند الكعبة، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أنْ أقبل من قنصه متوشحاً قوسه، وكان إذا رجع لم يصل إلى أهله حتّى يطوف بالكعبة، وكان يقف على أندية قريش ويسلم عليهم ويتحدّث معهم، وكان أعزّ قريش وأشدّهم شكيمة. فلما مرّ بالمولاة وقد قام رسول الله ﷺ ورجع إلى بيته، فقالت له: يا أبا عُمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمّد من أبي الحكم بن هشام، فإنه سَبّه وآذاه ثمّ انصرف عنه ولم يكلمه محمد. قال: فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج سريعاً لا يقف على أحدٍ كما يصنع يريد الطواف بالكعبة مُعِدّاً لأبي جهل إذا لقيه أن يقع به حتّى دخل المسجد، فرآه جالساً في القوم فأقبل نحوه، وضرب رأسه بالقوس فشجه شجة منكرة، وقال: أتشتمه وأنا على دينه. أقول ما يقول؟، فاردد عليّ إن استطعت. وقامت رجال بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة فإني سببتُ ابن أخيه سَبّاً قبيحاً. وتمّ حمزة على إسلامه، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أنّ رسول الله ﷺ قد عَزّ وأنّ حمزة سيمنعه فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه. واجتمع يوماً أصحابه، فقالوا: ما سمعتْ قريشٌ القرآن يُجْهَرُ لها به فمَنْ رجلٌ يسمعهموه؟ فقال ابن مسعود: أنا. فقالوا: نخشى عليك إنما نريد من له عشيرة يمنعونه.

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، دار الكتب العملية، بيروت، جزء ٢، ص ٢٩٩.

قال: إنّ الله سيمنعني، فغدا عليهم في الضحى حتّى أتى المقام وقريش في أنديتها، ثمّ رفع صوته وقرأ سورة الرحمن. فلما علمت قريش أنه يقرأ القرآن قاموا إليه يضربونه؛ وهو يقرأ ثمّ انصرف إلى أصحابه، وقد أثّروا بوجهه، فقالوا هذا الذي خشينا عليك. فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم اليوم، ولئن شئتم لأغادينهم.(١) قالوا: حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون».

### ب - إسلام عمر بن الخطاب بعد تهديده للنبي ﷺ:

وأسلم عمر بن الخطاب بعد تسعة وثلاثين رجلاً وثلاث وعشرين امرأة وذلك في السنة السادسة للهجرة. وكان عمر من أبطال قريش الأقوياء الذين اشتد أزر المسلمين به، ونصر الله المسلمين بعمر كما نصرهم بحمزة. نقل ابن الأثير خبر إسلام عمر فكتب:(٢) «وكان أصحاب النبي ﷺ لا يقدرون يصلّون عند الكعبة حتّى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً حتّى صلّى عندها وصلّى معه أصحاب النبي ﷺ. وكان قد أسلم قبله حمزة بن عبد المطلب. فقويَ المسلمون بهما. وعلموا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ والمسلمين. قالت أم عبد الله بنت أبي حثمة وكانت زوج عامر بن ربيعة: إنا لنرحل إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر لبعض حاجاته إذ أقبل عمر وهو على شِرْكه حتّى وقف عليّ - وكنا نلقى منه البلاء أذىً وشدّة - فقال أتنطلقون يا أمّ عبد الله؟ قالت: قلت: نعم، والله لنخرجن في أرض الله؛ فقد آذيتمونا حتّى يجعل الله لنا فرجاً. قالت: فقال: صَحِبَكم الله. ورأيت له رِقّة وحُزْناً. قالت: فلما عاد عامر أخبرته وقلت له: لو رأيت عمر ورقته وحزنه علينا. قال: أطمعت في إسلامه؟ قلت: نعم، فقال: لا يُسْلِم حتّى يسلم حمار الخطاب - لِمَا كان يرى من غِلْظَتِهِ وشَدَّتِهِ على المسلمين، فهداه الله تعالى، فأسلم فصار على الكفار أشد منه على المسلمين.

---

(١) أي سأعود إليهم غداً.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ا، ص ٦٠٢ - ٦٠٣.

وكان سبب إسلامه أنّ أخته فاطمة بنت الخطاب كانت تحت سعيد بن زيد بن عمرو العدوي، وكانا مسلمين يخفيان إسلامهما من عمر، وكان نعيم بن عبد الله النحام العدوي قد أسلم أيضاً وهو يُخْفي إسلامه فَرَقاً من قومه، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة يقرئها القرآن فخرج عمر يوماً ومعه سيف يريد النبي ﷺ والمسلمين وهم مجتمعون في دار الأرقم عند الصفا، وعنده من لم يهاجر من المسلمين في نحو أربعين رجلاً، فلقيه نعيم بن عبد الله، فقال: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً الذي فرّق أمر قريش وعاب دينها وسبّ آلهتها فأقتله. فقال نعيم: والله لقد غرّتك نفسك أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً، أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهلي؟ قال: خَتَنُك[1] وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة، فقد والله أسلما. فرجع عمر إليهما وعندهما خَبَّاب بن الأرت يقرأهما القرآن فلما سمعوا حِسّ عمر تَغَيَّب خباب، وأخذت فاطمة الصحيفة فألقتها تحت فخذيها، وقد سمع عمر قراءة خباب، فلما دخل قال: ما هذه الهينمة[2]؟ قالا: ما سمعت شيئاً؟ قال: بلى، وقد أُخْبِرْتُ أنكما تابعتما محمّداً على دينه، وبَطَشَ بخَتَنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته لتكفه فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما شئتَ.

ولما رأى عمر ما بأختِهِ من الدم ندم، وقال لها: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون فيها الآن حتّى أنظر إلى ما جاء به محمد، قالت: إنا نخشاك عليها، فحلف أنه يعيدها. قالت له وقد طَمِعَتْ في إسلامه: إنك نجس على شركك ولا يمسها إلا المطهرون، فقام فاغتسل، فأعطته الصحيفة وقرأها وفيها ﴿طه﴾ وكان كاتباً، فلما قرأ بعضها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه، فلما سمع خباب خرج إليه، وقال: يا عمر

(١) الخَتَن: نسيب المرأة كأبيها وأخيها وزوج البنت أو الاخت.

(٢) الهينمة: الكلام الخفي الذي لا يُفهم.

إنّي والله لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فإني سمعته أمس يقول: اللهم أيِّد الإسلام بعمر بن الخطاب، أو بأبي الحكم بن هشام فالله الله يا عمر.

فقال عمر عند ذلك: دُلّني يا خباب على محمد حتّى آتيه فأسلم. فدلّه خباب، فأخذ سيفه وجاء إلى النبي ﷺ وأصحابه فضرب عليه الباب، فقام رجل منهم، فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً سيفه فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال حمزة: ائذن له فإنْ كان جاء يريد خيراً بذلناه له وإن أراد شراً قتلناه بسيفه. فأذن له فنهض إليه النبي ﷺ حتّى لقيه؛ فأخذ بمجامع ردائه، ثمّ جذبه جذبة شديدة، وقال: ما جاء بك؟ ما أراك تنتهي حتّى ينزل الله عليك قارعة.

فقال عمر: يا رسول الله جئتُ لأومن بالله وبرسوله. فكبَّر ﷺ تكبيرة عرف من في البيت أن عمر أسلم. فلما أسلم قال: أي قريش أنْقَل للحديث؟ قيل: جميل بن معمر الجمحي فجاءه فأخبره بإسلامه فمشى إلى المسجد وعمر وراءه وصرخ: يا معشر قريش ألا إنّ ابن الخطاب قد صَبَأَ، فيقول عمر من خلفه: كذب ولكني أسلمتُ. فقاموا فلم يزل يقاتلهم ويقاتلونه حتّى قامت الشمس وأعيي فقعد وهم على رأسه، فقال: افعلوا ما بدا لكم فلو كنا ثلاثمائة نفر تركناها لكم أو تركتموها لنا يعني مكة. فبينما هم كذلك إذ أقبل شيخ عليه حُلَّة، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر. قال: فَمَهْ[1] رجلٌ اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟.

## ثالثاً – اضطهاد قريش للنبي ﷺ وأتباعه

رغم أن بعض أهالي قريش تبعوا النبي ﷺ وآمنوا بدعوته، الا أن المجموع الأكبر بقي معانداً له ومضطهداً لأتباعه.

يصف جرجي زيدان هذه المرحلة من الدعوة كما يلي:[2]

«على أن استخفافهم هذا لم يقعده عن عزمه ولا أبعده عن قومه: فبدلاً من وقوفه عند ذلك الحدّ تهيّباً وحذراً، جاهر بسبّ

(١) مَه أي اسكت.

(٢) جرجي زيدان، مؤلفاته الكاملة، دار نوبليس، بيروت، ٢٠٠٣ - ٢٠٠٤ ، الجزء ٣١، ص ٣٩ - ٤٠.

الأصـنـام ونسب أهله وآباءهم إلى الكفر والضلال. فلما علموا بمجاهرته بسبّ الأصنام أجمعوا على عداوته ومقاومته وتعمّدوا أذاه، لكنهم لم يروا سبيلاً إلى ذلك وهو في كفالة عمّه أبي طالب... فجاءوا عمّه وفيهم أبو سفيان فقالوا له: «يا أبا طالب إنّ ابن أخيك عاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلّل آباءنا فانهه عنا أو خلّ بيننا وبينه»، فردّهم أبو طالب ردّاً حسناً ووعدهم خيراً.

ثمّ رأوه لا يزال ماضياً في سبّ آلهتهم فعادوا إلى أبي طالب وقد اشتدّ بهم الغيظ وقالوا له: «إن لم تنه ابن أخيك وإلاّ نازلناك وإياه حتّى يهلك أحد الفريقين». فعظم ذلك على أبي طالب وأدرك عاقبة الأمر، فلما عادوا من عنده قال لابن أخيه: «يا ابن أخي إنّ قومك قالوا كذا وكذا»، فظنّ أنّ عمّه يخذله فشقّ عليه ذلك وقال: «يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الامر» وبكى وهمّ بالانصراف فناداه عمّه وقال له: «قل ما أحببت، فوالله لا أسلّمك أبداً».

وكانت دعوته في أثناء ذلك تذيع على مهل، وقد أسلم جماعة من خيرة الناس كان لهم شأن عظيم في التاريخ الإسلامي منهم أبو بكر الصديق وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وحمزة بن عبد المطلب (عمّه) وعمر بن الخطاب. وكان لإسلام هذين الأخيرين وقع حسن عند النبي ﷺ لأنهما كانا من أهل الوجاهة والقوّة. أما سائر أعمامه وأهله لمّا يئسوا من وساطة عمّه أبي طالب، رأوا أن يحتالوا في استرضائه بالحسنى، فبعثوا إليه وقد اجتمع كبارهم في ندوة... فجاء فاستقبلوه بالترحاب وقالوا له: «يا محمّد إنا قد بعثنا إليك لنكلّمك وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك. لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفّهت الأحلام وفرّقت الجماعة فما بقي أمر قبيح إلاّ قد جئته فيما بيننا وبينك. فإن كنت إنّما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتّى تكون أكثرنا مالاً. وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا. وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في

طلب الطبّ، حتّى نبرّئك منه أو نعذر فيك».

فقال لهم: «ما بي ما تقولون وما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلّغتكم رسالات ربّي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتّى يحكم الله بيني وبينكم».

فلما لم يروا سبيلاً إليه جعلوا يعذّبون الذين أسلموا وصدّقوا دعوته والمسلمون صابرون على ذلك العذاب. حتّى إذا اشتدّ أذى قريش لهم ضاقوا ذرعاً عن تحمّل ما كانوا يسومونهم من سوء العذاب والإهانة».

## رابعاً – تعذيب المسلمين والهزء بهم

تمّ تعذيب الذين سبقوا إلى الإسلام، وخاصة الذين لا عشائر لهم تمنعهم ولا قوة لهم يمنعون بها. فأما من كانت له عشيرة تمنعه، فلم يصل الكفّار إليه. فلما رأوا امتناع من له عشيرة وثبات كل قبيلة على من فيها من مستضعفي المسلمين، جعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ورمضاء مكّة والنار ليفتنوهم عن دينهم.

فمنهم بلال بن رباح الحبشي الذي كان عبداً لأمية بن خلف الجمحي وأسلم فعذبه كثيراً إلى أن بادله أبو بكر بغلام عنده وأعتقه فهاجر وشهد المشاهد كلها مع الرسول ﷺ.

ومنهم عمار بن ياسر أبو اليقظان العنسي وخباب بن الأرت وصهيب بن سنان الرومي وعامر بن فهيرة وأبو فكيهة ولبينة جارية بني مؤمل وزِنّيرة والنهدية مولاة بني نهد وأم عبيس.

أما المستهزئون فهم جماعة من قريش: منهم عمه أبو لهب الذي كان شديداً عليه وعلى المسلمين عظيم التكذيب له دائم الأذى، فكان يطرح العَذَرَة والنتن على باب النبي ﷺ، وكان جاره، فكان رسول الله ﷺ يقول: أي جوار هذا يا بني عبد المطلب؟ فرآه يوماً حمزة فأخذ العذرة وطرحها على رأس أبي لهب، فجعل ينفضه عن رأسه، ويقول: صاحبي أحمق، وأقصر عما كان

يفعله لكنه يضع من يفعل ذلك. ومات أبو لهب بمكة عند وصول الخبر بانهزام المشركين ببدر بمرض يعرف بالعدسة.

ومنهم الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو ابن خال النبي ﷺ، وكان من المستهزئين، وكان إذا رأى فقراء المسلمين قال لأصحابه: هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى. وكان يقول للنبي ﷺ: أما كُلمت اليوم من السماء يا محمد؟ وما أشبه ذلك، فخرج من أهله فأصابه السموم فاسودّ وجهه، فلما عاد إليهم لم يعرفوه وأغلقوا الباب دونه، فرجع متحيراً حتّى مات عطشاً.(١)

ومنهم الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم السهمي والوليد بن المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم وأمية وأبيّ ابنا خلف وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والعاص بن وائل السهمي والد عمرو بن العاص والنضر بن الحارث من بني عبد مناف وأبو جهل بن هشام المخزومي... الخ.

## خامساً – بنو هاشم ينصرون الرسول ﷺ

مع اشتداد حملة المكيِّين على الرسول ﷺ وتعذيب أتباعه والهزء بهم، قرّر بنو هاشم التصدي لهذه الحملة ودعم النبي ﷺ. ولما قرّر المشركون قتل الرسول ﷺ علانية، تدخل أبو طالب إلى جانب ابن شقيقه وقرر منع المكيين من التصدي له مهما كلف الأمر. وهكذا نصر الله رسوله ومنع المشركين عن وقف دعوته.

لقد كانت حرب قريش ضد الرسول ﷺ حرباً شاملة سياسية اجتماعية واقتصادية في أقصى درجات العنف. لذلك سنذكر أدق تفاصيلها كما نقلها ابن كثير عن الزهري فكتب:(٢)

«ثمّ إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتّى بلغ المسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء، وجمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية. فلما

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٥٨٨ – ٥٩٥.

(٢) أنظر تفاصيل كتابة الصحيفة في الملحق رقم ١.

رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله ﷺ شِعَبَهم، وأمرهم أن يمنعوه ممن أرادوا قتله، فاجتمع على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيماناً ويقيناً. فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ، وأجمعوا على ذلك، اجتمع المشركون من قريش فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتّى يسلّموا رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهوداً ومواثيق لا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبداً ولا يأخذهم بهم رأفة حتّى يسلموه للقتل. فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين، واشتدّ عليهم البلاء والجهد وقطعوا عنهم الأسواق فلا يتركوا لهم طعاماً يقدم مكّة ولا بيعاً إلاّ بادروهم إليه فاشتروه يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ﷺ، فكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله ﷺ فاضطجع على فراشه حتّى يرى ذلك من أراد به مكراً واغتيالاً له. فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بني عمه فاضطجعوا على فراش رسول الله ﷺ وأمر رسول الله ﷺ أن يأتي بعض فرشهم فينام عليه. فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من بني عبد مناف ومن قصي ورجال من سواهم من قريش قد ولدتهم نساء من بني هاشم، ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم واستخفوا بالحق، واجتمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة منه وبعث الله على صحيفتهم الأرضة فلحست كل ما كان فيها من عهد وميثاق. ويقال كانت معلّقة في سقف البيت فلم تترك اسماً لله فيها إلاّ لحسته، وبقي ما كان فيها من شرك وظلم وقطيعة رحم، وأطلع الله عزّ وجلّ رسوله على الذي صنع بصحيفتهم فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبي طالب. فقال أبو طالب: لا والثواقب[1] ما كذّبني فانطلق يمشي بعصابته من بني عبد المطلب حتّى أتى المسجد وهو حافل من قريش، فلما رأوهم عامدين لجماعتهم أنكروا ذلك وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء فأتوهم ليعطوهم

(١) الثواقب: النجوم المضيئة.

رسول الله ﷺ. فتكلّم أبو طالب فقال: قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم، فأتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح، وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يأتوا بها. فأتوا بصحيفتهم معجبين بها لا يشكّون أن رسول الله ﷺ مدفوعاً إليهم فوضعوها بينهم. وقالوا: قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا إلى أمر يجمع قومكم، فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد جعلتموه خطراً لهلكة قومكم وعشيرتكم وفسادهم. فقال أبو طالب: إنما أتيتكم لأعطيكم أمراً لكم فيه نَصَف، إن ابن أخي أخبرني - ولم يكذبني - أن الله بريء من هذه الصحيفة التي في أيديكم، ومحا كل اسم هو له فيها، وترك فيها غدركم وقطيعتكم إيانا وتظاهركم علينا بالظلم. فإن كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال فأفيقوا فوالله لا نسلّمه أبداً حتّى يموت من عندنا آخرنا، وإن كان الذي قال باطلاً دفعناه إليكم فقتلتموه أو استحييتم. قالوا: قد رضينا بالذي تقول، ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر خبرها، فلما رأتها قريش كالذي قال أبو طالب قالوا والله إن كان هذا قط إلاّ سحر من صاحبكم، فارتكسوا(١) وعادوا بشرٍّ ما كانوا عليه من كفرهم، والشدة على رسول الله ﷺ والقيام على رهطه والقيام بما تعاهدوا عليه. فقال أولئك النفر من بني عبد المطلب: إن الأولى بالكذب والسحر غيرنا فكيف ترون فإنّا نعلم أن الذي اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب إلى الجبت(٢) والسحر من أمرنا، ولولا أنكم اجتمعتم على السحر لم تفسد صحيفتكم وهي في أيديكم، طمس ما كان فيها من اسمه وما كان فيها من بغي تركه، أفنحن السحرة أم أنتم؟ فقال عند ذلك النفر من بني عبد مناف وبني قصي ورجال من قريش ولدتهم نساء من بني هاشم منهم أبو البختري والمطعم بن عدي وزهير بن أبي أمية بن المغيرة وزمعة بن الأسود وهشام بن عمرو، وكانت الصحيفة عنده وهو من بني عامر بن لؤي، في رجال من أشرافهم ووجوههم: نحن براء مما في هذه

---

(١) ارتكسوا: انتكسوا.

(٢) الجبت: السحر.

الصحيفة. فقال أبو جهل لعنه الله: هذا أمر قضي بليل وأنشأ أبو طالب يقول الشعر في شأن صحيفتهم ويمدح النفر الذين تبرؤوا منها ونقضوا ما كان فيها من عهد».

## سادساً – الهجرة إلى الحبشة

مع اشتداد اضطهاد قريش للمسلمين والأذى ضدهم، ضاقوا ذرعاً بتحمّل ما كانوا يسومونهم من العذاب والإهانة، فأشار النبي ﷺ على الذين ليس لهم عشيرة تحميهم بأن يخرجوا من مكّة إلى أرض الحبشة، فهاجروا إليها تباعاً حتّى بلغ عدد المهاجرين ٨٣ رجلاً ما عدا النساء والأولاد، وهي الهجرة الأولى.

نقل ابن الأثير تفاصيل الهجرة الأولى فكتب:[١]

«ولما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله عز وجل وعمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم قال: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يُظلم أحد عنده حتّى يجعل الله لكم فَرَجاً ومخرجاً مما أنتم فيه، فخرج المسلمون إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم. فكانت أول هجرة في الإسلام. فخرج عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت النبي ﷺ معه. وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وأمرأته سهلة بنت سهيل معه. والزبير بن العوام وغيرهم تمام عشرة رجال. وقيل: أحد عشر رجلاً وأربع نسوة. وكان مسيرهم في رجب سنة خمس من النبوة وهي السنة الثانية من إظهار الدعوة.

وسرت شائعات بين هؤلاء المهاجرين عن أن قريشاً قد أسلمت فعاد منهم قوم. إلا أنهم، عندما اقتربوا من مكة، بلغهم أن إسلام أهل مكّة باطل، فلم يدخل منهم إلا بجوار أو مستخفياً، فدخل عثمان في جوار أبي أحيحة سعيد بن العاص بن أمية فأمِن بذلك، ودخل أبو حذيفة بن عتبة بجوار أبيه. ودخل عثمان بن مظعون بجوار الوليد ابن المغيرة ثمّ قال: أكون في ذمة مشرك!

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٥٩٦ – ٦٠٠.

جوار الله أعزّ، فرد عليه جواره، وكان لبيد بن ربيعة[١] ينشد قريشاً قوله: (ألا كل شيء ما خلا الله باطل).

فقال عثمان بن مظعون: صدقتَ. فلما قال: (وكل نعيم لا محالة زائل)، قال: كذبت نعيمُ الجنةِ لا يزول. فقال لبيد: يا معشر قريش ما كانت مجالسكم هكذا، ولا كان السفه من شأنكم، فأخبروه خبره وخبر ذمته. فقام بعض بني المغيرة فلطم عين عثمان، فضحك الوليد شماتة به حيث رد جواره. وقال لعثمان: ما كان أغناك عن هذا. فقال: إنّ عيني الأخرى لمحتاجة إلى ما نال لمثل هذا. فقال له: هل لك أنْ تعود إلى جواري، قال: لا أعود إلى جوار غير الله، فقام سعد بن أبي وقاص إلى الذي لطم عين عثمان، فكسر أنفه، فكان أول دم أريق في الإسلام في قول.[٢] وأقام المسلمون بمكة يؤذون، فلما رأوا ذلك رجعوا مهاجرين إلى الحبشة ثانياً، فخرج جعفر بن أبي طالب وتتابع المسلمون إلى الحبشة، فكمل بها تمام اثنين وثمانين رجلاً، والنبي ﷺ مقيم بمكّة يدعو إلى الله سرّاً وجهراً. فلما رأت قريش أنه لا سبيل لها إليه رموه بالسحر والكهانة والجنون، وأنه شاعر وجعلوا يصدّون عنه من خافوا أنْ يسمع قوله، وكان أشد ما بلغوا منه ما ذكره عبد الله بن عمرو بن العاص قال: حضرت قريش يوماً بالحجر فذكروا النبي ﷺ وما نال منهم وصبرهم عليه. فبينما هم كذلك إذ طلع النبي ﷺ ومشى حتّى أسلم الركن، ثمّ مر بهم طائفاً فغمزوه ببعض القول فعرفتُ ذلك في وجهه، ثمّ مضى فلما مر بهم الثانية غمزوه مثلها، ثمّ الثالثة: فقال: أتسمعون يا معشر قريش؟ والذي نفس محمّد بيده لقد جئتكم بالذبح. قال: فكأنما على رؤوسهم الطير واقع حتّى إنّ أشدهم فيه ليرفؤه[٣] بأحسن ما يجد. وانصرف رسول الله ﷺ حتّى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم حتّى إذا أتاكم بما تكرهون تركتموه. فبينما هم كذلك إذ طلع

---

(١) لبيد هو الشاعر الجاهلي المشهور الذي ترك الشعر في الاسلام.

(٢) هناك قول آخر أن أول دم أريق في الإسلام كان عندما ضرب سعد رجلاً من المشركين بلحى جمل فجرحه.

(٣) ليرفؤه أي للرفق به.

رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا. فيقول: أنا الذي أقول ذلك. فأخذ عقبة بن أبي معيط بردائه، وقام أبو بكر الصديق دونه يقول - وهو يبكي - ويلكم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ﴾(١) ثمّ انصرفوا عنه.

### أ - قريش تطلب إعادة المهاجرين:

لما وجدت قريش أن المسلمين استقرّوا في الحبشة برعاية النجاشي أرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة المخزومي إليه مع هدايا له ولمعاونيه لطلب استردادهم، لكن النجاشي غضب من هذا الطلب وقال:(٢) «لا والله لا أسلم قوماً جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على مَنْ سواي حتّى أدعوهم وأسألهم عما يقول هذان فإن كانا صادقين سلمتهم إليهما وإن كانوا على غير ما يذكر هذان منعتهم وأحسنت جوارهم.

ثمّ أرسل النجاشي إلى أصحاب النبي ﷺ فدعاهم فحضروا وقد أجمعوا على صِدْقِهِ فيما ساءه وسره، وكان المتكلم عنهم جعفر بن أبي طالب فقال لهم النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من الملل؟

فقال جعفر: أيها الملك كنا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار ويأكل القويّ منّا الضعيف حتّى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا لتوحيد الله، وأن لا نشرك به شيئاً، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وأمرنا بالصلاة والصيام.(٣) وعَدَّدَ عليهم أمور الإسلام، قال: فآمنا به وصدقناه وحرّمنا ما حرم علينا، وحللنا ما أحل لنا، فتعدى علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان. فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى

---

(١) غافر: من الآية ٢٨.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٥٩٩.

(٣) ربما يريد هنا صوم التطوع لأن صوم رمضان لم يكن قد عرف بعد.

بلادك واخترناك على من سواك ورجونا أن لا نُظْلَم عندك أيها الملك.

فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ قال: نعم، فقرأ عليه سطراً من كهيعص[1] فبكى النجاشي وأساقفته، وقال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة، انطلقا والله لا أسلمهم إليكما أبداً».

وأقام المسلمون في الحبشة وأخفقت قريش في إعادتهم إلى مكة. وراح النبي ﷺ يخطط لنقل الدعوة من مكة، حيث بلغت المقاومة حدّاً لا يطاق، إلى مكان آخر. وهكذا راح يبشر القبائل كي يجد بينهم من يحالفه بعد أن فقد عمه وزوجته خديجة. ولما فشل في تأليب أهل الطائف، تطلع إلى يثرب واتصل بالقادمين منها إلى مكّة لإقناعهم بالتحالف معه.

### ب - وفاة خديجة وأبي طالب واشتداد حرب قريش على المسلمين:

بعد فشل الهجرة إلى الحبشة وقبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين وقع للمسلمين عامة وللنبي ﷺ خاصة، حدثان كان لهما تأثير بالغ في مجرى الأحداث وهما وفاة كلّ من خديجة زوجة الرسول ﷺ وعمه أبي طالب.

وكان أبو طالب قد منع اعتداء القريشيين على النبي ﷺ الذي نقل عنه قوله: «ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه حتّى مات أبو طالب».

وبالفعل اشتدت وطأة قريش على النبي ﷺ حتّى أخذ بعضهم ينثر التراب على رأسه، وحتّى أن بعضهم طرح عليه رحم الشاة وهو يصلي.

### ج - الاتصال بالقبائل لتأمين دعمهم:

أمام هذا الواقع، ولا سيما بعد وفاة خديجة وأبي طالب، اشتدّ الأمر على النبي ﷺ فراح يعمل على تأليب القبائل بدءاً بقبيلة ثقيف[2] التي قصدها ومعه زيد بن حارثة يلتمس منها النصر. فلما انتهى إليها، عمد إلى ثلاثة من سادتها وهم إخوة عبدياليل، ومسعود، وحبيب بنو عمرو بن عمير فدعاهم إلى الله وكلّمهم في نصرته على الإسلام والقيام معه

(١) أي سورة مريم.

(٢) كانت ثقيف تقيم بالطائف.

على من خالفه فقال أحدهم: مارد يمرط[١] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك. وقال آخر: أما وجد الله من يرسله غيرك.

وقال الثالث: والله لا أكلمك كلمة أبداً لئن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك. ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلمك.

روى ابن الأثير أخبار محاولات النبي ﷺ تأليب القبائل فكتب:[٢]

«فقام رسول الله ﷺ وقد يئس من خير ثقيف، وقال لهم: إذا أبيتم فاكتموا عليّ ذلك وكره أنْ يبلغ قومه، فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم فاجتمعوا إليه وألجؤوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهو البستان وهما فيه. ورجع السفهاء عنه وجلس إلى ظل حبلة[٣] وقال: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، اللهم يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري، إنْ لم يكن بك عليّ غضبٌ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع، إني أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة مِنْ أن تنزل بي غضبك أو تحل بي سخطك.

فلما رأى ابنا ربيعة ما لحقه تحركت له رحمهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً اسمه عَدّاس فقالا له: خذ قطفاً من هذا العنب واذهب به إلى ذلك الرجل.

* * *

ثمّ انصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى مكّة حتّى إذا كان في جوف الليل قام قائماً يصلي فمر به نفر من الجن وهم سبعة نفر من جن نَصِيبين رائحين إلى اليمن فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا.

وذكر بعضهم أنّ رسول الله ﷺ لما عاد من ثقيف أرسل إلى المطعم بن عدي ليجيره حتّى يبلغ رسالة ربه فأجاره وأصبح المطعم

---

(١) معناه يأخذ أو ينتف.

(٢) ابن الاثير، مرجع سابق، جزء أول، ص ٦٠٧ – ٦٠٨.

(٣) أي شجرة.

قد لبس هو وبنوه وبنو أخيه فدخلوا المسجد، فقال أبو جهل: أمجير أم متابع؟ قال: بل مجير. قال: قد أجرنا من أجرتَ. فدخل النبي ﷺ مكّة وأقام بها، فلما رآه أبو جهل قال: هذا نبيكم يا عبد مناف. فقال عتبة بن ربيعة: وما ينكر أن يكون منا نبي وملك؟

فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فأتاهم فقال: أما أنت يا عتبة فما حميتَ لله وإنما حميتَ لنفسك، وأما أنتَ يا أبا جهل فوالله لا يأتي عليك غير بعيد حتّى تضحك قليلاً وتبكي كثيراً، وأما أنتم يا معشر قريش فوالله لا يأتي عليكم غير كثير حتّى تدخلوا فيما تنكرون وأنتم كارهون. فكان الأمر كذلك.

وكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب، فأتى كِنْدَة في منازلهم وفيهم سيد لهم يقال له «مليح» فدعاهم إلى الله وعرض نفسه عليهم فأبوا عليه. فأتى كلباً إلى بطن منهم يقال لهم: «بنو عبد الله» فدعاهم إلى الله وعرض نفسه عليهم فلم يقبلوا ما عرض عليهم. ثمّ إنه أتى بني حنيفة وعرض عليهم نفسه فلم يكن أحد من العرب أقبح رداً عليه منهم. ثمّ أتى بني عامر فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه فقال له رجل منهم: أرأيت إنْ نحن تابعناك فأظهرك الله على من خالفك؟ أيكون لنا الأمر من بعدك؟

قال الأمرُ إلى الله يضعه حيث يشاء. قال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا ظهرت كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك.

فلما رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم كبير فأخبروه خبر النبي ﷺ ونسبه فوضع يده على رأسه ثمّ قال: يا بني عامر هل من تلافٍ والذي نفسي بيده ما تَقَوَّلها اسماعيليٌّ قط،(١) وإنها الحق وأين كان رأيكم عنه. ولم يزل رسول الله ﷺ يعرض نفسه على كلّ قادم له اسم وشرف ويدعوه إلى الله، وكان كلّما أتى قبيلة يدعوهم إلى الإسلام تبعه عمه أبو لهب، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من كلامه يقول لهم أبو لهب: يا بني فلان إنما يدعوكم هذا إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفاءكم من الجن إلى ما جاء به من الضلالة والبدعة فلا تطيعوه ولا تسمعوا له».

(١) يقصد أن لا عربي اسماعيلي ادعى النبوة حتّى الآن.

## ملحق رقم ١

## الموضوع: تفاصيل صحيفة قريش ضدّ المسلمين[1]

«ولما رأت قريش الإسلام يفشو ويزيد، وأنّ المسلمين قوُوا بإسلام حمزة وعمر، وعاد إليهم عمرو بن العاص وعبد الله ابن أبي أمية من النجاشي بما يكرهون من منع المسلمين عنهم وأمّنهم عنده، ائتمروا في أنْ يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على أن لا ينكحوا بني هاشم وبني المطلب، ولا ينكحوا إليهم، ولا يبيعوهم، ولا يبتاعوا منهم شيئاً. فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا على ذلك، ثمّ علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً لذلك الأمر على أنفسهم. فلما فعلت قريش ذلك انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فدخلوا معه في شِعْبِه واجتمعوا، وخرج من بني هاشم أبو لهب بن عبد المطلب إلى قريش، فلقي هنداً بنت عتبة، فقال: كيف رأيتِ نصري اللات والعزى؟ قالت: لقد أحسنت. فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتّى جهدوا لا يصل إلى أحد منهم شيء إلاّ سرّاً. وذكروا أنّ أبا جهل لقي حكيم بن حزام بن خويلد ومعه قمح يريد به عمته خديجة وهي عند رسول الله ﷺ في الشِّعْب فتعلق به، وقال: والله لا تبرح حتّى أفضحك؛ فجاء أبو البختري بن هشام: فقال مالك وله؟ عنده طعام لعمته أفتمنعه أن يحمله إليها؟ خَلِّ سبيله. فأبى أبو جهل فنال منه، فضربه أبو البختري بلحى جمل فشجه ووطئه وطئاً شديداً وحمزة ينظر إليهم وهم يكرهون أنْ يبلغ النبي ﷺ ذلك فيشمت بهم هو والمسلمون،

---

(١) مأخوذة عن ابن الاثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٦٠٤ - ٦٠٥.

ورسول الله ﷺ يدعو الناس سراً وجهراً والوحي متتابع إليه، فبقوا كذلك ثلاث سنين.

وقام في نقض الصحيفة نفر من قريش، وكان أحسنهم بلاء فيه هشام بن عمرو ابن الحارث بن عمرو بن لؤي وهو ابن أخي نضلة بن هشام بن عبد مناف لأمه، وكان يأتي بالبعير قد أوقره طعاماً ليلاً ويستقبل به الشِّعْب، ويخلع خطامه فيدخل الشعب. فلما رأى ما هم فيه وطول المدة عليهم مشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغرِّة المخزومي أخي أم سلمة، وكان شديد الغيرة على النبي ﷺ والمسلمين، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب فقال: يا زهير أرضيت أنْ تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت؟ أما إني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم يعني أبا جهل، ثمّ دعوته إلى مثل ما دعاك إليه ما أجابك أبداً، فقال: فماذا أصنع وإنما أنا رجل واحد؟ والله لو كان معي رجل آخر لنقضتها. فقال: قد وجدتَ رجلاً. قال: ومن هو؟ قال: أنا. قال زهير: أبغنا ثالثاً. فذهب إلى المُطَعِّم ابن عدي بن نوفل بن عبد مناف. فقال له: أرضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد ذلك موافق فيه؟ أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنّهم إليها منكم أسرع. قال: ما أصنع إنما أنا رجل واحد؟ قال: قد وجدت ثانياً قال من هو؟ قال: أنا. قال: أبغنا ثالثاً، قال: قد فعلت. قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية. قال: أبغنا رابعاً. فذهب إلى أبي البختري بن هشام، وقال له نحواً مما قال للمطعم. قال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم. قال: من هو؟ قال: أنا وزهير والمطعم. قال: أبغنا خامساً فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب ابن أسد، فكلمه وذكر له قرابتهم. قال: وهل على هذا الأمر معين؟ قال: نعم وسَمَّى له القوم فاتعدوا خطم الحَجُون الذي بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك وتعاهدوا على القيام في نقض الصحيفة. فقال زهير: أنا أبدأكم.

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير فطاف بالبيت ثمّ أقبل على الناس،

فقال: يا أهل مكّة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هَلْكى لا يبتاعون ولا يُبتَاع منهم؟ والله لا أقعد حتّى تُشَقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، قال أبو جهل: كذبت والله لا تشق. قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب ما رضينا بها حين كُتِبَتْ، قال أبو البختري: صدق زمعة لا نرضى ما كتبت فيها، قال المطعم ابن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك. وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك. قال أبو جهل: هذا أمرٌ قُضِيَ بليل. وأبو طالب في ناحية المسجد، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلاّ ما كان «باسمك اللهم» كانت تفتتح ربما كتبهم. وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة فَشُلّت يده.

وقيل: كان سبب خروجهم من الشعب أنّ الصحيفة لما كُتِبَتْ وعُلّقت بالكعبة اعتزل الناس بني هاشم وبني المطلب وأقام رسول الله ﷺ وأبو طالب ومن معهما بالشعب ثلاث سنين، فأرسل الله الأرضة وأكلت ما فيها من ظلم وقطيعة رحم، وتركت ما فيها من أسماء الله تعالى. فجاء جبريل إلى النبي ﷺ، فأعلمه بذلك، فقال النبي ﷺ لعمه أبي طالب وكان أبو طالب لا يشك في قوله، فخرج من الشعب إلى الحرم فاجتمع الملأُ من قريش وقال: إن ابن أخي أخبرني أنّ الله أرسل على صحيفتكم الأرضة فأكلت ما فيها من قطيعة رحم وظلم وتركت اسم الله تعالى، فأحضروها فإنْ كان صادقاً علمتُم أنكم ظالمون لنا قاطعون لأرحامنا، وإن كان كاذباً علمنا أنكم على حق وأنّا على باطل. فقاموا سِرَاعاً وأحضروها فوجدوا الأمر كما قاله رسول الله ﷺ».

# الفصل الأول
# الهجرة إلى المدينة[1]

أمام فشل الهجرة إلى الطائف وبعد الحبشة، توجهت أنظار النبي ﷺ كما قلنا إلى يثرب. وأول الأنصار الذين عرض لهم في مكّة كان سويد بن الصامت من الأوس الذي جاء مكّة حاجّاً فتصدى له رسول الله ﷺ ودعاه إلى الإسلام وقرأ عليه القرآن فقال: إن هذا القول حسن. ثمّ انصرف وذهب إلى المدينة لكنه قتل في الحرب مع الخزرج في يوم بعاث وقيل: إنه قتل وهو مسلم.[1]

## أولاً – بيعة العقبة الأولى

نقل الطبري خبر بيعة العقبة التي تمّ فيها الاتفاق بين النبي ﷺ وجماعة من الخزرج على نصرته، فكتب:[2]

«قال: فلمّا أراد الله عزّ وجلّ إظهارَ دينه وإعزاز نبيّه، وإنجاز موعده له، خرج رسولُ الله ﷺ في الموسم الذي لقِيَ فيه النفر من الأنصار، فعَرَضَ نفسَه على قبائل العرب؛ كما كان يصنع في كلّ موسم؛ فبينا هو عند العَقَبَة إذ لقيَ رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً.

قال ابن حُمَيد: قال سلمة: قال محمّد بن إسحاق: فحدّثني عاصم بن عمر بن قَتَادة، عن أشياخ من قومه، قالوا: لمّا لقيَهم رسولُ الله ﷺ، قال لهم: مَنْ أنتم؟ قالوا: نفرٌ من

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٦١٠.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ١، ص ٥٥٨.

الخزرج، قال: أفلا تجلسون حتّى أكلّمكم؟ قالوا: بَلَى، قال: فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، وعَرَض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وهم، فيما ذكر لي، سبعة نفر من الخزرج، منهم من بني النجار وبني زريق وبني سلمة وبني خزام وبني عبيد.

قال: فلما قدِمُوا المدينة على قومهم، ذكروا لهم رسول الله ﷺ، ودعوْهم إلى الإسلام؛ حتّى فشا فيهم فلم تَبْقَ دارٌ من دُورِ الأنصار إلاّ وفيها ذكرٌ من رسول الله ﷺ؛ حتّى إذا كان العام المقبل، وافى الموسم من الأنصار اثنا عَشَر رجلاً، فلقُوه بالعَقَبة، وهي العَقَبة الأولى، فبايعوا رسولَ الله ﷺ على بَيْعة النساء؛ وذلك قبل أن يفترض عليهم الحرب.

وبعث معهم النبي ﷺ مُصعب بن عمير ابن هاشم بن مناف وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدّين. فكان يسمى مصعب بالمدينة: المقريء».

## ثانياً – بيعة العقبة الثانية

نقل ابن الأثير تفاصيل مهمة عن بيعة العقبة الثانية، فكتب:[(١)]

«لما فشا الإسلام في الأنصار اتفق جماعة منهم على المسير إلى النبي ﷺ مستخفين لا يشعر بهم أحد فساروا إلى مكّة في الموسم في ذي الحجة مع كفار قومهم واجتمعوا به وواعدوه أوسط أيام التشريق بالعقبة. فلما كان الليل خرجوا بعد مضي ثلثه مستخفين يتسللون حتّى اجتمعوا بالعقبة وهم سبعون رجلاً معهم امرأتان، نسيبة بنت كعب أم عمارة، وأسماء أم عمرو بن عديّ من بني سلمة. وجاءهم رسول الله ومعه عمه العباس ابن عبد المطلب، وهو كافر أحبّ أن يتوثق لابن أخيه، فكان العباس أول من تكلم فقال: يا معشر الخزرج – وكانت العرب تسمي الخزرج والأوس به – إنّ محمّداً منّا حيث قد علمتم في عز وَمَنَعَة وإنه قد أبى إلاّ الانقطاع إليكم، فإن كنتم ترون أنكم تفون بما دعوتموه إليه ومانعوه فأنتم وذلك، وإن كنتم

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٦١٢ – ٦١٤.

ترون أنكم مسلموه فمن الآن فدعوه فإنه في عزٍّ ومنعة.

فقال الأنصار: قد سمعنا ما قلت فتكلمْ يا رسول الله وخذ لنفسك وربك ما أحببت.

فتكلم وتلا القرآن ورغَّب في الإسلام ثمّ قال: تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

ثمّ أخذ البَرَاء بن مَعْرُور[1] بيده ثمّ قال: والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه ذرارينا فبايِعْنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحرب.

فاعترض الكلام أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله إنّ بيننا وبين الناس حبالاً وإنّا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيتَ إن أظهرك الله عز وجل أنْ ترجع إلى قومك؛ وتَدَعُنَا؟

فتبسم رسول الله ﷺ وقال: بل الدم الدم، والهدْم والهدْم، أنتم مني وأنا منكم، أسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم.

وقال رسول الله ﷺ: أخرجوا إليّ اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم. فأخرجوهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس».[2]

أما الطبري فقد سجل بيعة العقبة الثانية فكتب:[3] «قال: (الحديث منقول عن عبد الله بن كعب بن القينى وكان من أعلم الانصار)، فأسلم، وشهد معنا العقَبة - وكان نقيباً - فبتْنا تلك اللّيلة مع قومنا في رِحالنا حتّى إذا مضى ثُلث الليل، خرجْنا من رِحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلل مستخفين تسلُّل القَطا؛ حتّى اجتمعنا في الشّعب عند العَقَبة؛ ونحن سبعون رجلاً، ومعهم امرأتان من نسائهم: نُسيبة بنت كعب أمّ عُمارة إحدى نساء بني مازن بن النّجار، وأسماء بنت عمرو بن عديّ، إحدى نساء بني سَلِمة؛ وهي أمّ منيع؛ فاجتمعنَا بالشّعب ننتظر رسولَ الله ﷺ؛ حتّى جاءنا ومعه عَمُّه العبّاس بن عبد المطّلب وهو يومئذ على دين قومه؛ إلاّ أنه أحبّ أن يحضُرَ أمرَ

---

(١) هو أحد النقباء وأول من بايع رسول الله ﷺ ليلة العقبة الاولى وأول من استقبل القبلة، وأوصى بثلث ماله وتوفي أول الاسلام.

(٢) انظر ملحق رقم ٢: أسماء من شهد بيعة العقبة الثانية ومن استشهد منهم.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ١، ص ٥٦٢ - ٥٦٣.

ابن أخيه، ويتوثّق له؛ فلمّا جلس كان أوّل مَنْ تكلم العباس بن عبد المطّلب، فقال: يا معشرَ الخزرج - وكانت العربُ يسمّون هذا الحيّ من الأنصار: الخزرج؛ خزرجها وأوسها -إأن محمّداً منّا حيث قد علمتم؛ وقد منعناه من قومنا ممّن هو على مثل رأينا؛ وهو في عزّ من قومه ومَنَعة في بلده؛ وإنه قد أبى إلاّ الانقطاعَ إليكم واللّحُوق بكم؛ فإن كنتم ترَوْن أنّكم وافون له بما دعوتموه إليه؛ ومانعوه ممّن خالفه؛ فأنتم وما تحمّلتم من ذلك؛ وإن كنتم ترَوْن أنّكم مُسلِمُوه وخاذلوه بعد الخروج إليكم؛ فمن الآن فدَعُوه، فإنّه في عزّ وَمَنَعَة من قومه وبلده.

قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت؛ فتكلّمْ يا رسولَ الله؛ وخذ لنفسك وربّك ما أحبَبتَ.

قال: فتكلّم رسولُ الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغّب في الإسلام، ثمّ قال: أبايعُكم عَلى أن تمنعوني ممّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

قال: فأخذ البَرَاء بن معرور بيدِه، ثمّ قال: والذي بعثَك بالحَقّ، لنمنعنّك مما نمنَع منه أُزُرَنا، فبايعْنا يا رسولَ الله، فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلْقة؛ ورثناها كابراً عن كابر.

قال: فاعترض القول - والبَراء يكلّم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم بن التَّيِّهان، حليفَ بني عبد الأشهل، فقال: يا رسولَ الله؛ إنّ بيننا وبين النّاس حِبالاً وإنّا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عَسِيتَ إن نحنُ فعلْنا ذلك، ثمّ أظهرَك الله، أن ترجعَ إلى قومك، وتَدَعَنَا! قال: فتبسّم رسول الله ﷺ، ثمّ قال: بل الدّم الدّم، الهدْم الهدْم! أنتم منّي وأنا منكم؛ أحارب مَنْ حاربتم وأسالم من سالمتم.

وقد قال رسول الله ﷺ: أخرجوا إليّ منكم اثنَيْ عشر نقيباً؛ يكونون على قومهم بما فيهم. فأخرجوا اثني عشر نقيباً؛ تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

حدّثنا ابن حُمَيد، قال: حدّثنا سلمَة، قال: قال محمّد بن إسحاق: فحدّثني عبدُ الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، أنّ رسول الله ﷺ قال للنقباء: أنتمْ على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريّين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي، قالوا: نعم.

حدّثنا ابن حُمَيد، قال: حدّثنا سلمَة، قال: قال محمّد بن إسحاق، قال: وحدّثني

عاصم بن عمر بن قَتَادة، أنّ القومَ لمّا اجتمعوا لبيعةِ رسول الله ﷺ، قال العباس ابن عبادة بن نَضَلة الأنصاريّ، ثمّ أخو بني سالم بن عوف: يا معشرَ الخزرج، هلْ تدرون عَلاَم تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنّكم تبايعونه على حرْب الأحمر والأسود من الناس؛ فإن كنتم ترَوْن أنكم إذا نُهكت أموالكم مصيبة، وأشرافُكم قتلاً أسلمتموه؛ فمن الآن فهو والله خِزْيُ الدّنيا والآخرة إن فعلتم. وإن كنتم ترَوْن أنّكم وافون له بما دعوتموه إليه، على نهْكة الأموال، وقتْل الأشراف فخذوه، فهو والله خيرُ الدّنيا والآخرة. قالوا: فإنّا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف؛ فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفّينا؟ قال: الجنّة، قالوا: ابسُط يدَك، فبسطَ يده فبايعوه.

وأما عاصم بن عمر بن قَتَادة، فقال: والله ما قال العبّاس ذلك إلاّ ليشدَّ العَقْد لرسول الله ﷺ في أعناقهم. وأما عبدُ الله بن أبي بكر، فقال: والله ما قال العبّاس ذلك إلاّ ليؤخّر القوم تلك الليلة رجاء أن يحضرها عبد الله بن أبيّ بن سَلُول، فيكون أقوى لأمر القوم. والله أعلم أيّ ذلك كان؛ فبنو النجّار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أوّل مَنْ ضرب على يديه، وبنو عبد الأشهل يقولون: بل أبو الهيثم بن التّيّهان.

قال ابن حُميد، قال: سلمة، قال محمّد: وأمّا معبَد بن كعب بن مالك فحدّثني - قال أبو جعفر: وحدّثني سعيد ابن يحيى بن سعيد - قال: حدّثني أبي، قال: حدّثنا محمّد بن إسحاق، عن معبد ابن كعب، قال: فحدّثني في حديثه عن أخيه عبد الله بن كعْب عن أبيه كعب بن مالك، قال: كان أوّل مَنْ ضرب على يد رسول الله ﷺ البرَاء بن معرور؛ ثمّ تتابع القوم؛ فلمّا بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشّيطان من رأس العَقبة بأنفذ صوت سمعته قطّ: يا أهلَ الجباجب هل لكم في مُذمّم والصُّباة معه، قد اجتمعوا على حربكم! فقال رسول الله ﷺ: ما يقول عدو الله؟ هذا أزَبّ العقبة، هذا ابن أزْيب؛ اسمع عدو الله؛ أما والله لأفْرُغَنّ لك. ثمّ قال رسول الله ﷺ: ارفضّوا إلى رحالكم. فقال له العبّاس بن عبادة بن نضلة: والّذي بعثَك بالحقّ لئن شئت لنميلنّ غداً على أهل مِنىً بأسيافنا،

فقال رسول الله ﷺ: لم نُؤمَر بذلك؛ ولكن ارجعوا إلى رحالكم، قال: فرَجعنا إلى مضاجعنا، فنِمْنا عليها؛ حتّى أصبحنا؛ فلما أصبحنا غَدَتْ علينا جِلَّةُ قريش حتّى جاؤونا في منازلنا، فقالوا: يا معشرَ الخزرج؛ إنّا قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، تساعدونه على حربنا؛ وإنّه والله ما من حيّ من العرب أبغض إلينا أن تنشَبَ الحرب بيننا وبينهم منكم؛ قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون لهم بالله: ما كان من هذا شيء وما علمناه».

وكانت البيعة الثانية هذه غير الأولى، لأن شروطها تختلف عن شروط بيعة النساء إذ كانت على حرب الأحمر والأسود. وكان قدوم أهل المدينة في ذي الحجة.

أقام رسول الله ﷺ بقية ذي الحجة في مكة، كذلك المحرم وصفر قبل أن يهاجر في شهر ربيع الأول، لاثنتي عشرة ليلة خلت منه إلى المدينة.

## ثالثاً – بدء الهجرة من مكّة إلى المدينة

لما بلغ قريش إسلام من أسلم من الأنصار زادوا ضغوطهم على مَنْ في مكّة من المسلمين وحاولوا إعادتهم عن دينهم الجديد، كما سبق وحاولوا المرة الأولى قبل الهجرة إلى الحبشة، إنما من دون نتيجة.

كتب الطبري عن محاولة قريش هذه ما يلي:(١)

«وحدّثني عليّ بن نصر بن علي، وعبد الوارث بن عبد الصّمد بن عبد الوارث - قال عليّ بن نصر: حدّثنا عبد الصّمد بن عبد الوارث، وقال عبد الوارث: حدّثني أبي - قال: حدّثنا أبان العطّار، قال: حدّثنا هشام بن عُروة، عن عُروة؛ أنّه قال: لمّا رجع من أرض الحبشة من رَجع منها ممن كان هاجر إليها قبل هجرة النبيّ ﷺ إلى المدينة، جعل أهلَ الإسلام يزدادون ويكثرون، وإنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناسٌ كثير، وفشا بالمدينة الإسلام؛ فطفِق أهلُ المدينة

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ١، ص ٥٦٤.

يأتونَ رسول الله ﷺ بمكّة؛ فلمّا رأت ذلك قريش تأمرت على أنْ يفتنوهم، ويشتدّوا عليهم، فأخذوهم وحرصوا على أن يفتنوهم، فأصابهم جَهَد شديد، وكانت الفتنة الآخرة، وكانت فتنتيْن: فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة، حين أمرهم بها، وأذن لهم في الخروج إليها، وفتنة لما رجعوا ورأوْا من يأتيهم من أهل المدينة».

أمام هذا الواقع أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة وقال لهم: قد أُريتُ دار هجرتكم، أُريتُ سَبِخَة ذات نخل بين لابتين».(١)

ونقل ابن كثير أن النبي ﷺ قال:(٢)

«إن الله أوحى إليّ أيَّ هؤلاء البلاد الثلاث نزلتَ فهي دار هجرتك، المدينة أو البحرين أو قنسرين».

## رابعاً – اكتمال الهجرة

نقل عن ابن إسحاق أنه لما أذن الله تعالى في الحرب بقوله: ﴿أُذُن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أُخرجوا من ديارِهِم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا﴾(٣)، أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة.

نقل ابن كثير أخبار الهجرة إلى المدينة (رأينا ضرورة لحظها في هذا الجزء بتفاصيلها نظراً إلى أهميتها لما سيكون لها من أثر بارز في مستقبل الدين الاسلامي). كتب ابن كثير:

«أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال: «إنَّ الله قَدْ جَعَلَ لَكُمْ إِخْوَاناً وَدَاراً تَأْمَنُونَ بِهَا»

---

(١) السبخة: أي أرض ذات ملح ما زالت بوراً.
اللابة: الأرض الحارة.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٧٨.
(٣) الحج: ٣٩ – ٤٠.

فخرجوا إليها أرسالاً. وأقام رسول الله ﷺ بمكّة ينتظر أن يأذن له ربّه في الخروج من مكّة، والهجرة إلى المدينة، فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين من قريش، من بني مخزوم: أَبو سَلَمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكانت هجرته إليها قبل بيعة العقبة بسنة، حين آذَتْه قريشٌ مرجعه من الحبشة، فعزم على الرجوع إليها، ثمّ بلغه أن بالمدينة لهم إخواناً فعزم إليها.

قال ابن إسحاق: فحدَّثني أبي عن سَلَمة ابن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة، عن جدّته أم سَلَمة قالت: لما أجمع أبو سَلَمة الخروج إلى المدينة رحَّل لي بعيره ثمّ حملني عليه وجعل معي ابني سَلَمة بن أبي سَلَمة في حجري، ثم خرج يقود بي بعيره، فلما رأته رجالُ بني المغيرة قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده وأخذوني منه، قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سَلَمة، وقالوا: والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، قالت: فتجاذبوا ابني سَلَمة بينهم حتّى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سَلَمة إلى المدينة، قالت: ففرّق بيني وبين ابني وبين زوجي. قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس في الأبطح فما أزال أبكي حتّى أمسي – سنة أو قريباً منها – حتّى مرّ بي رجل من بني عمّي، أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تَخْرجون من هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟ قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئتِ. قالت: فردّ بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني، قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حِجري، ثمّ خرجت أريد زوجي بالمدينة، قالت: وما معي أحد من خلق الله. حتّى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة ابن أبي طلحة أخا بني عبد الدار، فقال: إلى أين يا ابنة أبي أمية؟ قالت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أوما معك أحد؟ قلت: ما معي أحد إلاّ الله وبنيّ هذا، فقال: والله ما لك من مَتْرك. فأخذ بخطام البعير، فانطلق

معي يَهْوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط، أرى أنه كان أكرم منه؛ كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتّى إذا نزلت استأخر بعيري، فحطّ عنه، ثمّ قيّده في الشجرة ثمّ تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها. فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدّمه فرحّله، ثمّ استأخر عني، وقال: اركبي، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقادني حتّى ينزل بي. فلم يزل يصنع ذلك بي حتّى أقْدَمني المدينة، فلمّا نظر إلى قرية بني عمرو ابن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سَلَمة بها نازلاً - فادخليها على بركة الله. ثمّ انصرف راجعاً إلى مكّة، فكانت تقول: ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سَلَمة، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان ابن طلحة. أسلم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري هذا بعد الحديبية، وهاجر هو وخالد بن الوليد معاً، وقتل يوم أُحُد أبوه وإخوته؛ الحارث وكلاب ومسافع، عمه عثمان بن أبي طلحة. ودفع إليه رسول الله ﷺ يوم الفتح وإلى ابن عمه شيبة والد بني شيبة مفاتيح الكعبة أقرّها عليهم في الإسلام كما كانت في الجاهلية.

قال ابن إسحاق: ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبي سَلَمة: عامر بن ربيعة، حليف بني عدي، معه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمة العدويّة، ثمّ عبدُالله بن جحش بن رئاب بن يَعْمر بن صَبرة بن مرّة ابن كبير بن غَنْم بن دُودان بن أسد بن خُزَيمة، حليف بني أمية بن عبد شمس، احتمل بأهله وبأخيه عبد أبي أحمد، اسمه عبد كما ذكره ابن إسحاق وقيل ثمامة. قال السهيلي: والأول أصح. وكان أبو أحمد رجلاً ضرير البصر، وكان يطوف مكّة أعلاها وأسفلها بغير قائد، وكان شاعراً، وكانت عنده الفارعة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت أمّه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم. فغُلّقت دار بني جحش هجرة، فمرّ بها عتبة بن ربيعة والعبّاس بن عبد المطلب وأبو جهل وأبو جهل بن هشام وهم مصعدون إلى أعلى مكّة، فنظر إليها عتبة تخفق أبوابها يباباً، ليس بها ساكن، فلما رآها كذلك تنفّس الصعداء قال عتبة: أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها.

قال ابن إسحاق: فنزل أبو سَلَمة وعامر ابن ربيعة وبنو جحش بقباء على مبشر بن عبد المنذر ثمّ قدم المهاجرون أرسالاً. قال: وكان بنو غنم بن دودان أهل إسلام قد أوعبوا إلى المدينة هجرة رجالهم ونسائهم وهم: عبد الله بن جحش، وأخوه أبو أحمد، وعكاشة بن محصن، وشجاع، وعقبة ابنا وهب، وأربد بن جميرة(١) ومنقذ بن نباتة، وسعيد ابن رقيش، ومحرز بن نضلة، وزيد بن رقيش، وقيس بن جابر، وعمرو بن محصن، ومالك بن عمرو، وصفوان بن عمرو، وثقف بن عمرو وربيعة بن أكثم، والزبير بن عبيدة، وتمام بن عبيدة، وسخبرة ابن عبيدة، ومحمّد بن عبد الله بن جحش. ومن نسائهم: زينب بنت جحش، وحمنة بنت جحش، وأم حبيب بنت جحش، وجدامة بنت جندل، وأم قِيس بِنت محصن، وأم حبيب بنت ثمامة، وآمنة بنت رقيش، وسخبرة بنت تميم.

قال ابن إسحاق: ثمّ خرج عمر بن الخطاب، وعيّاش بن أبي ربيعة حتّى قدما المدينة. فحدّثني نافع عن عبد الله بن عمر عن أبيه. قال: اتعدنا لمّا أردت الهجرة إلى المدينة، أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص؛ التَّناضِب(٢) من أضاة بني غفار فوق سَرِف، وقلن: أيّنا لم يُصْبِح عندها فقد حُبِس، فليمض صاحباه، قال: فأصبحت أنا وعيّاش عند التناضب، وحبس هشام وفتن فافتتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقُباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش - وكان ابن عمّهما وأخاهما لأمهما - حتّى قدما المدينة ورسول الله ﷺ بمكّة، فكلّماه وقالا له: إن أمك قد نذرت أن لا يمسّ رأسها مشط حتّى تراك، ولا تستظل من شمس حتّى تراك، فرِقْ لها، فقلت له: إنه والله إن يريدك القوم إلاّ ليفتنوك عن دينك فاحذرْهم؛ فوالله لو قد آذى أمك القملُ لامتشطت، ولو قد اشتدّ عليها حر مكّة لاستظلّت. قال: فقال: أبرّ قسم أمي، ولي هنالك مالٌ فآخذه قال: قلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش

(١) أبو ابن حميرة.

(٢) التناضب أي الابتعاد.

مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهبْ معهما. قال: فأبى علي إلاّ أن يخرج معهما، فلما أبى إلاّ ذلك قلت: أما إذ فعلت ما فعلت، فخذْ ناقتي هذه، فإنها ناقة نجيبة ذَلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من أمر القوم ريبٌ فانج عليها. فخرج عليها معهما حتّى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يا أخي والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى. فأناخ وأناخها ليتحوّل عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه رباطاً، ثمّ دخلا به مكّة وفتناه فافتتن. قال عمر: فكنا نقول لا يقبل الله ممن افتتن توبة. وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم حتّى قدم رسول الله ﷺ المدينة وأنزل الله ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِنْ رَبِّكُم مِنْ قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ(٥٥)﴾[١] قال عمر: وكتبتها وبعثت بها إلى هشام بن العاص، قال هشام: فلما أتتني جعلت أقرأها بذي طوى أصعد بها وأصوب ولا أفهمها حتّى قلت: اللهم فهّمنيها، فألقى الله في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا؛ قال: فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة. وذكر ابن هشام أن الذي قدم بهشام بن العاص، وعياش بن أبي ربيعة إلى المدينة؛ الوليد بن المغيرة سرقهما من مكّة، وقدم بهما يحملهما على بعيره وهو ماش معهما. وقال البخاري: حدّثنا أبو الوليد، حدّثنا شعبة، أنبأنا أبو إسحاق سمع البراء. قال: أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، ثمّ قدم علينا عمّار وبلال. وحدّثني محمّد بن بشّار، حدّثنا غندر، حدّثنا شعبة عن أبي إسحاق سمعت البراء بن عازب، قال: أول من قدم علينا مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، وكانا يقرئان الناس، فقدم بلال وسعد وعمّار ابن ياسر، ثمّ قدم عمر بن

(١) الزمر: ٥٣ - ٥٥.

الخطاب في عشرين نفراً من أصحاب النبي ﷺ، ثمّ قدم النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ حتّى جعل الإماء يَقُلْنَ: قدم رسول الله ﷺ، فما قدم حتّى قرأت: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ في سور من المفصل. ورواه مسلم في صحيحه من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب بنحوه، وفيه التصريح بأن سعد بن أبي وقّاص هاجر قبل قدوم رسول الله ﷺ المدينة، وقد زعم موسى بن عقبة عن الزهري أنه إنما هاجر بعد رسول الله ﷺ والصواب ما تقدم.

قال ابن إسحاق: ولما قدم عمر بن الخطاب المدينة هو ومن لحق به من أهله وقومه، وأخوه زيد بن الخطاب، وعمرو وعبدالله ابنا سراقة بن المعتمر، وخُنَيس بن حذافة السهمي زوج ابنته حفصة، وابن عمّه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وواقد بن عبد الله التميمي، حليف لهم، وخَوْليّ بن أبي خَوْلي، ومالك بن أبي خَوْلي، حليفان لهم من بني عجل، وبنو البُكير إياس وخالد وعاقل وعامر وحلفاؤهم من بني سعد بن ليث، فنزلوا على رفاعة بن عبد المنذر بن زنير في بني عمرو بن عوف بقباء.

قال ابن إسحاق: ثمّ تتابع المهاجرون رضي الله عنهم، فنزل طلحة بن عُبَيد الله، وصهيب بن سنان على خبيب بن إساف أخي بَلْحارث بن الخزرج بالسُّنْح. ويقال بل نزل طلحة على أسعد بن زرارة.

قال ابن هشام: وذُكر لي عن أبي عثمان النهديّ، أنه قال: بلغني أن صهيباً حين أراد الهجرة قال له كفّار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا وبلغت الذي بلغت، ثمّ تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم! قال: فإني قد جعلت لكم مالي. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «رَبِحَ صُهَيْبٌ، رَبِحَ صُهَيْبٌ» وقد قال البيهقي: حدّثنا الحافظ أبو عبد الله - إملاء - أخبرنا أبو العبّاس إسماعيل بن عبد الله بن محمّد بن ميكال، أَخبرنا عبدان الأهوازي، حدّثنا زيد بن الجريش، حدّثنا يعقوب بن محمّد الزهري، حدّثنا حصين بن حذيفة بن صيفي بن صهيب، حدّثني أبي وعمومتي عم سعيد بن

المسيّب، عن صهيب. قال: قال رسول الله ﷺ: «أُريتُ دَارَ هِجْرَتِكُم سَبْخَةً بَيْنَ ظَهْرَانِي حَرَّتَين، فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ هَجَرَ أَوْ تَكُونَ يَثْرِبَ» قال: وخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة وخرج معه أبو بكر، وكنت قد هممت معه بالخروج فصدّني فتيان من قريش، فجعلت ليلتي تلك أقوم لا أقعد، فقالوا قد شغله الله عنكم ببطنه – ولم أكن شاكياً – فناموا. فخرجت ولحقني منهم ناس بعدما سرت يريدوا ليردّوني فقلت لهم إن أعطيتكم أواقي من ذهب وتخلوا سبيلي وتوفون لي ففعلوا، فتبعتهم إلى مكّة فقلت: احفروا تحت أسكفة الباب فإن بها أواقي، واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحلتين. وخرجت حتّى قدمت على رسول الله ﷺ بقباء قبل أن يتحوّل منها، فلما رآني قال: «**يَا أَبَا يَحْيَى رَبِحَ البَيْعُ**» فقلت: يا رسول الله ما سبقني إليك أحد، وما أخبرك إلاّ جبرائيل عليه السلام.

قال ابن إسحاق: ونزل حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وأبو مرثد كناز بن الحصين وابنه مرثد الغنويان حليفا حمزة، وأَنسة وأَبو كبشة موليا رسول الله ﷺ على كلثوم بن الهدم أخي بني عمرو بن عوف بقباء، وقيل على سعد بن خَيْثمة، وقيل بل نزل حمزة على أسعد بن زرارة والله أعلم. قال: ونزل عبيدة بن الحارث وأخواه الطّفيل وحُصين ومِسْطَح بن أثاثة وسُوَيْبط بن سعد ابن حُريملة أخو بني عبد الدار، وطُلَيب بن عُمَير أخو بني عبد بن قصي، وخبّاب مولى عتبة بن غزوان على عبد الله بن سلمة أخي بَلْعجلان بقباء. ونزل عبد الرَّحمن بن عوف في رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع، ونزل الزبير بن العوّام وأَبو سَبْرة بن أبي رُهْم على منذر بن محمّد بن عُقْبة بن أُحَيحة بن الجلاّح بالعُصْبة دار بني جَحْجَبي، ونزل مُصعب بن عُمَير على سعد بن مُعاذ، ونزل أبو حُذَيفة بن عتبة وسالم مولاه على سلمة. قال ابن إسحاق وقال الأموي: على خُبَيْب ابن أساف أخي بني حارثة، ونزل عُتْبَة بن غزوان على عبّاد بن بشر بن وَقْش في بني عبد الأشهل، ونزل عثمان بن عفّان على أوس بن ثابت بن المُنذر أخي حسّان بن ثابت في دار بني النجّار. قال ابن إسحاق: ونزل العزاب من المهاجرين على سعد بن خَيْثمة وذلك أنه كان عَزَباً والله أعلم أي ذلك كان.

وقال يعقوب بن سفيان: حدَّثني أحمد ابن أبي بكر بن الحارث بن زرارة بن مصعب ابن عبد الرَّحمن بن عوف، حدّثنا عبد العزيز بن محمّد عن عُبيد الله عن نافع، عن ابن عمر أنه قال: قدمنا مكّة فنزلنا العصبة، عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجرّاح وسالم مولى أبي حُذَيفة. فكان يؤمّهم سالم مولى أبي حذيفة لأنه كان أكثرهم قرآناً».

المسعودي من جهته نقل أخبار هجرة الرسول ﷺ باختصار فكتب:(١)

«أمر الله عز وجل رسوله ﷺ بالهجرة، وفرض عليه الجهاد، وذلك في سنة إحدى من سني الهجرة، وهي السنة التي نزل فيها الأذان، وكانت سنة أربع عشرة من المبعث».

وكان ابن عباس يقول: بعث رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة، وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة، وهاجر عشرا، وقبض وهو ابن ثلاث وستين سنة.

## تحديدُ المَهجَر

وكانت سنة إحدى من الهجرة، وهي سنة اثنتين وثلاثين من ملك كسرى أبرويز، وسنة تسع من ملك هرقل ملك النصرانية، وسنة تسعمائة وثلاث وثلاثين من ملك الإسكندر المقدوني.

## الهجْرَةُ

قال المسعودي: وقد ذكرنا في الكتاب الأوسط كيفية فعل رسول الله ﷺ في خروجه من مكّة ودخوله الغار واستئجار علي له الإبل، ونومه على فراشه.

فخرج النبيّ ﷺ من مكة، ومعه أبو بكر وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وعبد الله بن أريقط الديلي دليل لهم على الطريق، ولم يكن مسلماً.

وكان مقام عليّ بن أبي طالب بعده بمكة ثلاثة أيام إلى أن أدى ما أُمر بأدائه، ثمّ لحق بالرسول ﷺ.

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٠١ - ٣٠٢.

أ - دُخُولُ المَدينَةِ:

وكان دخوله عليه الصلاة والسلام إلى المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، فأقام بها عشر سنين كوامل، وكان نزوله عليه الصلاة والسلام في حال موافاته بالمدينة بقباء على سعد بن خيثمة وابتنى المسجد.

وكان مقامه بقباء يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس.

وسار يوم الجمعة ارتفاع النهار، وأتته الأنصار حيّاً حيّاً يسأله كلّ فريق منهم النزول عليه، ويتعلقون بزمام[1] راحلته وهي تحذّ[2] به، فيقول عليه الصلاة والسلام: «خلّوا عنها فإنها مأمورة»، حتّى أدركته الصلاة في بني سالم، فصلّى بهم يوم الجمعة، وكانت تلك أول جمعة صليت في الإسلام.

وهذا موضع تنازع الفقهاء في العدد الذي تتم بهم صلاة الجمعة؛ فذهب الشافعي في آخرين معه إلى أن الجمعة لا تجب إقامتها حتّى يكون عدد المصلين أربعين فصاعداً، وأقل من ذلك لا يجزي، وخالفه غيره من الفقهاء من أهل الكوفة وغيرهم.

وكانت صلاته في بطن الوادي المعروف بوادي رانوناء إلى هذه الغاية.

ثمّ استوى على ناقته، فسارت لا تعرج[3] على شيء، ولا يردها رادّ، حتّى أتت إلى موضع مسجده عليه الصلاة والسلام - والموضع يومئذ لغلامين يتيمين من بني النجار - فبركت، ثمّ سارت فمضت غير بعيد، ثمّ عادت إلى مبركها فبركت واطمأنت، والنبيّ ﷺ يراعي أحكام الباري فيه، وتوفيقه له.

فنزل عنها، وسار إلى منزل أبي أيوب الأنصاري - وهو خالد بن كليب بن ثعلبة ابن عوف بن سحيم بن مالك بن النجار - فأقام في منزله شهراً حتّى ابتنى المسجد من بعد ابتياعه الموضع».

---

(١) الزّمام: ما تقاد به الدّابة من حبل أو غيره.

(٢) تحذّ: تسرع.

(٣) تعرج: تميل وتلوي.

الطبري بدوره نقل قصة هجرة الرسول ﷺ بنفسه رغم ترقب قريش له لمنعه من ذلك، فكتب:[1]

«وأقام رسول الله ﷺ بمكّة بعد أصحابه من المهاجرين؛ ينتظر أن يُؤذَن له في الهجرة. ولم يتخلّف معه بمكّة أحد من المهاجرين إلاّ أُخِذ فحبس أو فتن إلاّ عليّ بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قُحافة. وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسولَ الله ﷺ في الهجرة، فيقول له رسول الله ﷺ، لا تعجلْ، لعلّ الله أن يجعل لك صاحباً، فطمع أبو بكر أن يكونه».

### ب - قريش تحاول منع النبي ﷺ من الهجرة:

كتب الطبري:[2]

«فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم، بغير بلدهم، ورأَوْا خروجَ أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً، وأصابوا منهم مَنَعَة، فحذروا خروجَ رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنّه قد أجمع أن يلحَقَ بهم لحربهم، فاجتمعوا له في دار النّدوة؛ وهي دار قُصَيّ بن كِلاب، التي كانت قريش لا تقضِي أمراً إلاّ فيها، يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه!

فقال بعضُهم لبعض: إنّ هذا الرجل قد كان أمْره ما قد كان وما قد رأيتم؛ وإنّا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمَنْ قد اتّبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً؛ قال: فتشاوروا. ثمّ قال قائلٌ منهم: احبِسُوه في الحديد، وأغلقوا عليه باباً، ثمّ تربّصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله: زُهَيْراً، والنّابغة ومَنْ مضى منهم؛ من هذا الموت حتّى يصيبه منه ما أصابهم.

ثمّ تشاوروا، فقال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فنَنفيَه من بلدنا؛ فإذا خرج عنّا فوالله ما نبالي أين ذهبَ، ولا حيث وقع، إذ غاب عنا وفرغنا منه. فأصلحنا أمرَنا، وألفتُنا كما كانت.

قال: فقال أبو جهل بن هشام: والله إنّ لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعدُ! قالوا:

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ١، ص ٥٦٥ - ٥٧٤.

(٢) الطبري، المرجع نفسه.

وما هو يا أبا الحكَم؟ قال: أرى أن تأخذوا من كلّ قبيلة فتىً شابّاً جلْداً، نسيباً وسيطاً فينا، ثمّ نعطي كلّ فتىً منهم سيفاً صارما ثمّ يعمِدُون إليه، ثمّ يضربونه بها ضرْبة رجل واحد فيقتلونه فنستريح؛ فإنّهم إذا فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل كلّها؛ فلم يقدر بنُو عبد مناف على حَرْب قومهم جميعاً، ورضُوا منّا بالعقل فعلقناه لهم.

قال: فقال الشيخ النجديّ: القول ما قال الرّجُل، هذا الرأي لا رأْيَ لكم غيره.

فتفرّق القوم على ذلك وهم مجمِعون له. فأتى جبريل رسولَ الله ﷺ، فقال: لا تبتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنتَ تبيت عليه!

قال: فلمّا كان العَتمة من اللّيل، اجتمعوا على بابه فترصّدوه متى ينام، فيثبون عليه. فلمّا رأى رسول الله ﷺ مكانهم، قال لعلي ابن أبي طالب: نمْ على فراشي، واتّشحَ ببرْدي الحضرميّ الأخضر؛ فنمْ فإنه لا يخلُص إليك شيء تكرهه منهم. وكان رسول الله ﷺ ينام في بُرده ذلك إذا نام.

قال أبو جعفر: زاد بعضُهم في هذه القصة في هذا الموضع: وقال له: إنْ أتاك ابن أبي قُحافة، فأخبرْه أنّي توجّهت إلى ثوْر، فَمُرْهُ فليلْحق بي، وأرسل إليّ بطعام، واستأجرْ لي دليلاً يدلّني على طريق المدينة؛ واشتر لي راحلةً. ثمّ مضى رسولُ الله ﷺ، وأعمى الله أبصارَ الذين كانوا يرصُدُونه عنه، وخرج عليهم رسولُ الله ﷺ.

فحدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلمَة، قال: حدّثني محمّد بن إسحاق، قال: حدّثني يزيد بن زياد، عن محمّد بن كعب القُرَظيّ، قال: اجتمعوا له، وفيهم أبو جهل بن هشام، فقال وهم على بابه: إنّ محمّداً يزعُم أنّكم إن تابعتُمُوه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثمّ بُعثتم بعد موتكم فجُعلت لكم جنان كجنان الأردنّ، وإن لم تفعلوا كان لكم منه ذبْح، ثمّ بُعثتم بعد موتكم؛ فجعلت لكم نار تحرَقون فيها.

قال: وخرج رسولُ الله ﷺ، فأخذ حَفنة من تراب، ثمّ قال: نعم، أنا أقول ذلك، أنت أحدُهم. وأخذ الله على أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم؛ وهو يتلو هذه الآيات من يس: ﴿يس * والقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إنَّكَ لَمِنَ

الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[1] إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾،[2] حتّى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات، فلم يبقَ منهم رجل إلاّ وقد وضع على رأسه تراباً؛ ثمّ انصرف إلى حيث أراد أن يذهب.

فأتاهم آتٍ ممّن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون ها هنا؟ قالوا: محمّداً، قال: خيّبكم الله! قد والله خَرَجَ عليكم محمّد، ثمّ ما ترك منكم رجلاً إلاّ وقد وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته؛ أفما ترَوْنَ ما بكم؟ قال: فوضع كلّ رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثمّ جعلوا يطّلعون، فيرَوْن عليّاً على الفراش متسجّياً بُبْرد رسول الله ﷺ، فيقولون: والله إنّ هذا لمحمّد نائم، عليه بُردُه؛ فلم يبرحُوا كذلك حتّى أصبحوا، فقام عليّ عن الفراش، فقالوا: والله لقد صَدَقَنا الذي كان حَدّثنا، فكان ممّا نزل من القرآن في ذلك اليوم، وما كانوا أجمعوا له: ﴿وإذْ يَمْكُرُ بكَ الَّذينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾،[3] وقول الله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فإنّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصين﴾.[4]

وقد زعم بعضُهم أنّ أبا بكْر أتى عليّاً فسأله عن نبيّ الله ﷺ فأخبره أنه لحِقَ بالغار من ثوْر، وقال: إن كان لك فيه حاجةٌ فالحقْه، فخرج أبو بكر مسرعاً، فلحق نبيّ الله ﷺ في الطّريق، فسمع رسول الله ﷺ جَرْسَ أبي بكر في ظلْمة اللّيل، فحسِبه من المشركين، فأسرع رسولُ الله ﷺ المشيَ، فانقطع قِبَالُ نعله ففلق إبهامَه حَجَرٌ فكثر دمها. وأسرع السعيَ، فخاف أبو بكر أن يشقّ على رسول الله ﷺ، فرفع صوته، وتكلّم، فعرفه رسولُ الله ﷺ فقام حتّى أتاه، فانطلقا ورِجْل رسول الله ﷺ تستنّ دماً؛ حتّى انتهى إلى الغار مع الصّبح؛ فدخلاه. وأصبح الرّهط الذين كانوا

---

(1) يس: ١ - ٤.

(2) يس: ٩.

(3) سورة الأنفال: ٣٠.

(4) سورة الطور: ٣٠ - ٣١.

يرصُدون رسول الله ﷺ، فدخلوا الدّار، وقام عليّ عليه السلام عن فراشه، فلما دنوْا منه عرفوه، فقالوا له: أين صاحبُك؟ قال: لا أدري، أورَقيباً كنت عليه! أمرتموه بالخروج فخرج؛ فانتهروه وضربوه وأخرجوه إلى المسجد، فحبسوه ساعة ثمّ تركوه، ونجّى الله رسولَه من مكرهم ﴿وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾.

قال أبو جعفر: وأذِنَ الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ عند ذلك بالهجرة، فحدّثنا عليّ بن نصر الجهضميّ قال: وحدثنا عبد الصّمد بن عبد الوارث، وحدّثنا عبد الوارث بن عبد الصّمد بن عبد الوارث، قال: حدّثنا أبي، قال: حدّثنا أبان العطّار، قال: حدّثنا هشام ابن عُرْوة، عن عُرْوة، قال: لَمّا خرج أصحابُ رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقَبْل أن يخرج - يعني رسول الله ﷺ - وقبل أن تنزل هذه الآية التي أمِرُوا فيها بالقتال، استأذنه أبو بكر؛ ولم يكن أمرَه بالخروج مع مَنْ خرج من أصحابه، حبسه رسول الله ﷺ، وقال له: أنظِرْني، فإنّي لا أدري؛ لعلّي يُؤذن لي بالخروج. وكان أبو بكر قد اشترى راحلتين يعدّهما للخروج مع أصحاب رسول الله ﷺ إلى المدينة؛ فلمّا استنظره رسولُ الله ﷺ، وأخبره بالذي يرجو منه ربّه أن يأذَن له بالخروج، حَبَسهما وعَلَفهما، انتظار صحبة رسولُ الله ﷺ، حتّى أسمنهما. فلما حبس عليه خروج النبيّ ﷺ، قال أبو بكر: أتطمع أن يؤذن لك؟ قال: نعم؛ فانتظره فمكث بذلك.

فأخبرتني عائشة، أنهم بينا هم ظُهراً في بيتهم، وليس عند أبي بكر إلاّ ابنتاه: عائشة وأسماء؛ إذا هم برسول الله ﷺ، حين قام قائم الظّهيرة - وكان لا يخطئه يوماً أن يأتيَ بيتَ أبي بكر أوّل النهار وآخره - فلما رأى أبو بكر النبيّ ﷺ جاء ظهراً، قال له: ما جاء بك يا نبيّ الله إلاّ أمرٌ حدث؟ فلمّا دخلَ عليهم النبيّ ﷺ البيت، قال لأبي بكر: أَخْرِج مَن عندك، قال: ليس علينا عَين، إنّما هما ابنتاي، قال: إنّ الله قد أذِن لي بالخروج إلى المدينة، فقال أبو بكر: يا رسولَ الله، الصّحبة، الصّحبة! قال: الصحبة. قال أبو بكر: خذ إحدى الرّاحلتين - وهما الرّاحلتان اللتان كان يُعلِفهما أبو بكر، يُعِدُّهما للخروج، إذا أُذِن لرسول الله ﷺ - فأعطاه إحدى الرّاحلتين، فقال: خذها يا رسول الله فارتحِلْها، فقال النبيّ ﷺ: قد

أخذتُها بالثمن. وكان عامر بن فُهَيرة مُولّداً من مُوَلّدي الأزْدِ، كان للطُّفَيْل بن عبد الله ابن سَخْبَرَة، وهو أبو الحارث بن الطُّفَيل، وكان أخا عائشة بنت أبي بكر وعبد الرحمن ابن أبي بكر لأمّهما؛ فأسلم عامر بن فُهيرة، وهو مملوك لهم، فاشتراه أبو بكر فأعتقه، وكان حَسَنَ الإسلام. فلمّا خرج النبيّ ﷺ وأبو بكر، كان لأبي بكر مَنِيحةٌ من غَنَمٍ تروحُ على أهله، فأرسل أبو بكر عامراً في الغنم إلى ثوْر، فكان عامر بن فهَيْرة يروح بتلك الغَنَم على رسول الله ﷺ بالغار في ثوْر، وهو الغار الذي سمّاه الله في القرآن، فأرسل بظهرهما رجلاً من بني عبد بن عديّ، حليفاً لقريش من بني سَهْم، ثمّ آل العاص بن وائل؛ وذلك العَدَويّ يومئذ مشركٌ، ولكنّهما استأجراه، وهو هادٍ بالطّريق. وفي الليالي التي مكثا بالغار كان يأتيهما عبدُ الله بن أبي بكر حين يُمسي بكلّ خبر بمكّة، ثمّ يصبح بمكّة ويريح عامر الغنم كلّ ليلة، فيحلُبان، ثمّ يسرح بُكرةً فيصبح في رُعْيانِ النّاس، ولا يُفْطَن له؛ حتّى إذا هدأت عنهما الأصوات، وأتاهما أن قد سُكِت عنهما، جاءهما صاحبهما ببعيريْهما، فانطلقا وانطُلق معهما بعامر بن فهَيْرَة يخدمُهما ويعينهما، يُردفه أبو بكر ويُعقبه على رَحْله، ليس معهما أحدٌ إلاّ عامر بن فُهَيْرة، وأخو بني عد يهديهما الطّريق. فأجاز بهما في أسفَلَ مكة، ثمّ مضى بهما حتّى حاذَى بهما الساحل، أسفلَ من عُسْفان، ثمّ استجاز بهما حتّى عارض الطّريق بعدما جاوز قُدَيْداً، ثمّ سلك الخَرّار، ثمّ أجاز على ثَنيَّة المَرَة، ثمّ أخذ على طريق يقال لها المدّلجة بين طريق عَمْق وطريق الرّوحاء، حتّى توافَوْا طريق العَرْج، وسلك ماء يقال له الغابر عن يمين رَكُوبة؛ حتّى يَطْلع على بطن رِئم، ثمّ جاء حتّى قدِم المدينة على بني عمرو بن عوف قبل القائلة. فحُدّثت أنه لم يبقَ فيهم إلاّ يومين – وتزعم بنو عمرو بن عوف أنْ قد أقام فيهم أفضل من ذلك – فاقتاد راحلتَه فاتّبعَتْه حتّى دخل في دُور بني النّجّار، فأراهم رسولُ الله ﷺ مِرْبداً كان بين ظهريْ دورهم.

وقد حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلمَة، قال: حدّثني محمّد بن إسحاق، قال: حدّثني محمّد بن عبد الرحمن بن عبد الله ابن الحصين التميميّ، قال: حدّثني عُروة بن الزّبير، عن عائشة زوْج النبيّ ﷺ، قالت:

كان رسولُ الله ﷺ لا يخطئه أحدٌ طَرَفَي النهار أن يأتيَ بيت أبي بكر إمّا بُكْرةً، وإمّا عشيّة، حتّى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه لرسوله بالهجرة، وبالخروج من مكّة من بين ظهرانيْ قومه، أتانا رسولُ الله ﷺ بالهاجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها. قالت: فلمّا رآه أبو بكر قال: ما جاء رسولُ الله ﷺ هذه السّاعة إلاّ لأمرٍ حدث. قالت: فلمّا دخل تأخّر أبو بكر عن سريره فجلس رسولُ الله ﷺ، وليس عند أبي بكر إلاّ أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسولُ الله ﷺ: أخْرِجْ عَنّي مَنْ عندك، قال: يا نبيّ الله، إنّما هما ابنتاي، وما ذاك فداك أبي وأمّي! قال: إنّ الله عزّ وجلّ قد أذن لي بالخروج والهجرة، فقال أبو بكر: الصُّحبة يا رسول الله، قال: الصّحبة.

قالت: فوالله ما شعرتُ قَطّ قبل ذلك اليوم أنّ أحداً يبكي من الفرح؛ حتّى رأيت أبا بكر يومئذٍ يبكي من الفرح. ثمّ قال: يا نبيّ الله، إنّ هاتين راحلتاي، كنت أعددتُهما لهذا. فاستأجرا عبد الله بن أرقد - رجلاً من بني الدّيل بن بكْر، وكانت أمّه امرأةً من بني سَهْم بن عمرو، وكان مشركاً - يدلّهما على الطّريق، ودفعا إليه راحلتيْهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما، ولم يعلم - فيما بلغني - بخروج رسول الله ﷺ أحدٌ حين خرج إلاّ عليّ بن أبي طالب وأبو بكر الصدّيق، وآل أبي بكر. فأمّا عليّ بن أبي طالب فإنّ رسول الله ﷺ - فيما بلغني - أخبره بخروجه، وأمَرَه أن يتخلّف بعده بمكّة حتّى يؤدّيَ عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للنّاس. وكان رسول الله ﷺ وليس بمكّة أحدٌ عنده شيء يخشى عليه إلاّ وضعه عند رسول الله ﷺ، لِما يُعرف من صدقه وأمانته. فلمّا أجمع رسولُ الله ﷺ للخروج أتى أبا بكر بن أبي قُحافة، فخرجا من خَوْخَة لأبي بكر في ظهر بيته، ثمّ عَمَدا إلى غار بثَوْر جبل بأسفل مكة، فدخلاه. وأمر أبو بكر ابنه عبدالله بن أبي بكر أن يسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهارَه، ثمّ يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبَر. وأمر عامر بن فُهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثمّ يُريحها عليهما إذا أمسى بالغار. وكانت أسماءُ بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمستْ بما يصلحهما. فأقام رسولُ الله ﷺ في الغار ثلاثاً، ومعه أبو بكر، وجعلت قريش حين فقدُوه مائة ناقةٍ لمن يردّه عليهم، فكان عبدالله

بن أبي بكر يكون في قريش ومعهم، ويستمع ما يأتمرون به، وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر، ثمّ يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخَبَر. وكان عامر بن فُهَيرة مولًى أبي بكر يرعى في رُعْيان أهل مكّة؛ فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر، فاحتلبا وذبحا. فإذا غدا عبد الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكّة اتّبع عامر بن فهيرة أثرَه بالغنم، حتّى يُعفّيَ عليه؛ حتّى إذا مضت الثلاث، وسكن عنهما الناس، أتاهما صاحبهُما الذي استأجرا ببعيرهما، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بسفرتهما، ونسيت أن تجعل لهما عصاماً. فلمّا ارتحلا ذهبت لتعلّق السُّفرة، فإذا ليس فيها عِصامٌ فحلّت نِطاقها، فجعلَتْه لها عصَاماً، ثمّ علّقتها به - فكان يقال لأسماء بنت أبي بكر: ذات النّطاقين؛ لذلك. فلما قرَّب أبو بكر الرّاحلتين إلى رسول الله ﷺ، قرّب له أفضلهما، ثمّ قال له: اركب فداك أبي وأمّي! فقال رسول الله ﷺ: إنّي لا أركب بعيراً ليس لي، قال: فهو لك يا رسول الله بأبي أنت وأمّي! قال: لا ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به؟ قال: كذا وكذا، قال قد أخذتها بذلك، قال: هي لك يا رسول الله، فركبا فانطلقا، وأردف أبو بكر عامر بن فُهَيرة مولاهُ خَلْفَه يخدمُهما بالطريق.

حدّثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا سلمَة، قال: حدّثني محمّد بن إسحاق، قال: وحدّثت عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: لما خرج رسولُ الله ﷺ وأبو بكر أتانا نفرٌ من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجتُ إليهم، فقالوا: أين أبوكِ يا ابنة أبي بكر؟ قلتُ: لا أدري والله أين أبي! قالت: فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشاً خبيثاً - فلطَم خدّي لطمة طرح منها قُرْطِي. قالت: ثمّ انصرفوا، ومكثنا ثلاث ليال، لا ندري أين توجّه رسولُ الله ﷺ؛ حتّى أقبلَ رجل من الجنّ، من أسفل مكّة يغنّي بأبيات من الشّعر غناء العرب والنّاس يتْبعونه؛ يسمعون صَوْتَه وما يرونه، حتّى خرج من أعلى مكّة، وهو يقول:

جَزَى اللّهُ رَبُّ النَاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ
رَفِيقَيْنِ حَلاّ خَيْمَتَيْ أُمِّ مَعْبَدِ
هُمَا نَزَلاها بالهُدَى وَاغْتَدَوْا بِهِ
فأَفْلَحَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدِ
لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَكَانُ فَتَاتِهِم
وَمَقْعَدُها لِلْمُؤْمِنِينَ بَمَرْصَدِ

قالت: فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجّه رسول الله ﷺ، وأنّ وجهه إلى المدينة، وكانوا أربعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعامر بن فهيرة، وعبد الله بن أرقد دليلهما.

**ج - وصول النبي ﷺ إلى المدينة:**

قال أبو جعفر: وقدِم دليلهُما بها قُباءَ؛ على بني عمرو بن عوف، لثنْتَيْ عشْرة ليلةً خلَت من شهر ربيع الأول، يوم الاثنين حين اشتدّ الضُّحى، وكادت الشمس أن تعتدل.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلمَة، قال: حدّثني محمّد بن إسحاق، قال: حدّثني محمّد بن جعفر بن الزبير، عن عُروة بن الزّبير، عن عبد الرحمن بن عويم ابن ساعدة، قال: حدّثني رجال قومي من أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: لما سمعنا بمخرج رسولِ الله ﷺ من مكة، وتوكَّفنا قدومه، كنّا نخرج إذا صلّينا الصبح إلى ظاهر حَرّتنا، ننتظرُ رسول الله ﷺ؛ فوالله ما نَبْرَح حتّى تغلِبنا الشمس على الظلال؛ فإذا لم نجد ظِلاً دخلنا بيوتنا، وذلك في أيام حارّةٍ؛ حتّى إذا كان في اليوم الذي قَدِم فيه رسول الله ﷺ جلسنا كما كنّا نجلس؛ حتّى إذا لم يبقَ ظلٌّ دخلنا بيوتنا، وقدِم رسولُ الله ﷺ حين دخلنا البيوت، فكان أوّل مَنْ رآه رجلٌ من اليهود، وقد رأى ما كنّا نصنع، وإنّا كُنّا ننتظر قدومَ رسول الله ﷺ، فصرخ بأعلى صوته: يا بني قَيْلة هذا جدُّكم قد جاء.

قال: فخرجنا إلى رسول الله ﷺ، وهو في ظلّ نخلة، ومعه أبو بكر في مثل سنّه وأكثرُنا مَنْ لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك، قال: وركبه الناس، وما نعرفه من أبي بكر؛ حتّى زال الظلّ عن رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر، فأظلّه بردائه، فعرفناه عند ذلك. فنزل رسولُ الله ﷺ - فيما يذكرون - على كُلثوم ابن هِدْم، أخي بني عمرو بن عَوْف، ثمّ أخذ بني عُبيد، ويقال: بل نزل على سعد بن خَيثَمة.

ويقول من يذكر أنّه نزل على كلثوم بن هدم: إنما كان رسول الله ﷺ إذا خرج من منزل كلثوم بن هِدْم، جلس للناس في بيت سَعْد بن خيثمة؛ وذلك أنه كان عَزَباً لا أهل له، وكان منازلُ العزّاب من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين عنده؛ فمن

هنالك يقال: نزل على سعد بن خيثمة. وكان يقال لبيت سعد بن خيثمة: بيت العزّاب، فالله أعلم أيّ ذلك كان، كلاّ قد سمعنا.

ونزل أبو بكر بن أبي قُحافة على خُبَيب ابن أساف، أخي بني الحارث بن الخزرج بالسُّنْح، ويقول قائل: كان منزلهُ على خارجة ابن زيد بن أبي زُهَير، أخي بني الحارث بن الخزرج.

وأقام عليّ بن أبي طالب رضيَ الله عنه بمكّة ثلاث ليالٍ وأيّامها؛ حتّى أدّى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده إلى النّاس؛ حتّى إذا فرغ منها لحق برسول الله ﷺ، فنزل معه على كُلْثوم بن هِدْم».

## ملحق رقم ٢

## أسماء الذين شهدوا بيعة العقبة الثانية ومن استشهد منهم(١)

من الأوس أحد عشر رجلاً: أسيد بن حضير أحد النقباء، وأبو الهيثم بن التيهان بدري(٢) أيضاً، وسلمة بن سلامة بن وَقْش بدري، وظُهَيْر بن رافع، وأبو بُرْدة بن دينار بدري، ونُهَير بن الهيثم بن نابي بن مُجْدعة بن حارثة، وسعدُ بن خَيْثَمة أحد النقباء، بَدْري وقتل بها شهيداً، ورفاعة بن عبد المُنْذر بن زبير نقيب بدري، وعبد الله بن جُبَيْر بن النعمان بن أمية بن البُرَك، بَدْري؛ وقتل يوم أُحُد شهيداً أميراً على الرماة، ومعنُ ابن عدي بن الجد بن عَجْلان بن الحارث بن ضُبَيْعة البلويّ حليف للأوس شهد بدراً وما بعدها، وقتل باليمامة شهيداً، وعويم بن ساعدة شهد بدراً وما بعدها.

ومن الخزرج اثنان وستون رجلاً: أبو أيوب خالد بن زيد، وشهد بدراً وما بعدها ومات بأرض الروم زمن معاوية شهيداً، ومُعاذ بن الحارث، وأخواه عوف ومعوّذ وهم بنو عفراء بدريون؛ وعُمارة بن حزم شهد بدراً وما بعدها وقتل باليمامة، وأسعد بن زرارة أبو أمامة أحد النقباء مات قبل بدر، وسهل ابن عتيك بدري، وأوس بن ثابت بن المنذر بدري، وأبو طلحة زيد بن سهل بدري، وقيس بن أبي صَعْصَعة عمرو بن زيد بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غَنْم بن مازن كان أميراً على الساقة يوم بدر، وعمرو بن غزيّة، وسعدُ بن الربيع أحد النقباء شهد بدراً وقتل يوم أُحُد، وخارجة بن زيد شهد بدراً وقتل يوم أُحُد، وعبد الله بن رواحة أحد النقباء شهد بدراً وأُحُد

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٣، صفحة ١٧٦ - ١٧٨.

(٢) بدري؛ يعني شهد بدراً.

والخندق، وقتل يوم مؤتة أميراً، وبشير بن سعد بدريّ، وعبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه الذي أري النداء وهو بدريّ، وخلادُ ابن سُوَيْد بدري أُحُدي خندقي، وقتل يوم بني قُريظة شهيداً، طرحت عليه رحىً فشدخته، فيقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ لَهُ لأَجْرُ شَهيدَيْنِ»، وأبو مسعود عقبة ابن عمرو البدريّ؛ قال ابن إسحاق: وهو أحدث من شهد العقبة سناً، ولم يشهد بدراً، وزياد بن لَبيد بدري، وفروة بن عمرو ابن ودفة، وخالد بن قيس بن مالك بدري، ورافع بن مالك أحد النقباء، وذُكْوان بن عبد قيس بن خلدة بن مخلّد بن عامر بن زُرَيْق، وهو الذي يقال له مهاجريّ أنصاريّ، لأنه أقام عند رسول الله ﷺ بمكّة حتّى هاجر منها وهو بدريّ قُتل يوم أُحُد، وعباد بن قَيْس بن عامر بن خالد بن عامر بن زُرَيْق بدري، وأخوه الحارث بن قيس بن عامر بدريّ أيضاً، والبَرَاء بن معرور أحد النقباء، وأول من بايع فيما تزعم بنو سَلَمة وقد مات قبل مقدم النبي ﷺ المدينة، وأوصى له بثلث ماله فردّه رسول الله ﷺ على ورثته، وابنه بِشرُ بن البَرَاء وقد شهد بدراً وأُحُداً والخندق ومات بخَيْبَر شهيداً من أكله مع رسول الله ﷺ من تلك الشاة المسمومة رضي الله عنه، وسنان بن صَيْفي بن صَخْر بدري، والطُّفَيْل بن النعمان بن خنساء بدري، قتل يوم الخندق؛ ومَعْقَل بن المُنْذِر ابن سَرْح بدري، وأخوه يزيد بن المنذر بدريّ، ومسعود بن زيد بن سُبَيْع، والضحّاك بن حارثة بن زيد بن ثعلبة بدريّ، ويزيد بن خذام بن سُبَيْع، وجُبَار بن صخر [بن أمية] ابن خنساء بن سنان بن عُبَيْد بدريّ، والطفيل بن مالك بن خنساء بدريّ، وكعب ابن مالك، وسليم بن عامر بن حديدة بدريّ، وقُطْبة بن عامر بن حديدة بدريّ، وأخوه أبو المنذر يزيد بدريّ أيضاً، وأبو اليَسَر كعب بن عمرو بدريّ، وصَيْفي بن سواد بن عباد، وثعلبة بن غَنَمة بن عديّ بن نابي بدريّ، واستشهد بالخندق، وأخوه عمرو بن غَنَمة ابن عديّ، وعَبْس بن عامر بن عدي بدريّ، وخالد بن عمرو بن عديّ بن نابي، وعبد الله بن أنيس حليف لهم من قضاعة؛ وعبد الله بن عمرو بن حرام أحد النقباء بدريّ، واستشهد يوم أُحُد، وابنه جابر بن عبد الله، ومُعَاذ بن عمرو بن الجَموح بدريّ،

وثـابت بـن الجِذْع بـدريّ وقـتـل شـهـيـداً بالطائف، وعُمَيْر ابن الحارث بن ثعلبة بدريّ، وخَديج بن سلامة حليف لهم من بليّ، ومعاذُ بن جَبَل شهد بدراً وما بعدها، ومات بطاعون عَمْواس في خلافة عمر بن الخطاب، وعُبادة بن الصامت أحد النقباء شهد بدراً وما بعدها، والعبّاس بن عُبادة بن نَضْلة وقد أقام بمكّة حتّى هاجر منها، فكان يقال له مـهـاجـريّ أنصـاريّ أيضـاً، وقـتـل يـوم أُحُـد شهيداً، وأبو عبد الرَّحمن يزيد بن ثعلبة بن خَزَمة بن أصرم حليف لهم من بليّ، وعمرو بن الحارث بن كندة، ورفاعة بن عمرو بن زيد بدريّ، وعُقبة بن وهب بن كَلْدة حليف لهم بدريّ، وكان ممن خرج إلى مكّة فأقام بها حتّى هاجر منها، فهو ممن يقال له: مهاجري أنصاريّ أيضاً، وسَعْدُ بن عُبادة بن دُلَيم أحد النقباء، والمنذر بن عمرو نقيب بدريّ أُحُدي وقتل يوم بئر معونة أميراً، وهو الذي يقال له: أعنق ليموت. وأما المرأتان: فأم عمارة نُسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجّار، المازنية الـنـجـاريـة. قـال ابـن إسـحـاق: وقـد كـانـت شهدت الحرب مع رسول الله ﷺ وشهدت معها أختها وزوجُها زيدُ بن عاصم بن كعب، وابناها خبيب وعبد الله، وابنها خبيب هذا هو الذي قتله مُسَيْلمة الكذّاب حين جعل يـقـول لـه أتشـهـد أن محـمّـداً رسـول الله؟ فيقول: نعم، فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع، فجعل يقطعه عضواً عضواً حتّى مات في يديه لا يزيده على ذلك. فكانت أم عمارة ممن خرج إلى اليمامة مع المسلمين حين قتل مُسَيْلمة ورجعت، وبها اثني عشر جرحاً من بين طعنة وضربة رضي الله عنها. والأخرى أم مَنيع أسماء ابنة عمرو ابن عديّ بن نابي بن عمرو بن سواد بن غنم ابن كعب بن سلمة رضي الله عنها.

# الفصل الثالث
# تنظيم الدولة الإسلاميّة في المدينة

حصلت الهجرة سنة ٦٢٢م، وكانت من الأهميّة بحيث اعتبرها المسلمون منطلقاً لتقويم خاص بهم هو: التقويم الهجري. وقد أمّن انتقال الرسول ﷺ إلى المدينة استقراراً سياسياً واجتماعياً له، مكّنه من الانصراف إلى تنظيم أمته الجديدة، فيما باتت المدينة جرَّاء هذا الانتقال تضم الفئات التالية:

- المهاجرين من المسلمين، الذين سبقوا النبي ﷺ أو رافقوه في انتقاله.
- الأنصار من أهل المدينة الذين نصروه واستقبلوه في مدينتهم واعتنقوا الاسلام.
- العرب من الأوس والخزرج، الذين كانوا ما يزالون يدينون بالوثنية.
- اليهود، وهم من قبائل ثلاث: بنو النضير وبنو قينقاع وبنو قريظه.

## أولاً – الإنتقال إلى مفهوم الأمة

أصبح محمّد ﷺ رجل الدولة الذي كان عليه أن ينظم علاقات هذه الفئات ببعضها وأن يدافع عن المسلمين ويتابع نشر الدعوة، وهي مهام كبرى يعجز عنها رجال السياسة التقليديون. لكن النبي ﷺ نجح في المهام الثلاث، فتمّ دمج المهاجرين بالأنصار في مؤاخاة شكلت منهجاً جديداً في حياة العرب السياسية كونها أحلّت رابطة العقيدة الدينية مكان رابطة القربى والنسب.

وفي كتب السيرة نص وثيقة معاهدة يقال أنها وقعت بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة مباشرة، تنظم أصول العلاقة بين جماعات الأمة الإسلامية الجديدة. كتب جرجي زيدان عن هذا العهد:(١)

«وأول عمل باشره بعد نزوله هناك المعاهدة بين أصحابه المسلمين (المهاجرين والأنصار) وبين اليهود من أهل يثرب على الاتحاد والتكاتف في الدفاع عن المصالح العامة. وكتب بين الفريقين كتاباً يعترفون فيه أنهم أمة واحدة. ثمّ خصّ المهاجرين من قريش والأنصار من يثرب بعهود أخرى سموها المؤاخاة، فآخى بين أصحابه المهاجرين والأنصار بعهد وثيق. هذا هو الحجر الأول من أساس الدولة الإسلاميّة، والمسلمون يومئذٍ بضع عشرات. وفرضت الزكاة والصيام وأقيمت الحدود وفروض الحلال والحرام وغير ذلك من دعائم الإسلام».

علاوة على ذلك، اختلف وضع النبي ﷺ في المدينة عما كان عليه في مكّة. ففي مكّة كان يدعو إلى الدين الإسلامي ومعه أتباع لا يتجاوز عددهم العشرات فيما يضطهده زعماء قريش ويلاحقون أتباعه ويسومونهم العذاب. أما في المدينة فقد أصبح رجل الدولة الجديد وسيّد الأمّة الإسلامية إضافة إلى كونه نبيّاً. لقد أصبح الحكم في الخلافات والمنازعات والمنظّم لشؤون المدينة تمهيداً للانتقال إلى مكّة، ومنها إلى ما هو أوسع وأشمل.

لذلك تسلّم النبيّ ﷺ شؤون المسلمين الدينية (طبعاً) وحتّى الدنيوية فانعكس ذلك، خلافاً للديانتين السماويتين الأخرتين، على الدين الجديد بحيث أصبح المفهوم الديني ممزوجاً بالمفهوم الدنيوي، وهي ناحية تفرّد فيها الدين الإسلامي. جاء في كتابنا: «المجتمعات العسكرية عبر التاريخ» ما يلي:(٢)

«وفي المدينة تمّ تحقيق إنجازات كبيرة للغاية كانت تحضيراً لاعتماد مفهوم الدولة والأمة بدلاً من العشيرة والقبيلة. أولها إيجاد التفاهم وصنع الإنسجام بين

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٣١، صفحة ٥٣ - ٥٤.

(٢) ريحانا، عميد ركن دكتور، سامي، المجتمعات العسكرية عبر التاريخ، دار الحداثة، بيروت، ١٩٩٦، ص ١٦٤ - ١٦٥.

المهاجرين من مكّة وعرب المدينة بعد إقرار السلام بين المدنيين وإيقاف الحروب بينهما. وتمّ ذلك بشكل المؤاخاة بعد أن حلّت رابطة العقيدة محل رابطة الدم. وعلى أساس العقيدة تمّ إنشاء نواة دولة جديدة ستتطوّر لتصبح أمّة عظيمة. لقد أقام الرسول ﷺ دولة دينيّة كلّ شيء فيها يتقرّر باسم الله، وهو رأسها بدون منازع، والايمان أساس الأمّة رغم وجود غير المسلمين فيها من أهل الذمّة كاليهود والنصارى. أما مفهوم الثأر من العدوّ فانتقل من المؤمن إلى المؤمن وليس من الأخ إلى الأخ. وهكذا انتقل مفهوم الحرب من الغزو والثأر إلى الواجب العسكري».

ويجمع المؤرّخون على أنّ النبيّ محمّد ﷺ، ورغم عدم تنشئته العسكرية، تميّز بعبقرية تكتيكية واستراتيجية في تنفيذ الخطّط أعلاه ضمن مهلة لم تتعدّ السنوات العشر. لقد أمضى الرسول ﷺ هذه السنوات ما بين هجرته (٦٢٢م)، ووفاته (٦٣٢م) في متابعة الإنجازات العسكرية التي ميزت بداية التاريخ الإسلامي.

وتكمن فرادة الرسول العسكريّة في كونه أول نبيّ في التاريخ استخدم القوّة المسلّحة كأداة من أدوات نشر العقيدة الدينية. وقد حققت القوّة العسكريّة ما أراده؛ فكان الإسلام أول دين في التاريخ تمكن من الإنتشار والتوسّع دون الحاجة إلى دولة ترعاه وتحميه وتتبنّاه وتفرض نشره. وكانت لاستخدام القوّة في نشر الإسلام آثار إيجابية كبيرة، إنما أيضاً آثار سلبية طبعت الدولة الراشدية بمفهوم الإغتيالات. فمن أربعة خلفاء راشدين توفي ثلاثة اغتيالاً هم: عمر، وعثمان، وعلي.

وفي المدينة تابع محمّد ﷺ الصراع ضدّ قريش فكبرت الأمّة الجديدة وعقدت تحالفات مع سادة القبائل في شمال بلاد العرب، وراح الناس يقبلون على الإسلام طوعاً. وبنفس الوقت تطلع النبي ﷺ إلى خارج شبه الجزيرة العربيّة فراسل الملوك والحكّام في مختلف البلدان المجاورة لها ودعاهم إلى الدخول في الاسلام، كما أرسل حملات ناجحة ضدّ بلاد الشام وكانت تحت الحكم البيزنطي.

وهنا لا بدّ من التوقّف أمام أسئلة ردّدها العديد من المؤرّخين عن كيفية تمكّن الأمة الجديدة من جمع قبائل العرب التي كان لا

يجمعها أيّ جامع قبل الإسلام، وتوحيدها تحت قيادة سياسية وعسكرية واحدة؟ وكيف تمكن قادة سياسيون، لم يألفوا سابقاً إدارة المجتمعات البشرية المنظّمة، من قيادة هذه الجموع التي كانت سابقاً متفرّقة؟ وكيف تمكّن قادة عسكريون، لم يألفوا قيادة قوات نظامية كبرى، تحقيق الانتصارات اللاحقة في الإسلام في شكل يدعو إلى الإعجاب؟ ومن الذي درّبهم على قيادة الوحدات الكبرى؟

لقد تمكّن العرب خلال مدّة قصيرة من الزمن لا تتعدّى عشرات السنين من إقامة إمبراطوريّة منظّمة، وإنهاء وجود إمبراطوريّتين عمرهما مئات السنين، وفتح الشرق الأدنى وآسيا الصغرى والوسطى وشمال إفريقيا والأندلس وجنوب فرنسا، وصولاً إلى مشارف باريس الجنوبية، ومحاصرة القسطنطينية وفيينا وتهديد شرق أوروبا. وكلّ ذلك بدأ بهجرة النبيّ ﷺ إلى المدينة.

يردّ المؤرّخ المسلم السبب إلى عبقرية النبيّ ﷺ العسكرية، التي تجلّت في تنظيمه للأمّة الجديدة، وفي اقتناع العرب بالدين الجديد وحماسهم في سبيل نشره، ومفهومهم الجديد للجهاد في سبيل الدين بدلاً من الثأر؛ وجميعها عوامل ساهمت في انتصار المسلمين في غالبية المعارك التي خاضتها جيوشهم. المؤرّخ المتحمّس يرى أن قوة سماوية ساعدت العرب في حروبهم هذه. ويردّ بعض المؤرّخين الغربيين السبب إلى الضغط السكاني في شبه الجزيرة العربيّة المترافق مع الجفاف وانهيار الزراعة والسدود، مما أجّج في صدور المقاتلين العرب الرغبة في الإستيلاء على مناطق جديدة صالحة للزرع والعيش. أما المؤرّخ الحديث فيجمع بين النظريتين أعلاه.

وممّا لا شكّ فيه أن عبقرية النبيّ ﷺ التي تجلّت خلال تنظيمه للأمّة الإسلامية في المدينة، إضافة إلى صفات المقاتل العربي وقوّة تحمّله وقدرته على السفر والصبر وشظف العيش، مكنتا القيادة الإسلامية الجديدة من توحيد العرب في فترة زمنية قصيرة جداً بالنسبة لعمر الدول والإمبراطوريات.

إلاّ أن أبرز الأسباب التي أمّنت للجيوش الإسلامية بعهد النبيّ ﷺ الغلبة على الخصوم الذين يفوقونها عدداً فكان دون

شك الدافع الديني أي؛ الجهاد في سبيل نشر الدين. «فالجهاد باب من أبواب الجنّة»، وأهمّ من الصلاة والصوم. لقد تحوّلت الأمّة الإسلاميّة إلى جيش، وأمسى الإسلام الراية التي تقود العرب إلى النصر والغنيمة. وعرف المسلمون الحرب الإجمالية أي حرب «الأمّة الإسلاميّة»، وكوّنوا مجتمعاً عسكرياً تميّزت فيه الطبقة العسكرية بميزات قدّمتها على غيرها من طبقات المجتمع العربي الإسلامي.

## ثانياً – إستقرار النبيّ ﷺ في المدينة

كتب ابن كثير:(١)

«فأقام رسول الله ﷺ بقباء في بني عمرو ابن عوف يوم الإثنين والإربعاء والخميس، وأسس مسجده، ثمّ أخرجه الله من بين أظهرهم يوم الجمعة، وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه مكث فيهم أكثر من ذلك...

قال ابن اسحق: فأدركت رسول الله ﷺ الجمعة في بني عمرو بن عوف، فصلاّها في المسجد الذي في بطن الوادي – وادي رانُوناء – فكان أول جمعة صلاها في المدينة».

ويروي ابن كثير أن الأنصار اجتمعوا لدعوة الرسول ﷺ لعندهم، لكنه قال: «خلّوا سبيل ناقتي فهي مأمورةً». وسارت الناقة حتّى بركت أمام دار أبي أيوب خالد ابن زيد فنزل عنده النبيّ ﷺ حتّى ابتنى مسجده ومسكّنه.

### أ – بناء المسجد:

أما ابن الأثير فنقل الرواية كما يلي:(٢)

«فمن ذلك تجميعه ﷺ بأصحابه الجمعة في اليوم الذي نزل فيه من قباء في بني سالم في بطن واد لهم: وهي أول جمعة جمعها رسول الله ﷺ في الإسلام وخطبهم وهي أول خطبة. وكان رجل من قُباء يريد المدينة فركب ناقته وأرخى زمامها فكان لا يمرّ بدار من دور الأنصار إلاّ قالوا: هلمّ يا رسول الله إلى العدد والعدّة والمنعة فيقول: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» حتّى انتهى إلى موضع مسجده اليوم فبركت على باب مسجده وهو

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٠٧.
(٢) ابن الأثير، مرجع سبق، جزء ٢، ص ٩.

يومئذ مِرْبَد[١] لغلامين يتيمين في حجر معاذ بن عفراء وهما سهل وسهيل ابنا عمرو من بني النجار. فلما بركت لم ينزل عنها ثمّ وثبت فسارت غير بعيد ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به، فالتفتت خلفها ثمّ رجعت إلى مبركها أول مرّة فبركت فيه ووضعت جرانها.[٢] فنزل عنها رسول الله ﷺ واحتمل أبو أيوب الأنصاري رحله وسأل رسول الله ﷺ عن المربد فقال معاذ ابن عفراء: هو ليتيمين لي وسأرضيهما من ثمنه فأمر به رسول الله ﷺ أن يبنى مسجدا وقام عند أبي أيوب حتّى بنى مسجده ومساكنه».

وعن بناء المسجد نقل ابن الأثير الرواية كما يلي:[٣]

«وقيل: إن موضع المسجد كان لبني النجار فيه نخل وحرث وقبور المشركين فقال رسول الله ﷺ: ثامنوني به. فقالوا: لا نبغي به إلاّ ما عند الله.

فأمر به فبنى مسجده وكان قبله يصلي حيث أدركته الصلاة. وبناه هو والمهاجرون والأنصار، وهو الصحيح. وفيها بني مسجد قُبَاء».

وقد اختلف المؤرّخون في مدّة مقامه به، فقال الواقدي: سبعة أشهر، وقال غيره: أقل من شهر. أما البخارى فنقل أن الرسول ﷺ أمر ببناء المسجد فسأل بني النجار: «يا بني النجار ثامنوني بحائِطِكُم هذا» فقالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلاّ إلى الله عزّ وجلّ، قال: فكان فيه ما أقول لكم، كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خرب، وكان فيه نخل، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسوّيت، وبالنخل فقطع. قال: فصفّوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضادتيه حجارة، قال: فجعلوا ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون، ورسول الله ﷺ معهم يقول: «اللَّهُمَّ إنَّهُ لاَ خَيْرَ إلاّ خير الآخِرَة فَانْصُرِ الأَنْصَارَ وَالمُهَاجِرة». وقد رواه

---

(١) المربد: محبس الإبل.

(٢) جرانها: أي عنقها.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٩.

البخاري في مواضع أُخر، ومسلم من حديث أبي عبد الصّمد وعبد الوارث ابن سعيد. وقد تقدّم في صحيح البخاري عن الزهري، عن عروة أن المسجد الذي كان مربداً - وهو بيدر التمر - ليتيمين كانا في حجر أسعد بن زرارة وهما سَهْل وسُهَيْل، فساومهما فيه رسول لله ﷺ فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى حتّى ابتاعه منهما، وبناه مسجداً.

وروى البيهقي من طريق أبي بكر بن أبي الدنيا، حدّثنا الحسن بن حمّاد الضبّي، حدّثنا عبد الرحيم بن سليمان عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن، قال: لمّا بنى رسول الله ﷺ المسجد أعانه عليه أصحابه وهو معهم يتناول اللَّبن[1] حتى اغبرّ صدره، فقال: «ابْنُوهُ عَرِيشاً كَعَرِيشِ مُوسَى». فقلت للحسن: ما عريش موسى؟ قال: إذا رفع يديه بلغ العريش، يعني السقف».[2]

## ثالثاً - بداية التقويم الهجري

تعدّدت الاجتهادات بشأن من الذي قرّر البدء بالتأريخ حسب التقويم الهجري. نقل الطبري بداية التأريخ الهجري. نقل الطبري بداية هذا التأريخ فكتب:[3]

«قال أبو جعفر: ولما قدِم رسولُ الله ﷺ المدينة، أمر بالتأريخ فيما قيل. حدّثني زكرياء بن يحيى بن أبي زائدة، قال: حدّثنا أبو عاصم، عن ابن جُرَيج، عن أبي سلمة، عن ابن شهاب، أنّ النبيّ ﷺ لمّا قدم المدينة - وقدمها في شهر ربيع الأول - أمر بالتأريخ.

قال أبو جعفر: فذكر أنّهم كانوا يؤرّخون بالشهْر والشهرين من مَقْدَمه إلى أن تمّت السنة، وقد قيل إنّ أول مَن أمر بالتأريخ في الإسلام عمر بن الخطّاب، رحمه الله.

ذِكر الأخبار الواردة بذلك:

حدّثني محمّد بن إسماعيل، قال: حدّثنا أبو نعيم، قال: حدّثنا حبّان بن عليّ العَنزيّ، عن مُجالد، عن الشعبيّ، قال: كتب أبو

(١) اللبن: يعني الحجارة.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٢٥.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣.

موسى الأشعريّ إلى عمر: إنّه تأتينا منك كتب ليس لها تأريخ. قال: فجمع عمر النّاس للمشورة، فقال بعضُهُم: أرِّخْ لمبعثِ رسول الله ﷺ. وقال بعضهم: لمهاجَرَ رسول الله ﷺ، فقال عمر: لا بل نؤرّخ لمهاجَرَ رسول الله ﷺ، فإنّ مهاجَرَه فرَق بين الحقّ والباطل.

حدّثني محمّد بن إسماعيل، قال: حدّثنا قُتيبة بن سعيد، قال: حدّثنا خالد بن حيّان أبو يزيد الخرّاز، عن فُرات بن سَلْمان، عن ميمون بن مهْران، قال: رفعَ إلى عمر صَكٌّ محلّه في شعبان، فقال عمر: أيّ شعبان؟ الذي هو آت، أو الذي نحن فيه؟ قال: ثمّ قال لأصحاب رسول الله ﷺ: ضعوا للنّاس شيئاً يعرفونه، فقال بعضُهم: اكتُبُوا على تأريخ الرّوم، فقيل: إنهم يكتُبُون من عَهْدِ ذي القرنين؛ فهذا يطول. وقال بعضهم: اكتبوا على تأريخ الفرْس؛ فقيل: إنّ الفرْس كلّما قام ملك طرح مَنْ كان قبله؛ فاجتمع رأيُهُم عل أن ينظروا: كَمْ أقام رسول الله ﷺ بالمدينة؟ فوجدوه عشر سنين؛ فكتب التأريخ من هجرة رسول الله ﷺ.

حدّثت عن أميّة بن خالد وأبي داود الطّيالسيّ، عن قرّة بن خالد السَّدوسيّ، عن محمّد بن سيرين، قال: قام رجلٌ إلى عمر بن الخطّاب فقال: أرّخوا، فقال عُمر: ما «أرّخوا؟» قال: شيء تفعله الأعاجم، يكتبون في شهر كذا من سنة كذا، فقال عمر بن الخطّاب: حَسَنٌ، فأرّخوا فقالوا: من أيّ السنين نبدأ؟ قالوا: من مبعثِه، وقالوا: من وفاته؛ ثمّ أجمعوا على الهجرة، ثمّ قالوا: فأيّ الشهور نبدأ؟ فقالوا: رمضان، ثمّ قالوا: المحرّم، فهو منصَرَف الناس من حَجّهم؛ وهو شهر حرام، فأجمعوا على المحرّم».

ابن كثير من جهته تعرض لبداية التأريخ الهجري فكتب:[(١)]

«اتفق الصحابة رضي الله عنهم في سنة ست عشرة - وقيل سنة سبع عشرة، أو ثماني عشرة - في الدولة العُمَرية على جعل ابتداء التاريخ الإسلامي من سنة الهجرة، وذلك أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه رُفع إليه صك - أي حجة - لرجل على آخر وفيه؛ إنه يحلّ

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢١٦ - ٢١٧.

عليه في شعبان، فقال عمر: أي شعبان؟ أشعبان هذه السنة التي نحن فيها أو السنة الماضية، أو الآتية؟ ثمّ جمع الصحابة فاستشارهم في وضع تاريخ يتعرّفون به حلول الديون وغير ذلك، فقال قائل: أرّخوا كتاريخ الفرس فكره ذلك، وكانت الفرس يؤرّخون بملوكهم واحداً بعد واحد. وقال قائل: أرّخوا بتاريخ الروم، وكانوا يؤرّخون بملك اسكندر ابن فلبّس المقدوني فكره ذلك. وقال آخرون أرّخوا بمولد رسول الله ﷺ، وقال آخرون بل بمبعثه، وقال آخرون بل بهجرته، وقال آخرون بل بوفاته عليه السلام. فمال عمر رضي الله عنه إلى التاريخ بالهجرة لظهوره واشتهاره، واتفقوا معه على ذلك.

وقال البخاري في صحيحه: التاريخ ومتى أرّخوا التاريخ:

حدّثنا عبد الله بن مسلم، حدّثنا عبد العزيز عن أبيه، عن سهل بن سعد. قال: ما عدوا من مبعث النبيّ ﷺ ولا من وفاته، ما عدوا إلاّ من مقدمه المدينة.

وقال الواقدي: حدّثنا ابن أبي الزناد عن أبيه. قال استشار عمر في التاريخ فأجمعوا على الهجرة.

وقال أبو داود الطيالسي عن قُرَّة بن خالد السدوسي عن محمّد بن سيرين قال: قام رجل إلى عمر فقال أرخوا. فقال: ما أرّخوا؟ فقال شيء تفعله الأعاجم يكتبون في شهر كذا من سنة كذا. فقال عمر: حسن فأرّخوا، فقالوا: من أي السنين نبدأ؟ فقالوا: من مبعثه، وقالوا من وفاته، ثمّ أجمعوا على الهجرة، ثمّ قالوا وأيّ الشهور نبدأ؟ قالوا رمضان، ثمّ قالوا المحرم فهو مصرف الناس من حجهم وهو شهر حرام فاجتمعوا على المحرم.

وقال أحمد: حدّثنا روح بن عبادة، حدّثنا زكريا بن إسحاق عن عمرو بن دينار قال: إن أول من أرّخ الكتب يعلى بن أمية باليمن، وأن رسول الله ﷺ قدم المدينة في ربيع الأول، وأن الناس أرخوا لأول السنة.

وروى محمّد بن إسحاق عن الزهري، وعن محمّد بن صالح، عن الشعبي أنهما قالا: أرّخ بنو إسماعيل من نار إبراهيم، ثمّ أرّخوا من بنيان إبراهيم وإسماعيل البيت، ثمّ أرّخوا من موت كعب بن لؤي، ثمّ أرخوا من الفيل، ثمّ أرّخ عمر بن الخطاب من الهجرة، وذلك سنة سبع عشرة - أو ثماني عشرة - وقد ذكرنا هذا الفصل محرّراً

بأسانيده وطرقه في السيرة العُمَرية ولله الحمد، والمقصود أنهم جعلوا ابتداء التاريخ الإسلامي من سنة الهجرة، وجعلوا أولها من المحرّم فيما اشتهر عنهم، وهذا هو قول جمهور الأئمة».

وفي الخلاصة يظهر أن عمر بن الخطاب هو الذي أمر باعتماد تأريخ جديد عرف بالتاريخ الهجري وذلك في السنة السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من هذا التاريخ.

## رابعاً – أول خطبة للرسول ﷺ في المدينة

سبق ونقلنا ان الرسول ﷺ أمضى في المدينة أيام الإثنين والثلاثاء والإربعاء والخميس. وفي أول جمعة له في المدينة قرّر أن يصلي في المؤمنين حيث أدركته الصلاة، وفق ابن الاثير، وهناك بنى مسجده[1] هو والمهاجرون والأنصار، وقد صلاها في بني سالم بن عوف، وذكر ابن كثير ذلك فكتب:[2] «ولما ارتحل عليه السلام من قُباء وهو راكب ناقته القصواء وذلك يوم الجمعة، أدركه وقت الزوال، وهو في دار بني سالم، فصلّى بالمسلمين الجمعة هنالك في وادٍ يقال له وادي رانوناء، فكانت أول جمعة صلاها رسول ﷺ بالمسلمين بالمدينة، أو مطلقاً لأنه والله أعلم لم يكن يتمكّن وأصحابه بمكّة من الاجتماع حتّى يقيموا بها جمعة ذات خطبة وإعلان بموعظة، وما ذاك إلاّ لشدّة مخالفة المشركين له، وأذيّتهم إياه».

ونظراً لأهمية خطبة الرسول الأولى نوردها في نصها الكامل كما نقلها الطبري:[3]

«الحَمْدُ للَّه، أَحْمَدُهُ وأَسْتَعينُهُ، وأَسْتَغْفِرُهُ وَأَسْتَهْدِيه، وأُومنُ به وَلا أَكْفُرُهُ، وأُعادي مَنْ يَكْفُرُهُ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بالهُدَى وَدين الحَقِّ، وَالنُّور وَالمَوْعظَة، على فَتْرَةٍ مَنَ الرُّسُل، وقلَّةٍ منَ العلْم، وَضَلالَة منَ النَّاس، وَانْقطاعٍ منَ الزَّمان، وَدُنُوٍّ منَ

(١) مسجد قباء وفق ابن كثير والمسعودي والطبري، وكان هذا المسجد أول مسجد بني في الإسلام.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٢٢ – ٢٢٣.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٨ – ٩.

السَّاعَةِ، وَقُرْبٍ مِنَ الأَجَلِ. مَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى وفَرَطَ، وضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً. وَأُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، فَإِنَّهُ خَيْرُ مَا أَوْصَى بِهِ المُسْلِمُ المُسْلِمَ، أَنْ يَحُضَّهُ عَلَى الآخِرَةِ، وَأَنْ يَأْمُرَهُ بِتَقْوَى اللهِ، فَاحْذَرُوا مَا حَذَّرَكُمُ اللهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَلا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ نَصِيحَةً، وَلاَ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ذِكْراً. وإِنَّهُ تَقْوَى لِمَنْ عَمِلَ بِهِ عَلَى وَجَلٍ وَمَخَافَةٍ، وَعَوْنِ صِدْقٍ عَلَى مَا تَبْتَغُونَ مِنْ أَمْرِ الآخِرَةِ، ومَنْ يُصْلِحُ الَّذِي بَينَهُ وبَينَ اللهِ مِنْ أَمرِ السِرِّ والعَلانِيَةِ لاَ يَنْوِي بِذَلِكَ إِلاَّ وَجْهَ اللهِ يَكُنْ لَهُ ذِكْراً فِي عَاجِلِ أَمْرِهِ، وَذُخْراً فِيمَا بَعْدَ المَوْتِ، حِينَ يَفْتَقِرُ المَرْءُ إِلَى مَا قَدَّمَ، وَمَا كَانَ مِنْ سِوَى ذَلِكَ يَوَدُّ لَوْ أَنَّ بينَهُ وبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً، وَيُحَذِّرُكُم اللهُ نَفْسَهُ واللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ. والَّذِي صَدَقَ قَوْلَهُ، وَأَنْجَزَ وَعْدَهُ، لا خُلْفَ لِذَلِكَ فَإِنَّهُ يَقُولُ تَعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّمٍ لِلْعَبِيدِ(٢٩)﴾ [ق: ٢٩] واتَّقُوا اللهَ فِي عَاجِلِ أَمْرِكُمْ وآجِلِهِ فِي السِرِّ والعَلانِيَةِ فإِنَّهُ ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ، ويُعظِم لَهُ أَجْراً﴾ [الطلاق: ٥] ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١] وَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ تَوَقِّي مَقْتَهُ، وَتَوَقِّي عُقُوبَتَهُ، وتَوَقِّي سَخَطَهُ. وإِنَّ تَقْوَى اللهِ تُبَيِّضُ الوَجْهَ، وتُرْضِي الرَّبَّ، وَتَرْفَعُ الدَّرَجَةَ، خُذُوا بِحَظِّهِمْ وَلاَ تُفَرِّطُوا فِي جَنْبِ اللهِ، قَدْ عَلَّمَكُمُ اللَّهُ كِتَابَهُ، وَنَهَجَ لَكُمْ سَبِيلَهُ، لِيَعْلَمَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلِيَعْلَمَ الكَاذِبِينَ، فَأَحْسِنُوا كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ، وَعَادُوا أَعْدَاءَهُ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَسَمَّاكُمْ المُسْلِمِينَ، لِيَهْلَكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَيَحْيَي مَنْ حَيِيَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ، فَأَكْثِرُوا ذِكْرَ اللَّهِ، واعْمَلُوا لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، فَإِنَّهُ مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ يَكْفِهِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، ذلكَ بِأَنَّ اللَّهَ يَقْضِي عَلَى النَّاسِ وَلاَ يَقْضُونَ عَلَيْهِ، وَيَمْلِكُ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ العَلِيِّ العَظِيمِ».

أما ابن كثير فنقل أن أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة جاء فيها:[(١)]

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٢٤.

«أمَّا بَعْدُ أيُّها النّاسُ، فَقَدِّمُوا لأنْفُسِكُمْ تَعْلَمُن واللَّهِ لَيُصْعَقَنَّ أَحَدُكُمْ، ثمَّ لَيَدَعَنَّ غَنَمَهُ لَيْسَ لَها رَاعٍ، ثُمَّ لَيَقُولَنَّ لَهُ رَبُّهُ - لَيْسَ لَهُ تُرْجُمَانٌ وَلاَ حَاجِبٌ يَحْجبُهُ دُونَهُ - أَلَمْ يَأتِكَ رَسُولِي فَبَلَّغَكَ، وَاتيْتُكَ مَالاً وَأَفْضَلْتُ عَلَيْكَ؟ فَمَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ؟ فيَنْظُرُ يَميناً وَشِمالاً فَلا يَرَى شَيئاً، ثُمَّ يَنْظُرُ قُدَّامَهُ فَلا يَرى غَيرَ جَهَنَّمَ، فَمَن اسْتَطاعَ أنْ يَقِي وَجْهَهُ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقٍّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، فإنَّ بِهَا تُجْزَى الحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا، إلَى سَبْعِمَائَةِ ضِعْفٍ، والسَّلامُ عَلى رَسُولِ اللَّهِ وَرَحْمَةِ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ» ثمّ خطب رسول الله ﷺ مرة أخرى فقال: «إنَّ الحَمْدَ لِلَّهِ، أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ، نَعُوذُ باللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئاتِ أعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وأَشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللَّهُ [وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ]، إنَّ أحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَيَّنَهُ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ، وَأدخَلَهُ فِي الإسْلامِ بَعْدَ الكُفْرِ، واخْتَارَهُ عَلَى مَا سِوَاهُ مِنْ أحَادِيثِ النَّاسِ، إنَّهُ أحْسَنُ الحَدِيثِ وَأَبْلَغُهُ، أحِبُّوا مَنْ أحَبَّ اللَّهَ، أحِبُّوا اللَّهَ مِنْ كُلِّ قُلُوبِكُم، [وَلا تَمَلُّوا كَلامَ اللَّهِ وَذِكْرَهُ، ولا تَقْسَى عَنْهُ قُلُوبُكُم] فَإِنَّهُ مَنْ يَخْتَارُ اللَّهُ وَيَصْطَفِي، فَقَدْ سَمَّاهُ خِيرَتَهُ مِنَ الأعْمَالِ، وخِيرَتَهُ مِنَ العِبَادِ، وَالصَّالِحَ مِنَ الحَدِيثِ، وَمِنْ كُلِّ مَا أُوتِيَ النَّاسُ مِنَ الحَلاَلِ وَالحَرَامِ فَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَاتَّقُوهُ حَقَّ تُقَاتِه، وَاصْدُقُوا اللَّهَ صَالِحَ مَا تَقُولُونَ بِأفْوَاهِكُمْ، وَتَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ بَيْنَكُم، إنَّ اللَّهَ يَغْضَبُ أنْ يُنْكَثَ[1] عَهْدُهُ، وَالسَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ».

## خامساً - التنظيمات الجديدة

تولّى النبيّ ﷺ في المدينة القيادتين السياسية والعسكرية، إضافة إلى السيادة الدينية، ونفذ جميع الخطط التي وضعها ووفى بوعوده جميعها. لقد دعا إلى إصلاح إجتماعي وقرّر تطبيق الإخاء وأحلّ العدل القائم على الشريعة محل الظلم، وحرّر المرأة

(١) يُنكث أي يُغدر به.

وأنهى فوضى الجاهلية، وسنّ النظام، ومنع التفرقة بين الأحرار والارقاء محرراً هؤلاء، وحارب الفقر والعوز والشقاء، ودعا إلى العمل والعطاء...

لقد أوجد محمّد ﷺ أمّة جديدة ظهرت براعته في قيادتها وفي تحضير القادة الكبار لمتابعة دعوته. كما حوّل الانسان العربي من جاهلي إلى متحضّر بعقله وإيمانه وأخلاقه العليا وأمانته وحماسه في نشر الدعوة والثقافة والعلم والحضارة في صفوف أتباعه. وتكمن أهميته خاصة في أن الدعوة لم تنتهِ معه، بل إنه حضّر من سيعقبه في قيادة الأمّة الجديدة وفي تدبير شؤون الدولة الإسلامية.

ونظم النبيّ ﷺ جميع جوانب الحياة بقوانين سياسية وقضائية وإدارية ومالية واجتماعية واقتصادية ودينية. لذلك لم يحتج دينه الجديد إلى دولة ترعاه، إنما قامت الدول الإسلامية على تراثه وعلى ما جاء به للعالم، واستندت إلى مقوماته وتنظيماته وقوانينه التي منها نَبِعَت قوة الدولة وإمكاناتها.

كلّ ذلك جعل الدولة الإسلامية ثابتة رغم تغيير قادتها ورغم العنف الذي رافق قيامها والذي كان ضحيته ثلاثة من الخلفاء الراشدين وعدد كبير من خلفاء الأمويين والعباسيين والدويلات الإسلامية اللاحقة. وكان من الطبيعي أن يرافق العنف التاريخ الإسلامي لأنه كانت لاستخدام القوّة العسكرية في نشر الإسلام آثار إيجابية كبيرة، إنما آثار سلبية أيضاً.

# القسم الثاني

# معارك وغزوات المسلمين

## من بداية الدعوة حتّى فتح مكة

بعد أن نظم الرسول ﷺ الأمّة الإسلامية الجديدة وآخى بين الجماعات التي تقطن المدينة وشرّع لها في الدين والدنيا، أصبح جاهزاً لمتابعة رسالته خارج المدينة. فهو قد جاء رسولاً، ليس فقط لمدينة واحدة، إنما لجميع العرب في المرحلة الأولى، ولباقي الأمم في المرحلة الثانية.

لقد رأى الرسول ﷺ أن عليه البدء بمكّة، حيث أهله وعشيرته، كما أوصاه الله بأن يبدأ بعشيرته والأقربين. واعتبر المؤرّخون، أن الرسول كان من كبار الاستراتيجيين وأنه رأى أن عليه، وقبل البدء بتأليب القبائل العربية كافة، إخضاع مكّة، المدينة التي نشأ فيها والتي لم تنصره.

وهكذا، بدأ الرسول بالغزو على عادة العرب في الجاهلية، وانتهى بفتح المدن والأمصار والممالك، ونجح في جميع ما خطط له. علاوة على ذلك، قام خلال السنين العشر التي أمضاها في المدينة بتحضير وتدريب القادة العسكريين العرب الذين سيضطلعون بمهام الفتوحات الكبرى التي نفذت في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر بن الخطاب.

سنعمد خلال هذا القسم من الكتاب إلى دراسة كلّ الغزوات والمعارك التي حصلت بين النبيّ ﷺ وأهل قريش وصولاً إلى فتح مكّة وعودة المسلمين إليها. وسنعمد إلى دراستها بالتسلسل الزمني بدءاً بسرية حمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه، لاعتراض تجارة قريش.

# الفصل الرابع

# غزوات السنتين الهجريتين الأولى والثانية

في السنة الأولى للهجرة لم تحصل بين النبي ﷺ والمكيين معارك كبرى، إنما أرسلت بضعة سرايا قادها حمزة بن عبد المطلب وعبيد الله بن الحارث وسعد بن أبي وقاص وقاد إحداها بنفسه.

## أولاً – غزوات السنة الأولى للهجرة

### أ – سرية حمزة بن عبد المطلب:(١)

هي أول سرية(٢) أرسلها النبيّ ﷺ، نقل الواقدي أن «رسول الله ﷺ عقد في شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة، وبعد سبعة أشهر من هجرته، لحمزة بن عبد المطلب لواءً أبيض في ثلاثين رجلاً من المهاجرين، ليعترض لِعيرات قريش، وأن حمزة لقي أبا جهل (بن هشام) في ثلاثمائة رجل، فحجز بينهم مجدي بن عمرو الجُهني فافترقوا، ولم يكن بينهم قتال. وكان الذي يحمل لواء حمزة أبو مَرثَد».(٣)

ونقلها ابن كثير كما جاءت في تاريخ الطبري، لكنه أضاف اسم عائلة مَرثَد حامل لواء حمزة وهو «الغنوي».

أما ابن الأثير فزاد عليهما بأن اللواء الذي كان يحمله أبو مَرثَد هو أول لواء يعقد في الإسلام.(٤)

---

(١) هو عم النبي ﷺ ومن أبطال العرب المشهود لهم قبل الإسلام، من أول من أسلم. (ملحق رقم ٤: سيرة حمزة بن عبد المطلب).

(٢) سرية: تعني قوة عسكرية ترسل في مهمّة معيّنة. حالياً سرية تعني وحدة قوامها حوالى ١٤٠ جندياً.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١١.

(٤) ابن الأثير، موجع سابق، جزء ٢، ص ١٠.

**ب - سرية عبيد الله بن الحارث بن عبد المطلب:**

نقل أخبارها ابن كثير عن ابن جرير عن الواقدي فكتب:(١)

«قال ابن جرير: وزعم الواقدي أيضاً أن النبيّ ﷺ عقد في هذه السنة على رأس ثمانية أشهر في شوال لعبيدة بن الحارث لواءً أبيض، وأمره بالمسير إلى بطن رابغ، كان لواؤه مع مسطح بن أثاثة، فبلغ ثنية المرّة وهي بناحية الجحفة في ستين من المهاجرين، ليس فيهم أنصاري، وأنهم التقوا هم والمشركون على ماء يقال له أحياء، وكان بينهم الرمي دون المسايفة. قال الواقدي: وكان المشركون مائتين، عليهم أبو سفيان صخر بن حرب، وهو المثبت عندنا، وقبل كان عليهم مكرز بن حفص».

وهكذا نقلها الطبري وابن الأثير دون تفصيل.

**ج - سرية سعد بن أبي وقاص:**

نقلها ابن الأثير فكتب:(٢)

«عقد رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص إلى الخرّار لواء أبيض يحمله المقداد بن الأسود، فحدّثني أبو بكر بن إسماعيل عن أبيه عن عامر بن سعد [عن أبيه]. قال: خرجت في عشرين رجلاً على أقدامنا، أو قال أحد وعشرين رجلاً، فكنا نكمن النهار ونسير الليل حتّى صبّحنا الخرّار صُبْحَ خامسة، وكان رسول الله ﷺ قد عهد إليّ أن لا أجاوز الخرّار، وكانت العير قد سبقتني قبل ذلك بيوم. قال الواقدي: كانت العير ستين وكان من مع سعد كلّهم من المهاجرين. قال أبو جعفر بن جرير (رحمه الله) وعند ابن إسحاق (رحمه الله): أن هذه السرايا الثلاث التي ذكرها الواقدي كلّها في السنة الثانية من الهجرة من وقت التاريخ.

قلت: كلام ابن إسحاق ليس بصريح فيما قاله أبو جعفر (رحمه الله) لمن تأمله، كما سنورده في أول كتاب المغازي في أول السنة الثانية من الهجرة، وذلك تلوماً نحن فيه إن شاء الله ويحتمل أن يكون مراده أنها وقعت هذه السرايا في السنة الأولى،

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٤٥.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٠ - ١١.

وسنزيدها بسطاً وشرحاً إذا انتهينا إليها إن شاء الله تعالى. والواقدي (رحمه الله) عنده زيادات حسنة، وتاريخ محرّر غالباً فإنه من أئمة هذا الشأن الكبار وهو صدوق في نفسه مكثار، كما بسطنا القول في عدالته وجرحه في كتابنا الموسوم بالتكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل ولله الحمد والمنّة».

## ثانياً – غزوات السنة الثانية للهجرة:

تتابعت غزوات المسلمين في السنة الثانية للهجرة التي ستحفل بالواقعات بينهم وبين أهل مكّة، منها ما قادها النبيّ ﷺ بنفسه، ومنها ما قادها أحد قادته. وخلال هذه السنة وقعت معركة بدر الكبرى أو غزوة بدر الكبرى.

### أ – غزوتان قادهما النبيّ ﷺ بنفسه:

نقل أخبار هاتين الغزوتين الطبري فكتب:[1]

«فغزا رسولُ الله ﷺ – في قول جميع أهل السِّيَر – فيها، في ربيع الأوّل بنفسه غَزْوَةَ الأبْواء – ويقال وَدّان – وبينهما ستّة أميال هي بحذائها؛ واستخلف رسولُ الله ﷺ على المدينة حين خرج إليها سعدَ بن عُبادة بن دُلَيْم. وكان صاحب لوائه في هذه الغَزوة حمزة بن عبد المُطَّلب، وكان لواءه – فيما ذكر – أبيض.

وقال الواقديّ: كان مُقامه بها خمسَ عشرةَ ليلة، ثمّ قَدِم المدينة.

قال الواقديّ: ثمّ غزا رسولُ الله ﷺ في مائتين من أصحابه؛ حتّى بلغ بُواط في شهر ربيع الأول؛ يعترض لِعَيرات قريش، وفيها أميَّة بن خلَف ومائة رجل من قريش، وألفان وخمسمائة بعير. ثمّ رَجَعَ ولم يَلْقَ كيداً.

وكان يحمل لواءه سعدُ بن أبي وقّاص، واستخلف على المدينة سَعْد بن مُعاذ في غَزْوته هذه.

قال: ثمّ غزا في ربيع الأول في طلب كُرْز بن جابر الفِهْريّ في المهاجرين، وكان قد أغار على سَرْح المدينة، وكان يرعى بالجَمَّاء فاستاقه، فطلبه رسول الله ﷺ حتّى بدْراً فلم يلحقه؛ وكان يحمل لواءه عليٌّ بن أبي

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٤ – ١٥.

طالب عليه السلام. واستخلف على المدينة زيدَ بن حارثة.

قال: وفيها خرج رسولُ الله ﷺ يعترض لِعَيرات قريش حين أبدأت إلى الشَّأم في المهاجرين - وهي غزوة ذات العُشَيرة - حتّى بلغ يَنْبُع؛ واستخلف على المدينة أبا سلَمة بن عبد الأسد؛ وكان يحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب. فحدثنا سليمان بن عمر بن خالد الرّقيّ، قال: حدّثنا محمّد بن سلمَة، عن محمّد بن إسحاق، عن محمّد بن يزيد بن خُثَيم؛ عن محمّد بن كعب القرظيّ؛ قال: حدّثنا أبوك يزيد بن خُثَيم عن عمّار بن ياسر، قال: كنت أنا وعليّ رفيقين مع رسول الله ﷺ في غزوة العُشَيْرَة، فنزلنا منزلاً، فَرأينا رجالاً من بني مُدْلج يعملون في نخْل لهم، فقلت: لو انطلقنا! فنظرنا إليهم كيف يعملون، فانطلقنا فنظرنا إليهم ساعة، ثمّ غَشِينا النُّعاسُ، فعمَدنا إلى صَوْر من النخل؛ فنمْنا تحته في دقْعاء من التراب، فما أيقظنا إلاّ رسولُ الله ﷺ، أتانا وقد تَتَرَّبْنا في ذلك التراب، فحرّك عليّاً برجله، فقال: قم يا أبا تراب، ألا أخبرِك بأشْقى النّاس؟ أحمر ثمود عاقر النّاقة، والذي يضرُبك يا عليّ عَلى هذا - يعني قَرْنَه - فيخضِب هذه منها؛ وأخذ بلحيته».

### ب - عدد الغزوات التي شارك فيها النبي ﷺ:

أما ابن كثير فعدّد الغزوات التي شارك فيها النبيّ ﷺ نقلاً عن البخارى وابن إسحاق فكتب:[١]

«رُوِي عن زيد بن أرقم أنه سئل كم غزا رسول الله ﷺ؟ قال: تسع عشرة شهد منها سبع عشرة أولهنّ العُسَيْرة - أو العشيرة - وسيأتي الحديث بإسناده ولفظه والكلام عليه عند غزوة العشيرة إن شاء الله وبه الثقة. وفي صحيح البخاري عن بريدة قال: غزا رسول الله ﷺ ست عشرة غزوة، ولمسلم عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ ست عشرة غزوة، وفي رواية له عنه أن رسول الله ﷺ غزا تسع عشرة غزوة، وقاتل في ثماني منهنّ. وقال الحسين بن واقد عن ابن بريدة، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ غزا سبع عشرة غزوة، وقاتل في ثمان؛ يوم بدر، وأُحُد، والأحزاب،

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء٣ ، ص ٢٥٢.

والمُرَيْسِيع، وقديد، وخَيْبَر، ومكة، وحُنَيْن. وبعث أربعاً وعشرين سرية. وقال يعقوب بن سفيان: حدّثنا محمّد بن عثمان الدمشقي التنوخي، حدّثنا الهيثم بن حميد، أخبرني النعمان عن مكحول أن رسول الله ﷺ غزا ثمانية عشر غزوة، قاتل في ثمان غزوات، أولهن بدر، ثمّ أُحُد، ثمّ الأحزاب، ثمّ قريظة، ثمّ بئر معونة، ثمّ غزوة بني المصطلق من خزاعة، ثمّ غزوة خيبر، ثمّ غزوة مكّة، ثمّ حنين والطائف. قوله بئر معونة بعد قُريظة فيه نظر، والصحيح أنها بعد أُحُد كما سيأتي. قال يعقوب: حدّثنا سلمة بن شبيب، حدّثنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمر عن الزهري، سمعت سعيد بن المسيّب يقول: غزا رسول الله ﷺ ثماني عشرة غزوة، وسمعته مرّة أخرى يقول أربعاً وعشرين».

- الدروس المستقاة:

١ - لم يترك النبيّ ﷺ المدينة دون قائد عندما قاد بنفسه الغزوة، بل عيّن عليها سعد بن عبادة. وهذا التدبير مهم إذ أن الفراغ في السلطة قد يؤدّي إلى الفوضى والضياع.

٢ - اعتمد النبيّ ﷺ منذ الغزوات الأولى سياسة التعرّض لقوافل قريش التجارية، أي؛ أنه شنّ على قريش حرباً اقتصادية لم تكن معروفة في ذلك الزمن البعيد. فضربُ المصالح الاقتصادية للعدو يعطي نتائج مهمّة قد تتعدّى نتائج الضربات العسكرية أحياناً.

٣ - من الغزوات التسع عشرة الاولى، شهد النبيّ ﷺ سبع عشرة غزوة فأعطى المثل الصالح لأتباعه. فالقائد الذي يكون دائماً على رأس مقاتليه، يحفّزهم للقتال باندفاع وجهد.

وبالفعل، من المعروف أن القادة المسلمين الأوائل تدرّبوا على فنون قيادة الوحدات العسكرية على أيدي النبيّ ﷺ، ونجحوا في قيادة الجيوش العربية خلال الحملات على بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين ومصر. وأبرزهم خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وشرحبيل ابن حسنى وأبو عبيدة بن الجراح وعلي ابن أبي طالب وعمر بن الخطاب ويزيد ابن أبي سفيان وغيرهم.

٤ - من جهة أخرى، ومن دراسة الغزوات الأولى التي أمر الرسول ﷺ بتسييرها، يمكن الاستنتاج أن استراتيجية ناجحة كانت تحركها لا سيما وأن المسلمين قد انتصروا في غالبيتها. ومما لا شكّ فيه أنه كان لإيمان القادة المسلمين بالله وبالنبيّ ﷺ وبالدين الجديد واندفاعهم في سبيل نشره دورٌ مهمّ في نجاح هذه الغزوات أو الحملات.

**ج - سرية عبد الله بن جحش:**

بعد غزوة بدر الأولى التي لم يدرك فيها المسلمون كرز بن جابر الفهري الذي كان قد أغار على سرح[1] المدينة، أصبح لزاماً القيام بغزوات أخرى، لذلك كانت سرية عبد الله ابن جحش.

وعن ظروف إرسالها، كتب ابن كثير:[2]

«حدّثنا المجالد عن زياد بن علاقة، عن سعد بن أبي وقّاص. قال: لما قدم رسول الله ﷺالمدينة جاءته جُهَينة فقالوا: إنك قد نزلت بين أظهرنا حتّى نأتيك وقومنا، فأوثق لهم، فأسلموا، قال: فبعثنا رسول الله ﷺ في رجب ولا نكون مائة، وأمرنا أن نغير على حيّ من بني كنانة، إلى جنب جُهَيْنة، فأغرنا عليهم، وكانوا كثيراً، فلجأنا إلى جُهَيّنة فمنعونا، وقالوا: لِمَ تقاتلون في الشهر الحرام؟ فقال بعضنا لبعض: ما ترون؟ فقال بعضنا: نأتي نبيّ الله فنخبره، وقال قوم: لا بل نقيم ههنا، وقلت أنا في أناس معي: لا بل نأتي عير قريش فنقتطعها. وكان الفيء إذ ذاك من أخذ شيئاً فهو له، فانطلقنا إلى العير، وانطلق أصحابنا إلى النبيّ ﷺ فأخبروه الخبر، فقام غضبان محمرّ الوجه. فقال: «أَذَهَبْتُمْ مِنْ عِنْدِي جَمِيعاً، وَرَجَعْتُمْ مُتَفرِّقِين، إنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ الفُرْقَةُ، لأَبْعَثَنَّ عَلَيْكُمْ رَجُلاً لَيْسَ بِخَيْرِكُمْ، أَصْبَرَكُمْ عَلَى الجُوعِ وَالعَطَش»، فبعث علينا عبد الله بن جحش الأسديّ فكان أول أمير في الإسلام. وقد رواه البيهقي في الدلائل من حديث يحيى بن أبي زائدة عن

---

(١) السرح: المواشي.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٥٩ ٢- ٦٠.

مـجـالـد بـه نـحـوه، وزاد بـعـد قـولـهـم لأصحابه: لِمَ تقاتلون في الشهر الحرام؟ فـقـالـوا: نـقـاتـل فـي الشـهـر الحـرام مـن أخرجنا من البلد الحرام. ثمّ رواه من حديث أبي أسامة عن مجالد، عن زياد ابن علاقة، عن قطبة بن مالك، عن سعد ابن أبي وقاص فذكر نحوه، فأدخل بين سعد وزياد قطبة بن مالك وهذا أنسب والله أعلم. وهذا الحديث يقتضي أن أول السرايا عبد الله بن جحش الأسدي، وهو خـلاف مـا ذكـره ابـن إسـحـاق أن أول الرايات عقدت لعُبَيْدة بن الحارث بن المطلب، وللواقدي حديث زعم أن أول الرايات عقدت لحمزة بن عبد المطلب والله أعلم».

أمـا تـفـاصـيـل تحرك السـريـة الـتـي غـنـم خلالها المسلمون غنائم كانت أول غنيمة نظامية لهم اقتسمت بالطريقة التي ستصبح لاحقاً الطريقة المتبعة في الفتوحات، أي إعطاء الخمس لبيت المال وأربعة أخماس إلى المقاتلين، فنرويها نقلاً عن ابن الأثير.(1)

«أمر رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح أن يـتـجـهـز للغزو فتجهز فلما أراد المسير بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ فبعث مكانه عبد الله بن جحش في جمادى الآخرة معه ثمانية رهط من المهاجرين، وقيل: اثنا عشر رجلاً. وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتّى يسير يومين ثمّ ينظر فيه فيمضي لما أمره به ولا يكره أحداً من أصحابه. ففعل ذلك ثمّ قرأ الكتاب وفيه يأمره بنزول نخلة بين مكّة والطائف فيرصد قريشاً ويعلم أخبارهم، فأعلم أصحابه فساروا معه وأضل سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان بعيراً لهما يتعقبانه فتخلّفا في طلبه. ومضى عبدالله ونزل بنخلة فمرت عير لقريش تحمل زبيباً وغيره فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل والحكم بن كيسان فأشرف لهم عُكاشة بن محصن وقد حلق رأسه فلما رأوه قالوا: عمار لا بأس عليكم - وذلك آخر يوم من رجب. فرمى واقد بن عبد الله التيمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله واستأسر عثمان والحكم وهرب

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٢ -١٣.

نوفل وغنم المسلمون ما معهم، فقال عبد الله بن جحش: إن لرسول الله ﷺ خمس ما غنمتم وذلك قبل أن يفرض الخمس، وكانت أول غنيمة غنمها المسلمون وأول خمس في الإسلام. وأقبل عبدالله بن جحش وأصحابه بالعير والأسرى إلى المدينة.

فلما قدموا قال لهم رسول الله ﷺ: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام؟. فوقّف[1] العير والأسيرين، فسقط في أيديهم وعنّفهم المسلمون...».

ونقل ابن كثير أن قريش أرسلت تفدي الأسيرين وهما عثمان والحكم بن كيسان فأفداهما الرسول ﷺ مقابل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان اللذين كانا قد تاها فأسرتهما قريش.

**الدروس المستقاة:**

١ - اعتمد النبيّ ﷺ السريّة في تحرّكات سرية عبدالله بن جحش إذ أعطاه كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتّى يسير يومين.

والسريّة في التحركات العسكرية ضرورية إذ أن العدو يبثّ عادة جواسيسه داخل الصفوف الصديقة فيفيدونه عن كلّ تحرّك عسكري مما قد يؤدي إلى فشله.

٢ - أمر النبيّ ﷺ قائد السرية بأن لا يكره أحداً من أصحابه، تمشياً مع القول الكريم: «لا إكراه في الدين». وينطبق هذا القول أيضاً على الأعمال العسكرية إذ أن المقاتل الذي يتوجه إلى المعركة ملزماً يكون غير متحمّس لخوضها فلا يبذل جهده لنجاحها. لذلك، فمن الأفضل عدم اصطحاب هذا المقاتل إلى الحرب إذ أن عدم اندفاعه قد ينعكس على باقي المقاتلين فتكون نتيجة القتال خاسرة.

٣ - كان عبد الله بن جحش أول من دعي أميراً في الإسلام. وكانت سريته قد استنّت تدابير جديدة، دخلت بعد ذلك في الإسلام، وهي:

- تسمية أول أمير أي قائد في الإسلام،
- وقوع أول قتيل يقتله المسلمون وهو عمرو بن الخضرمي،

(١) وقف هنا بمعنى لم يقبل أن يأخذهم، بل منحهم وقفاً.

- بدء مفهوم الغنيمة في الإسلام التي تقتسم بين المقاتلين وبيت المال،

- القبول بمبدأ افتداء الأسرى أو تبادلهم بين المسلمين والمشركين من قريش.

### د - معركة بدر الكبرى:

من أهم الواقعات التي حصلت في السنة الثانية للهجرة بين المسلمين وأهل مكّة معركة بدر الكبرى.

#### ١ - ظروف المعركة:

بدر هي آبار بين مكّة والمدينة، تنزل عندها القوافل التجارية التي تتوجّه من مكّة إلى الشام وبالعكس. ومن المعروف أن أهل مكّة كانوا تجاراً كباراً ولهم في كلّ سنة رحلتان تجاريتان، الأولى جنوباً حتّى اليمن، والثانية شمالاً حتّى الشام. ودرج المكيّون على أن يقوم كلّ تاجر بتحميل عدد من الجمال يقودها أحد عملائه أو يقودها هو شخصياً. لذلك كانت تجتمع هذه الجمال لتبلغ المئات يرافقها المقاتلون والفرسان ويقودها أحد رجالات قريش البارزين.

وفي هذه المرحلة كان قائد قوافل قريش الدائم هو سفيان بن حرب (والد معاوية).

من جهة أخرى كانت قريش قد أقامت على المدينة حصاراً اقتصادياً ألحق بأهلها وبالمسلمين الأذى الكبير. لذلك كان النبيّ ﷺ يرسل السرايا، إما لمراقبة القوافل المكّية تمهيداً لاعتراضها، وإما لتنفيذ عملية الاعتراض. وقد سبق وتحدثنا عن سرية عبدالله بن جحش التي جاءت ضمن الإطار هذا.

وقبيل معركة بدر الكبرى أعلن النبي ﷺ أن أبا سفيان قد سار بقافلة تجارية كبيرة عائدة من الشام، يرافقها أربعون فارساً من كبارات المقاتلين منهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل. وكان الرسول ﷺ قد كلّف سعيداً بن زيد وطلحة بن عبيد الله مراقبة القافلة، فسارا حتّى وصلا إلى مكان يدعى «الحوراء» وتركا القافلة تمرّ ثمّ عادا إلى المدينة ونقلا خبرها إلى الرسول ﷺ.

كتب ابن الأثير عن التحضيرات للمجابهة ما يلي:[١]

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٤.

«وكان سببها قتل عمرو بن الحضرمي وإقبال أبي سفيان بن حرب في عِيْر لقريش عظيمة من الشام وفيها أموال كثيرة ومعها ثلاثون رجلاً أو أربعون، وقيل: قريباً من سبعين رجلاً من قريش منهم مخرمة بن نوفل الزهري، وعمرو بن العاص. فلما سمع بهم رسول الله ﷺ ندب المسلمين إليهم وقال: هذه عِيْر قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعلّ الله أنْ ينفلكموها. فانتدب النّاس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك لأنهم لن[1] يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً. وكان أبو سفيان قد سمع أن النبيّ ﷺ يريده فحذر، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكّة يستنفر قريشاً ويخبرهم الخبر فخرج ضمضم إلى مكّة».

وعن قدوم مجموعة من قريش لنجدة أبي سفيان، كتب الطبري:[2]

«ثمّ إنّ أبا سفيان أقبل بعد ذلك ومَن معه من ركْبان قريش مقبلين من الشام، فسلكوا طريق الساحل، فلمّا سمع بهم رسولُ الله ﷺ نَدَبَ أصحابه وحدّثهم بما معهم من الأموال، وبقلّة عدَدَهم، فخرجوا لا يريدون إلاّ أبا سفيان والركْبَ معه؛ لا يروْنها إلاّ غنيمة لهم؛ لا يظنّون أن يكون كبيرُ قتال إذا لقُوهم، وهي التي أنزل الله عزّ وجلّ فيها: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾.[3]

فلما سمع أبو سفيان أنّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ معترضون له، بعث إلى قريش: إنّ محمّداً وأصحابه معترضون لكم، فأجيروا تجارَتكم. فلمّا أتى قريشاً الخبرُ – وفي عيرِ أبي سفيان؛ من بُطون كعب بن لُؤيّ كلّها – نَفَر لها أهلُ مكة؛ وهي نَفْرة بني كعب بن لُؤيّ، ليس فيها من بني عامر أحدٌ إلاّ من كان من بني مالك بن حِسْل؛ ولم يَسمع بنَفْرَة قريش رسولُ الله ﷺ ولا أصحابه؛ حتّى قدِم النبيّ ﷺ بدْراً – وكان طريق ركبان قريش؛ مَنْ أخذ منهم طريق الساحل إلى الشأم – فخفض أبو سفيان عن بدْر، ولزِم طريقَ الساحل، وخاف الرّصَد على بدْر. وسار

(١) المقصود هنا: لم.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٠ – ٢١.

(٣) سورة الأنفال: من الآية ٧.

النبيّ ﷺ، حتّى عرّسَ قريباً من بدر. وبعث النبيّ ﷺ الزبير بن العوام في عصابة من أصحابه إلى ماء بدر، وليسوا يحسبُون أنّ قريشاً خرجت لهم. فبينا النبيّ ﷺ قائم يصلّي؛ إذ ورد بعض روايا قريش ماءَ بدر، وفيمن ورد من الرّوايا غلام لبني الحجّاج أسودُ؛ فأخذه النّفر الذين بعثهم رسولُ الله ﷺ مع الزبير إلى الماء، وأفلت بعض أصحاب العبد نحو قريش، فأقبلوا به حتّى أتوْا به رسولَ الله ﷺ وهو في مُعَرّسه، فسألوه عن أبي سفيان وأصحابه؛ لا يحسبون إلاّ أنه معهم، فطفِق العبد يحدّثهم عن قريش ومن خرج منها، وعن رؤوسهم، ويصدّقهم الخبر؛ وهم أكره شيء إليهم الخبر الذي يخبرهم، وإنما يطلبون حينئذ بالركْب أبا سفيان وأصحابه، والنبيّ ﷺ يصلّي؛ يركع ويسجد، يرى ويسمع ما يُصنع بالعبد. فطفِقوا إذا ذكر لهم أنها قريش جاءتهم، ضربوه وكذّبوه، وقالوا: إنّما تكتمنا أبا سفيان وأصحابَه؛ فجعل العبد إذا أذْلَقوه بالضرب وسألوه عن أبي سفيان وأصحابه – وليس له بهم علم؛ إنما هو من رَوَايا قريش – قال: نعم، هذا أبو سفيان، والركْب حينئذ أسفل منهم، فطفِقوا إذا قال لهم العبد: هذه قريش قد أتتكم ضربوه، وإذا قال لهم: هذا أبو سفيان تركوه.

فلمّا رأى صنيعَهم النبيّ ﷺ انصرف من صلاته وقد سمع الذي أخبرهم، فزعموا[1] أنّ رسول الله ﷺ، قال: والذي نفسي بيده، إنكم لتضربونه إذا صَدَقَ، وتتركونه إذا كذب! قالوا: فإنه يحدّثنا أنّ قريشاً قد جاءت، قال: فإنه قد صدق؛ قد خرجت قريش تجير رِكابها. فدعا الغلام فسأله فأخبره بقريش، وقال: لا عِلْمَ لي بأبي سفيان، فسأله: كم القوم؟ فقال: لا أدري؛ والله هم كثير عددهم. فزعموا أن النبيّ ﷺ، قال: مَنْ أطعمهم أوّل مِنْ أمس؟ فسمّى رجلاً أطعمهم، فقال: كم جزائر نَحَر لهم؟ قال: تسع جزائر، قال: فمَنْ أطعمهم أمسِ؟ فسمّى رجلاً، فقال كم نحر لهم؟ قال: عشر جزائر؛ فزعموا أنّ النبيّ ﷺ قال: القومُ ما بين التسعمائة إلى الألف. فكان نَفْرة قريش يومئذ خمسين وتسعمائة».

(١) درج قدامى مؤرّخي العرب على اعتماد «زعموا» بدل «نقلوا». ولم يكن فيها أي نوع من التشكيك.

إن الفقرة الأخيرة من نص الطبري تظهر بما لا يقبل الشك إمكانات النبيّ ﷺ الاستراتيجية والاستعلامية. وهذا الأمر شدّد عليه المؤرّخون وتدرّب أوائل القادة المسلمون عليه من مرافقتهم للنبيّ ﷺ.

جرجي زيدان، من جهته، يذكر أن «٩٥٠ رجلاً من قريش انجدوا أبا سفيان فيهم مائة فارس، فيما أن المسلمين كانوا ٣١٣ رجلاً منهم ٧ من المهاجرين والباقون من الأنصار، ولم يكن معهم سوى فارسين وسبعين جملاً».(١)

### ٢ - التحضير للمعركة:

كان الرسول ﷺ قد اختار اللون الأبيض كلواء للمسلمين حمله مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف. واختار رايتين لهم أيضاً لونهما أسود، أحدهما مع علي بن أبي طالب واسمها «العقاب»، والثانية مع سعد ابن معاذ من الأنصار.

وأمام تفوّق قريش العددي استشار الرسول ﷺ أصحابه فوافق أبو بكر وعمر بن الخطاب وغيرهما على القتال، وقال المقداد بن عمرو: «يا رسول الله امضِ لما أمرك الله فنحن معك...». أما سعد بن معاذ حامل لواء الانصار فقال: «لكأنك تريدنا يا رسول الله».(٢)

وكان النبيّ ﷺ قد عين قيس بن أبي صعصعة، وهو من بني مازن النجار، قائداً على المشاة، وجعله على الساقة.

ثمّ سار جيش المسلمين نحو ماء بدر فوصل إلى قربه ليلاً، وأُرسل علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص لاستطلاع الماء فعادوا ومعهم أسيرين هما سقاة قريش.

علم أبو سفيان بوصول المسلمين إلى قرب بدر، فانطلق بقافلته في طريق ساحلي غير الطريق العادي وغادر المكان وتمكّن من النجاة بالقافلة. لكنه علم بعد ذلك أن قريشاً خرجت لنجدته فحاول ثنيهم عن القتال، لكن المتحمسين منهم وعلى رأسهم أبو

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٣، صفحة ٥٤ - ٥٥.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٨.

جهل، رفضوا الانصياع والعودة إلى مكّة وقرروا القتال. إلا أن بني زهرة عادوا ولم يحضروا القتال.

ثمّ نهض النبي ﷺ والمسلمون واقتربوا قدر إمكانهم من الماء، فأمر النبي ﷺ ببناء حوض لملئه بالماء وحفر ثقباً من جهة قريش لتفوير الماء فيه وحرمان قريش منه.

ثمّ بنى المسلمون عريشاً للنبيّ ﷺ يستظلّ به، فيما تقدّمت قريش من بئر بدر بأعدادها الكبيرة وخيلائها وفخرها فقال الرسول:

«اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك وتُكذّب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم احنهم الغداة».[1]

وتابعت قريش تقدّمها متمركزة في أماكن دفاعية استعداداً للمعركة رغم معارضة البعض لخوضها.

أما المسلمون، فرأوا أنهم أمام أول اختبار كبير لهم، فصمموا على الجهاد والاستبسال للدفاع عن النبي ﷺ ودينهم.

### ٣ - القتال:

بدأ القتال عندما تقدّم أحد القرشيين واسمه الأسود المخزومي نحو المسلمين فتصدّى له حمزة فضربه بسيفه وقتله فكان أول قتلى المشركين في موقعة بدر. وكان من عادة العرب أن يقوموا بمبارزات فردية قبل كلّ معركة تكون لإثبات الوجود وإظهار القوة وجس نبض الخصم. لذلك برز عتبة بن ربيعة ومعه ابنه وأخوه وطلبوا المبارزة.

اختار الرسول ﷺ ثلاثة من الأنصار هم عوف بن الحارث ومعوذ بن الحارث وعبد الله بن رواحة فنزلوا الساحة. لكن عتبة رفض قتالهم وأراد أكفاء له من قومه، فبرز عبيدة بن الحارث وحمزة وعلي.[2]

وبنتيجة المبارزة قتل الوليد بن عتبة بسيف علي وشيبة بن ربيعة بسيف حمزة وعتبة بسيفي حمزة وعبيدة.

عند هذا الحد راح الجانبان يستعدان للهجوم.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٠.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٨٥ - ٢٨٦.

وصف ابن كثير هذه المرحلة من المعركة فكتب:[١]

«وكان أول قتيل من المسلمين في المعركة مهجع مولى عمر بن الخطاب رُمي بسهم فقتله. قال ابن إسحاق: فكان أول من قتل، ثمّ رمى بعده حارثة بن سراقة أحد بني عديّ بن النجّار وهو يشرب من الحوض بسهم، فأصاب نحره فمات. وثبت في الصحيحين عن أنس أن حارثة بن سراقة قتل يوم بدر وكان في النظارة أصابه سهم غرب فقتله، فجاءت أمّه فقالت: يا رسول الله أخبرني عن حارثة، فإن كان في الجنّة صبرت، وإلا فليريني الله ما أصنع - يعني من النياح - وكانت لم تحرم بعد. فقال لها رسول الله ﷺ: «ويحك أهبلت، إنها جنان ثمان، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى».

قال ابن إسحاق: ثمّ تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض. وقال: أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن لا يحملوا حتّى يأمرهم، وقال إن اكتنفكم القوم فانضحوهم[٢] عنكم بالنبل».

وكان الرسول ﷺ قد ترك العريش، وبصحبته أبو بكر وأخذ ينظّم صفوف المسلمين ويشجّعهم، ففرح المسلمون برؤيته بينهم.

قاتل المسلمون بالصفوف مما ساعدهم على النصر، فيما قاتل المكّيون بطريقة الكرّ والفرّ.

وقُتل أبو جهل بسيفي مُعَوَّذا بن عفراء ومعاذ بن عمرو بن الجموح فخسر المشركون بوفاته نصيراً كبيراً. وقتل حنظلة بن سفيان بن حرب بسيف علي بن أبي طالب، كما قتل أمية بن خلف.

وفوجئت قريش بضراوة قتال المسلمين وبسقوط عدد من كبار زعمائها قتلى، فحاولوا قتل الرسول ﷺ، لكن دون نتيجة.

وانتهت المعركة لصالح المسلمين وانجلى غبارها عن فرار القرشيين الذين بقوا أحياء وتركوا على أرض المعركة جثث سادتهم وزعمائهم.

وصف جرجي زيدان نتيجة المعركة فكتب:[٣]

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٨٧ - ٢٨٨.
(٢) انضحوهم: أي ارموهم.
(٣) زيدان، مرجع سابق، جزء ٣١، ص ٥٥ - ٥٦.

«وباشروا القتال بالمبارزة على جاري العادة. ثمّ قتل أبو جهل فجاءوا برأسه إلى النبيّ فسجد وشكر الله. ودارت رحى الحرب فكان النصر للمسلمين، وقد قتل منهم أربعة عشر رجلاً، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار. وقتل من القرشيين سبعون رجلاً وفيهم من أشراف بطون قريش كلّها، وخصوصاً بني أميّة وبني مخزوم، وبني أسد. وأسر منهم سبعون رجلاً فيهم عقبة بن أبي معيط فأمر بقتله لما كان من أذاه النبي ﷺ بمكّة. وكان أكثر المسلمين جهاداً في تلك الواقعة علي بن أبي طالب ابن عم النبي ﷺ وحمزة بن عبد المطلب عمّه. وفرّ من بقي من القرشيين وفيهم أبو سفيان بن حرب رئيسهم وعمرو بن العاص الذي صار من أكبر قوّاد الإسلام فيما بعد، ساروا يطلبون مكّة وغادروا الأموال والأمتعة فاستولى المسلمون عليها وتنازعوا في تفريقها، ففرّقها النبيّ ﷺ عليهم بالسواء ولم يأخذ لنفسه شيئاً. ثمّ بعث القرشيون يفتدون أسراهم، فاجتمع من ذلك مال كثير، وقد عاد أهل مكّة مخذولين، فانكسرت شوكتهم وعظم أمر المسلمين. ومما زادهم تأييداً أنّ أبا لهب المشهور بمقاومة الإسلام لم يخرج يوم بدر من مكّة، لكنه أرسل من يحارب عنه على جاري عادتهم في من يتخلّف عن الحرب. فلما أخبروه بفشل القرشيين اشتدّ به الحزن حتّى مات بعد بضعة أيام. ولواقعة بدر شأن عظيم في تاريخ الإسلام، لأنها كانت فاتحة الإنتصارات الأخرى».

### ٤ - تقييم المعركة:

كان للمعركة نتيجة معنوية كبرى، إذ أنها المرة الأولى التي يتصدّى فيها النبيّ ﷺ لقريش في معركة تقليدية فينتصر. وهكذا تحوّل النبيّ ﷺ من مضطهد في مكّة إلى قائد أمّة محاربة لها من الامكانات العسكرية ما يؤهّلها لمجابهة أهم قوّة عسكريّة بين قبائل شمال شبه الجزيرة العربية، قريش. وهذا ما ستظهره المعارك اللاحقة بين المسلمين وأهل مكّة رغم بعض الانتصارات القريشية، ما يعني أن زمن سيطرة مكّة العسكرية والتجارية قد ولّى، وأن زمن الجاهلية وجهل الدين والوثنية في بلاد العرب هو على وشك الانتهاء. كما أن المعركة كانت دليلاً على استقرار أمر المسلمين ومدى كره اليهود والمشركين للنبي ﷺ وللمسلمين.

أما النتائج المباشرة فكانت أيضاً مهمّة:

- ثبّت المسلمون موقعهم في شمال شبه الجزيرة العربية.

- ترك القرشيون على أرض بدر جثث سادتهم وزعمائهم.

- بلغ عدد قتلى قريش سبعين مشركاً، منهم أشقاء وأبناء عم وآباء بشكل لم يخلُ بيت من بيوت مكّة من قتيل أو أسير أو جريح.

- بلغ عدد شهداء المسلمين أربعة عشر شهيداً، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار.

- ارتفعت المعنويات في المدينة عندما أرسل الرسول ﷺ رجلين من خيرة صحابته لإبلاغ أهلها بالخبر هما: عبد الله بن رواحة، وزيد بن حارثة.

- استولى المسلمون على غنائم كثيرة ساعدت في تخفيف الأزمة المعيشية عن كاهل المهاجرين بعد محاصرتهم اقتصادياً من قبل قريش. وكان الرسول ﷺ قد أمر بجمع الغنائم في مكان واحد بانتظار القرار بتوزيعها نظراً لاختلاف المقاتلين على طريقة التوزيع. وبالفعل نزل حكم الله تعالى بها:

﴿وَاعْلَمُوا أنَّ مَا غَنِمْتُم مِن شَيء فإنَّ لِلَّه خُمْسَهُ ولِلرَّسُول ولِذِي القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِين وابن السبيل إنْ كُنْتُم آمَنْتُم بالله وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنا يَومَ الفُرقان يومَ التقى الجمعان واللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيء قَدير﴾.(١)

فقام رسول الله ﷺ بعزل خمس الغنائم وقسّم الباقي بالتساوي بين المسلمين، وجعل للفرس مثل ما للفارس وللورثة حصّة من استشهد ببدر.

- شكلت بدر نموذجاً لمعارك المسلمين التي حصلت بعدها بالنسبة لتوزيع الغنائم.

- نزلت الآية ٦٧ من سورة الأنفال التي حسمت الجدل حول أسرى قريش. فعمر بن الخطاب كان يريد ضرب أعناقهم، وأبو بكر الصديق كان يريد إطلاقهم، وانقسم المسلمون بين مؤيد للأول ومؤيد للثاني إلى أن قال سبحانه وتعالى:

﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتّى يُثخِن في الأرض تريدون عَرَضَ الدنيا، والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم﴾.(٢)

(١) الأنفال: ٤١.

(٢) الأنفال: ٦٧.

وهكذا أُبلغت قريش بإمكانية افتدائهم. وأصبح ذلك سابقة في الإسلام.[1]

وكان بين الأسرى من زعماء قريش عمرو بن أبي سفيان وسهيل بن عمرو (أبو يزيد) وهو من أكثر الرجال هيبة في مكّة، وصهر الرسول ﷺ أبو العاص بن الربيع (الذي أسلم فيما بعد)، والعباس عم النبي ﷺ، وابنا عمّه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، وعقبة بن عمرو بن جحدم (وقد فدى العباس نفسه وابني أخيه وحليفه نوفل. كما فدت قريش كلّ أسراها).[2]

- دخل عدد كبير من سادة قريش في الإسلام بعد هذه الموقعة، فتعزز الإسلام بهم.[3]

- نقل الطبري أن رسول الله ﷺ انتفل في غزوة بدر سيفه ذا الفقار، وكان لمنبه بن الحجاج[4].

**هـ - غزوة بني سُليم أو غزوة الكدر:[5]**

فرغ رسول الله ﷺ من بدر في عقب شهر رمضان (أو في شوال). ولما قدم المدينة بقي فيها حوالى أسبوع ثمّ غزا بنفسه بني سُليم واستعمل على المدينة سباع بن عُرفُطة الغفاري[6] وفق ابن هشام.

(١) أطلق النبي ﷺ سراح شاعر قريشي كان قد هجا الإسلام هو عبد الله الجمحي وأرسله إلى أهله دون فداء بعد أن استعطفه الشاعر وأقسم أنه لا يعود لمقاتلة المسلمين. لكنه نقض عهده وقاتل المسلمين في يوم أحد وأسر. ولما استعطف النبيّ ﷺ ثانية لإطلاق سراحه قال النبي ﷺ: «لا يُلدغ المؤمن من الجحر مرتين» فذهبت مثلاً، وأمر به فقتل.

المستند:

- ابن كثير، جزء٣، ص ٣٢٨.

- موسوعة أمثال العرب للدكتور إميل بديع يعقوب، إنتاج دار نوبليس، بيروت، ٢٠٠٥.

(٢) راوحت قيمة الفداء حتّى وصلت إلى ٤٠٠٠ درهم. ومن لا يملك المال منّ عليه الرسول ﷺ دون مقابل، والأسير الذي يعرف القراءة طلب إليه النبيّ ﷺ تعليم بعض أولاد المسلمين مقابل إطلاق سراحه.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٢٥ - ٣٣٠.

(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٨.

(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٥.

(٦) وقيل: ابن أم مكتوم، (وفق ابن اسحاق).

وبلغ النبي ﷺ ماءً من مياه سُليم يقال له الكدر، فأقام عليه ثلاث ليالٍ ثمّ رجع إلى المدينة ولم يلقَ مقاومة.

### و - غزوة السويق أو غزوة قرقرة الكدر:[1]

كان أبو سفيان قد نذر، بعد أن عاد مهزوماً من بدر، أن لا يمسّ رأسه ماء من جنابة حتّى يغزو النبي ﷺ، فخرج في مائتي راكب من قريش وسلك طريق النجديّة حتّى أتى بني النضير ليلاً. ثمّ جاء مع رجاله ناحية يقال لها العُريض فحرقوا بعض النخيل فيها وقتلوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في منطقة حرث وانصرفوا راجعين.

علم الرسول ﷺ بهم، فغادر المدينة واستعمل عليها أبا لُبابة بشير بن عبد المنذر. وسار في اثر أبي سفيان حتّى بلغ قَرقرة الكدر. لكن أبا سفيان كان قد غادر المنطقة، لذلك لم يدركه المسلمون، لكنهم وجدوا مؤناً كثيرة كان القرشيون قد ألقوها يتخففون منها وأكثرها من السويق.[2] وهكذا نجا أبو سفيان وصحبه من سيوف المسلمين.[3]

### تقييم غزوة السويق:

١ - خلال هذه الغزوة ظهر أن المسلمين انتقلوا إلى وضع الهجوم وأن جيش قريش بقيادة أبي سفيان كان في عجلة من أمره خوفاً من المسلمين. فأبو سفيان جاء بني النضير ليلاً، ثمّ تحوّل إلى القُريض فأحرق بعض النخيل وقتل رجلين وغادر مسرعاً.

٢ - أما النبي ﷺ، فلما علم بغزوة أبي سفيان، بادر بسرعة لملاقاته. لكن هذا الأخير كان قد غادر المنطقة وترك بعضاً من مؤونته الغذائية خوفاً من سيوف المسلمين.

### ز - غزوة بني قينقاع وإخراجهم من المدينة:

بنو قينقاع كانوا أول قبيلة يهودية تنقض الاتفاق مع النبيّ ﷺ بالحياد من قبلها

(١) القرقرة: الأرض الملساء - والكدر طير.

(٢) السويق: هو طحين الحنطة أو الشعير بعد تحميصها. وقد تمزج باللبن أو العسل.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٦١ - ٣٦٢.

وتحارب فيما بين بدر وأحد. وكان النبيّ ﷺ قد جمعهم في سوقهم وقال لهم:

«احذروا من الله عزّ وجلّ وأسلموا...».[1]

إلاّ أنهم أجابوه: «لا يغرنّك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة؛ ألا والله لئن حاربتنا تعلمنّ أنا نحن الناس».

كتب الطبري عن هذه الغزوة ما يلي:[2]

«حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سَلَمة، عن محمّد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر ابن قتادة، أنّ بني قينُقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ، وحاربوا فيما بين بدر وأُحد.

فحدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد، قال: حدّثنا محمّد بن عمر: عن محمّد بن عبد الله، عن الزهريّ، أنّ غزوة رسول الله ﷺ بني القينُقاع كانت في شوّال من السنة الثانية من الهجرة.[3]

قال الزهريّ عن عروة: نزلَ جبريلُ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بهذه الآية: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾،[4] فلما فرغ جبريل عليه السلام من هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: إني أخاف من بني قينُقاع، قال عروة: فسار إليهم رسول الله ﷺ بهذه الآية.

قال الواقديّ: وحدّثني محمّد بن صالح، عن عاصم بن عمر بن قتادة، قال: حاصرهم رسول الله ﷺ خمسَ عشرةَ ليلة لا يطلعُ منهم أحد. ثمّ نزلوا على حكْم رسول الله ﷺ، فكُتِفوا وهو يريد قتلهم، فكلّمه فيهم عبد الله بن أبيّ.

رجع الحديث إلى ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة، قال: فحاصرهم رسولُ الله ﷺ حتّى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد الله بن أبيّ ابن سَلُول حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمّد، أحْسنْ في مواليّ - وكانوا حلفاء الخزرج - فأبطأ عليه النبيّ ﷺ. قال: فأدخل يده في جَيْب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أرسلني، وغضب رسول الله ﷺ حتّى رأوا في وجهه ظلالاً - يعني تلوّناً - ثمّ قال: ويحك أرسِلني! قال: لا والله لا

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٤٨.
(٢) الطبري، المرجع نفسه.
(٣) وقيل انها وقعت لتسع ليالٍ خلت من صفر سنة ٣هـ.
(٤) الأنفال: من الآية ٥٨.

أرسلك حتّى تحسن إلى مواليّ. أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأسود والأحمر؛ تحصدهم في غداة واحدة! وإني والله لا آمن وأخشى الدوائر. فقال رسول الله: هُمْ لك.

قال أبو جعفر: وقال محمّد بن عمر في حديثه عن محمّد بن صالح، عن عاصم بن عمر بن قتادة، فقال النبيّ ﷺ: خلّوهم لعنهم الله ولعنه معهم! فأرسلوهم. ثمّ أمر بإجلائهم، وغنّم الله عزّ وجلّ رسوله والمسلمين ما كان لهم من مال - ولم تكن لهم أرضون؛ إنّما كانوا صاغةً - فأخذ رسول الله ﷺ لهم سلاحاً كثيراً وآلة صياغتهم؛ وكان الذي وَليَ إخراجهم من المدينة بذراريهم عُبادة بن الصامت، فمضى بهم حتّى بلغ بهم دِباب؛ وهو يقول: الشرف الأبعد، الأقصى فالأقصى!

**الدروس المستقاة:**

١ - كان في المدينة قبائل ثلاث من اليهود قاموا بخيانة المسلمين الواحدة تلو الأخرى، فأخرجهم النبيّ ﷺ من المدينة المنوّرة.

فوجود عدوّ داخل الخطوط الصديقة هو أمر يجب استبعاده عند شن الحروب، وهذا ما فعله النبيّ ﷺ تباعاً.

٢ - أفاد المسلمون، لا سيما المهاجرون من أملاك وأموال بني قينقاع، لا سيما وأنهم كانوا قد تعرّضوا لصعوبات اقتصادية ومعيشية خانقة. كما أفادَ المسلمون من أسلحة آل قينقاع التي صادروها واستعملوها فيما بعد في حروبهم ضد قريش.

- لم يقتل النبيّ ﷺ أحداً من مقاتلي بني قينقاع، بل أطلق سراحهم بناء على طلب عبدالله بن أبي، لكنه شرط خروجهم من المدينة كونهم صُنّفــوا من أعداء الإسلام.

### ح - أحداث أخرى في السنة ٢ هـ:

في آخر السنة الثانية للهجرة توفيت رقية بنت النبي ﷺ زوجة عثمان بن عفان فتزوّج عثمان شقيقتها أم كلثوم. ولهذا كان يقال لعثمان بن عفان «ذو النورين».

وفي هذه السنة حوّلت القبلة وزِيدَ في صلاة الحضر وفُرِضَ صيام رمضان وفرضت الزكاة.

وفيها أُخضع أهل المدينة اليهود والمشركون.

وقيل أن الحسن بن علي بن أبي طالب ولد فيها.

# ملحق رقم ٣

# تعداد غزوات المسلمين

## كتب المسعودي عن غزوات الرسول ﷺ:[1]

«غَزواتُهُ:

وكانت غزواته ﷺ بنفسه ستا وعشرين غزوة، ومنهم من رأى أنها سبع وعشرون: الأولون جعلوا منصرف النبيّ ﷺ من خيبر إلى وادي القرى غزوة واحدة، والذين جعلوها سبعاً وعشرين جعلوا غزوة خيبر مفردة ووادي القرى منصرفة إليها غزوة غير خيبر.

فوقع التنازع في أعداد الغزوات من هذا الوجه، وذلك أن النبيّ ﷺ حين فتح الله خيبر انصرف منها إلى وادي القرى من غير أن يأتي المدينة.

تَرتيبُها:

وكان أول غزواته ﷺ من المدينة بنفسه إلى ودان، وهي المعروفة بغزوة الأبواء.

ثمّ غزوة بواط إلى ناحية رضوى.

ثمّ غزوة العشيرة من بطن ينبع.

ثمّ غزوة بدر الأولى، وكان خروجه طلباً لكرز بن جابر.

ثمّ غزوة بدر الكبرى، وهي بدر الثانية التي قتل فيها صناديد قريش وأشرافها وأسر من أسر من زعمائهم.

ثمّ غزوة بني سليم حتّى بلغ الموضع المعروف بالكدر ماء لبني سليم.

(١) المستند: المسعودي، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٠٣ – ٣٠٥.

ثمّ غزوة السويق طلبا لأبي سفيان بن حرب فبلغ فيها الموضع المعروف بقرقرة الكدر.

ثمّ غزوة غطفان إلى نجد وتعرف هذه الغزوة بغزوة ذي أمر.

ثمّ غزوة بحران وهو موضع بالحجاز من فوق الفُرع.

ثمّ غزوة أُحد.

ثمّ غزوة بني النّضير.

ثمّ غزوة ذات الرّقاع من نَجْد.

ثمّ غزوة بَدَر الأخيرة.

ثمّ غزوة دَوْمةَ الجَندَل.

ثمّ غزوة المريسيع.

ثمّ غزوة الخندق.

ثمّ غزوة بني قُريْظَة.

ثمّ غزوة بني لحيان بن هُذيل بن مُدرِكَة.

ثمّ غزوة ذي قرد.

ثمّ غزوة بني المُصْطَلق من خزاعة.

ثمّ غزوة الحُديبية... لا يريد قتالا فصده المشركون

ثمّ غزوة خَيْبَر.

ثمّ اعتمر عليه السلام عمرة القضاء.

ثمّ فتح مكّة.

ثمّ غزوة حُنين.

ثمّ غزوة الطّائف.

ثمّ غزوة تَبُوك.

قاتل منها في تسع غزوات: بدر، وأحد، والخندق، وقريظة، وخيبر، والفتح، وحنين، والطائف، وتبوك.

### قَولُ الواقديّ في غَزَوَاتِهِ:

هذا قول محمّد بن إسحاق، فأما ما ذهب إليه الواقدي فإنه وافق ابن إسحاق في قتال النبيّ ﷺ في هذه التسع الغزوات. وزاد أن النبيّ ﷺ قاتل في غزوة وادي القرى، وذلك أن غلامه المعروف بمدعم رمي بسهم فقتل، وقاتل في يوم الغابة فقتل من المشركين ستة نفر، وقتل يومئذ محرز بن نضلة.

ففي قول الواقدي إنه قاتل في إحدى عشرة غزوة، وفي قول ابن إسحاق في تسع. فقتاله في التسع باتفاق منهما، وزاد الواقدي على ما ذكرنا.

وقد قيل: إن أول غزوة غزاها عليه السلام ذات العشيرة.

## سَرَايَاهُ وَبُعُوثُهُ:

وقد تنازع من سلف أهل السير والأخبار في عدة سراياه وبعوثه.

فقال القوم: إن عدة سراياه وبعوثه بين أن قدم المدينة وبين أن قبضه الله خمس وثلاثون بعثا وسرية.

وذكر محمّد بن جرير الطبري في كتابه في التاريخ قال: حدّثني الحارث قال: حدثنا ابن سعد قال: قال محمّد بن عمرو الواقدي: كانت سرايا النبيّ ﷺ ثمانياً وأربعين سرية، وقيل إن سراياه وبعوثه كانت ست وستين».

## الفصل الخامس
# غزوات السنة الثالثة للهجرة

في بداية السنة الثالثة للهجرة كان وضع المسلمين في المدينة قد استقرّ، كما أنهم كانوا قد أثبتوا جدارتهم في الحرب بقيادة الرسول ﷺ محطمين أسطورة تفوق قريش العسكري. وهكذا ارتفعت معنوياتهم ونشطوا في مختلف الميادين.

وكان النبيّ ﷺ قد نظم أمور المسلمين، علاوة على التشريع للحرب ولاقتسام غنائمها ولمصير الأسرى والشهداء. كما أنه كان قد بدأ التخطيط لنشر الدين الجديد ولمحاربة مكّة، عدوّة الإسلام، وذلك من خلال توقيف تجارتها التي تعتبر عصب اقتصادها المزدهر.

لذلك تتابعت الغزوات.[1] وكان الرسول ﷺ قد علم أن جمعاً من بني ثعلبة وبني محارب قد تجمعوا لمحاربة المسلمين، فسار إليهم في أربعمائة وخمسين رجلاً، فهربوا إلى رؤوس الجبال، فعاد من دون أن يشتبك معهم.

ثمّ غزا الرسول ﷺ نجداً يريد غطفان وهي غزوة ذي أَمَر مستعملاً على المدينة عثمان بن عفان. وأقام في نجد صفراً كلّه أو قريباً منه[2] قبل أن يعود إلى المدينة. كتب الواقدي عن هذه الغزوة:

«بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من غطفان من بني ثعلبة بن محارب قد تجمعوا بذي أَمَر يريدون حربه، فخرج إليهم من المدينة يوم الخميس لثنتي عشرة خلت من ربيع الأول سنة ثلاث، فغاب أحد عشر يوماً، وكان معه أربعمائة وخمسون

(١) أنظر ملحق رقم ٣: تعداد الغزوات.

(٢) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٠٤.

رجلاً، وهربت الأعراب في رؤوس الجبال حتّى بلغ ماء يقال له «ذو أمر»، فعسكر به وأصابهم مطر كثير فابتلّت ثياب رسول الله ﷺ فنزل تحت شجرة هناك ونشر ثيابه لتجفّ، وذلك بمرأى من المشركين».

ونقل ابن إسحاق أن الرسول ﷺ أقام بالمدينة ربيعاً الأول كلّه، ثمّ غدا يريد قريشاً واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم. وسار حتّى بلغ بُحران وغاب عن المدينة عشرة أيام. وسميت هذه الغزوة غزوة بحران.[1]

**أ - مهمة قتل كعب بن الأشرف:**

في السنة الثالثة للهجرة قتل كعب بن الأشرف وهو أحد بني نبهان من طيء وأمه من بني النضير. وكان تأثر بمن قتل في بدر من قريش فسار إلى مكّة وحرّض على رسول الله ﷺ، وكان يشبّب بنساء المسلمين.[2]

فلمّا عاد إلى المدينة كلّف النبيّ ﷺ من قتله.[3] وقيل: أنهم جاؤوا برأسه إلى رسول الله ﷺ.

كتب الطبري عن نتيجة هذه المهمة، وذلك على لسان أحد منفّذيها:[4]

«قال: فخرجنا حتّى سلكْنا على بني أميَّة بن زيد، ثمّ على بني قرَيْظة، ثمّ على بُعاث حتّى أسْنَدْنا في حرّة العُرَيْض، وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث بن أوس ونَزَفَه الدّمُ، فوقفْنا له ساعة، ثمّ أتانا يتبع آثارنا. قال: فاحتملناه فجئنا به رسولَ الله ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلّي، فسلّمنا عليه، فخرج إلينا، فأخبرناه بقتل عدوّ الله، وتفَل على جُرْح صاحبنا. ورجعنا إلى أهلنا، فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بعدوّ الله، فليس بها يهوديّ إلاّ وهو يخاف على نفسه. قال: فقال رسول الله ﷺ: مَنْ ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه، فوثب مُحيِّصَةُ بن مسعود على

(١) بحران موضع بالحجاز من ناحية الفُرع.
(٢) التشبيب بالمرأة يعني التغزل بحسنها.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣٩.
(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٤.

ابن سُنَيْنة - رجل من تجار يهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله - وكان حُوَيِّصة بن مسعود إذ ذاك لم يُسْلِمْ، وكان أَسَنّ من محيِّصة - فلما قتله جعل خويِّصة يضربه ويقول: أي عدوّ الله! قتلته! أما والله لرُبّ شَحْم في بطنك من ماله! قال محيِّصة: فقلت له: والله لو أمرني بقتلك مَنْ أمرني بقتله لضربت عنقك. قال: فوالله إنْ كان لأوّل إسلام حويِّصة، وقال: لو أمرك محمّد بقتلي لقتلتني! قال: نعم والله، لو أمرني بقتلك لضربت عنقك».

### ب - معركة أُحد:

معركة أُحد حصلت في السنة الثالثة للهجرة وانتصر فيها القرشيون بقيادة أبي سفيان واعتبرت من أشد الخسائر التي وقعت للمسلمين منذ بداية الدعوة. ويرجع المؤرّخون سبب الخسارة إلى خيانة عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان قد أشار على النبيّ ﷺ بالبقاء داخل المدينة وعدم الخروج لملاقاة القرشيين، الأمر الذي لم يحصل كما أشار.

#### ١ - ظروف المعركة:

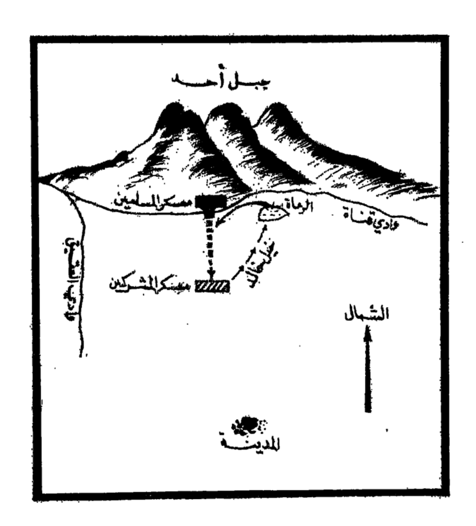
جاءت موقعة أُحد رداً على غزوة بدر التي انتصر فيها المسلمون. فمنذ عودة مقاتلي بدر إلى مكّة راحت نساؤها تبكين قتلاهن، إضافة إلى الصدمة النفسية التي أحدثتها خسارة قريش في المعركة.

وكان بين نساء قريش امرأة أبي سفيان التي فقدت في بدر ابنها حنظلة وأبيها عقبة ابن ربيعة وشقيقها الوليد بن عقبة وعمها شيبة، لكنها لم تذرف دمعة واحدة بل نذرت أن لا تضع عطوراً ولا تقرب فراش زوجها قبل الانتقام لقتلاها.

في المقابل، كان المسلمون في المدينة يعيشون أيام فرح لنصْرهم الكبير لا سيما بعد تدفّق أموال قريش عليهم ثمناً لفداء الأسرى.

من جهة أخرى، ساهم إجلاء بني قينقاع عن المدينة وهدر دم كلّ يهودي يسيء إلى المسلمين ومقتل كعب بن الأشرف، في جعل المسلمين يسيطرون على مقدرات المدينة. وهذا ما جعل طريق تجارة قريش نحو بلاد الشام غير آمنة بسبب سيطرة المسلمين عليها. لذلك انقلب

# خارطة معركة أحد




عن كتاب: معارك خالد بن الوليد للعميد الركن د. ياسين سويد.

الحصار الاقتصادي، الذي فرضته قريش قبل معركة بدر ضدها.

ولما كان المجتمع المكي يعيش على التجارة، فان إقفال طريق الشام على تجارته اعتبر خطراً بارزاً ينبغي إزالته. لذلك، وضمن هذا الإطار، وقعت معركة أُحد.

إنما، وقبل قرار التصدّي للمسلمين، حاول القرشيون السير بتجارتهم عبر طريق العراق حيث لا وجود للمسلمين؛ لذلك جهزت قريش قافلة تجارية كبيرة من البضائع غلب عليها الفضة، وبلغت قيمتها مائة ألف درهم.

### ٢ - غزوة القَرْدة:

أثناء تجهيز القافلة شاهدها رجل يثربي اسمه نعيم بن مسعود الأشجعي فعاد مسرعاً إلى المدينة وراح يحدّث بأمرها فبلغ خبرها الرسول ﷺ، فجهز سرية من المسلمين عيّن عليها أميراً زيد بن حارثة وسيّرها إلى بلاد نجد لاعتراض قافلة قريش التي كانت بقيادة أبي سفيان.

كتب الطبري عن هذه الغزوة:[١]

«قال الواقديّ: وفي جُمادى الآخرة مِنْ هذه السنة، كانت غزوة القَرْدة وكان أميرهم - فيما ذكر - زيد بن حارثة، قال: وهي أول سريّة خرج فيها زيد بن حارثة أميراً.

قال أبو جعفر: وكان من أمرها ما حدّثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا سلمَة، عن ابن إسحاق، قال: سريّة زيد بن حارثة الّتي بعثه رسول الله ﷺ فيها حين أصاب عيرَ قريش، فيها أبو سفيان بن حرب، على القَرْدة، ماء من مياه نجد. قال: وكان من حديثها أن قريشاً قد كانت خافت طريقها التي كانت تسلك إلى الشام حين كان من موقعة بدر ما كان، فسلكوا طريق العِراق، فخرج منهم تجّار فيهم أبو سفيان بن حرْب ومعه فضّة كثيرة؛ وهي عُظْم تجارتهم، واستأجروا رجلاً من بكر بن وائل يقال له فُرات بن حيّان، يدلّهم على ذلك الطريق، وبعث رسولُ الله ﷺ زيدَ بن حارثة، فلقيَهم على ذلك الماء، فأصاب تلك العيرَ وما فيها، وأعجزه الرّجال، فقدم بها على سول الله ﷺ».

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٤ - ٥٥.

ابن كثير من جهته أورد رواية عن هذه الغزوة فكتب:(١)

«قال يونس عن بكير، عن ابن إسحاق: وكانت بعد وقعة بدر بستة أشهر. قال ابن إسحاق: وكان من حديثها أن قريشاً خافوا طريقهم التي كانوا يسلكون إلى الشام حين كان من وقعة بدر ما كان، فسلكوا طريق العراق، فخرج منهم تجّار فيهم أبو سفيان ومعه فضّة كثيرة وهي عُظم تجارتهم، واستأجروا رجلاً من بكر بن وائل يقال له: فرات بن حيّان يعني العجلي، حليف بني سهم ليدلّهم على تلك الطريق. قال ابن إسحاق: فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة، فلقيهم على ماء يقال له القَرْدة [من مياه نجد]، فأصاب تلك العير وما فيها، وأعجزه الرجال، فقدم بها على رسول الله ﷺ».

**٣ - التحضير للمعركة:**

إثر هذه الخسائر، رأت قريش وجوب المجابهة، فاتخذت قراراً خطيراً يقضي بتجنيد جيش ضخم ومهاجمة المسلمين في عقر دارهم، في المدينة، وذلك قبل أن يسيطر هؤلاء على باقي أجزاء شبه الجزيرة.

وصف ابن الاثير خروج المكيين فكتب:(٢)

«وفيها في شوال لسبع ليال خلون منه كانت وقعة أُحُد، وقيل للنصف منه. وكان الذي أهاجها وقعة بدر، فإنه لما أُصِيْب من المُشركين مَن أصيب ببدر مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية وغيرهم ممّن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم بها فكلموا أبا سفيان؛ ومن كان له في تلك العير تجارة وسألوهم أنْ يعينوهم بذلك المال على حرب رسول الله ﷺ ليدركوا ثأرهم منهم، ففعلوا وتجهز الناس وأرسلوا أربعة نفر وهم عمرو بن العاص، وهبيرة بن أبي وهب، وابن الزبعرى وأبو عزة الجمحي، فساروا في العرب ليستنفروهم، فجمعوا جمعاً من ثقيف وكنانة وغيرهم، واجتمعت قريش بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وتهامة، ودعا جبير بن مُطْعِم غلامه وَحْشِيّ بن حرب وكان حبشياً يقذف

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٥.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٤ - ٤٥.

بالحربة قلّما يخطىء فقال له: اخرج مع الناس، فإنْ قتلت عم محمّد بعمي طعيمة بن عَدِيّ فأنت عتيق. وخرجوا معهم بالظُّعُن[1] لئلا يفروا. وكان أبو سفيان قائد الناس فخرج بزوجته هند بنت عتبة وغيره من رؤساء قريش، خرجوا بنسائهم، وخرج عكرمة بن أبي جهل بزوجته أمّ حكيم بنت الحارث بن هشام، وخرج الحارث بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة أخت خالد، وخرج صفوان بن أمية ببريرة - وقيل: برزة بنت مسعود الثقفية أخت عروة بن مسعود وهي أمّ ابنه عبد الله بن صفوان. وخرج عمرو بن العاص بريطة بنت منبه بن الحجاج وهي أمّ ولده عبد الله بن عمرو، وخرج طلحة ابن أبي طلحة بسلافة بنت سعد؛ وهي أمّ بنيه. وكان مع النساء الدفوف يبكين على قتلى بدر ويحرضن بذلك المشركين».

وبدأ جمع السلاح في قريش من رماح وأقواس وسهام وسيوف ودروع، كذلك تحضير الخيول والجمال، وتألفت فرقة خاصة من الفرسان قادها خالد بن الوليد. كما استنفرت قريش شعراءها لزيادة حماس المقاتلين.

- **جيش قريش:**

وهكذا خرجت قريش من مكّة بثلاثة آلاف مقاتل موزعين على ألوية ثلاثة هي:

- لواء المشاة، وهو الأكبر ويضمّ سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير ومائة رامٍ - حامل لواءه طلحة بن أبي طلحة.

- لواء الفرسان الأول على الميمنة بقيادة خالد بن الوليد ويضمّ مائة فارس.

- لواء الفرسان الثاني على الميسرة بقيادة عكرمة بن أبي جهل ويضمّ مائة فارس.

وذلك إضافة إلى التابعين من العبيد والخدم والأحابيش.

- **جيش المسلمين:**

خرج الرسول ﷺ من المدينة بألف رجل واستخلف عليها ابن أم مكتوم.

وكان النبي ﷺ قد تشاور مع أصحابه فكان رأيه البقاء في المدينة للمدافعة، ورأى

(١) الظعن هنا يعني الهوادج حيث توجد النساء.

رأيه أحد الصحابة وهو عبد الله بن أبي بن سلول. لكن أكثر الصحابة أشاروا بالخروج، فأطاع النبيّ ﷺ الأكثرية.(١)

وهكذا خرج المسلمون في ألف رجل من المدينة وتوسطوا بينها وبين جبل أحد الذي سميت الواقعة باسمه. وبعد خروجه، عاد عبد الله بن أبي مع ثلاثمائة رجل كون النبيّ ﷺ لم يأخذ برأيه في البقاء داخل المدينة.(٢) لذلك أصبح عدد المسلمين المقاتلين الذين رافقوا النبي ﷺ في المعركة سبعمائة مقاتل فقط.

**٤ - ما قبل المعركة:**

وصل جيش قريش إلى مشارف المدينة ونزل مقابل جبل أُحُد في مكان يقال له «العينين» على بعد خمسة أميال من المدينة.

وكان العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ يراقب ما يجري منذ ما قبل خروج جيش القرشيين من مكّة، فكتب كتاباً مفصلاً إلى رسول الله ﷺ أعلمه فيه عن كلّ تحضيرات مكّة للحرب. كما أرسل الرسول ﷺ رجلين لاستطلاع أمر قريش.

ولما وصل المسلمون إلى منطقة يقال لها «الشيخين»، شاهدوا مجموعة من اليهود بأسلحتهم الكاملة متوجهين لمساعدة قريش. إلا أنهم عادوا لاحقاً إلى المدينة ولم يشتركوا في المعركة.

وهكذا أصبح الوضع أن النبي ﷺ سار لمقابلة المشركين في سبعمائة مسلم فيما بلغ عدد أعدائه ثلاثة آلاف.

وكانت خطة النبي ﷺ تقضي بتشكيل المسلمين في صفوف متراصّة موزعة على ثلاث مجموعات تقاتل قريش وجهاً لوجه، وجعل جبل أُحُد وراءه كي يحمي ظهور المسلمين. كما اختار فرقة من أمهر رماة المسلمين بلغ عدد أفرادها خمسين رامياً وكلفهم ردّ الفرسان عن مشاة المسلمين كي لا يأتوا من خلفهم. كما كلفهم الثبات في أماكنهم مهما كانت نتيجة المعركة.

---

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٣١، ص ٥٦.

(٢) ابن الاثير، مرجع سابق، ص ٤٥.

ثمّ عقد ثلاثة ألوية، لواء الخزرج للحباب بن المنذر، ولواء الأوس لأُسيد بن حضير، ولواء المهاجرين لمصعب بن عمير. وعين الزبير بن العوام قائداً للفرسان ومعه المقداد ابن الأسود الكندي.

التحضيرات للمعركة رواها الطبري فكتب:[1]

ومضى رسول الله ﷺ على وجهه؛ حتّى نزل الشّعب من أُحُد في عُدْوة الوادي إلى الجبل، فجعل ظهره وعسكره إلى أُحُد، وقال: لا يقاتلنّ أحدٌ حتّى نأمره بالقتال؛ وقد سرّحت قريش الظّهْر والكُراع في زروع كانت بالصَّمْغة من قناة للمسلمين. فقال رجل من المسلمين حين نهى رسولُ الله ﷺ عن القتال: أتُرْعَى زروع بني قَيْلة ولمَّا نُضارب! وتعبّأ رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائة رجل، وتعبَّأت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل؛ ومعهم مائتا فرس قد جَنَبُوها، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عِكْرمة بن أبي جهل. وأمَّر رسول الله ﷺ على الرُّماة عبد الله بن جُبَيْر، أخا بني عمرو بن عوف وهو يومئذ معلِمٌ بثياب بيض، والرماة خمسون رجلاً، وقال: انضح عنا الخيل بالنَّبل لا يأتونا من خلْفنا إن كانت لنا أو علينا؛ فاثبت مكانك لا نؤْتَيَنَّ من قِبَلك، وظاهر رسول الله ﷺ بين دِرْعين».

ابن الأثير، من جهته، وصف ما قبل المعركة فكتب:[2]

«وسار رسول الله ﷺ، حتّى نزل بعدوة الوادي، وجعل ظهره وعسكره إلى أُحُد، وكان المشركون ثلاثة آلاف. منهم سبعمائة دارع، والخيل مائتي فرس، والظعن خمس عشرة امرأة. وكان المسلمون مائة دارع، ولم يكن من الخيل غير فرسين فرس لرسول الله ﷺ، وفرس لأبي بردة بن نيار. وعرض رسول الله ﷺ المقاتلة، فردّ زيد بن ثابت، وابن عمر، وأسيد بن ظهير والبراء بن عازب، وعرابة بن أوس، وأبا سعيد الخدري، وغيرهم، وأجاز جابر بن سَمُرَة، ورافع بن خَديج.

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦١ - ٦٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٦ - ٤٧.

وأرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول: خلوا بيننا وبين ابن عمنا فننصرف عنكم فلا حاجة لنا إلى قتالكم. فردوا عليه بما يكره، وتعبى المشركون، فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل، وكان لواؤهم مع بني عبد الدار، فقال لهم أبو سفيان: إنما يؤتى الناس من قِبَل راياتهم، فإمّا أن تَكْفُونا وإما أن تُخَلُّوا بيننا وبين اللواء، يحرضهم بذلك. فقالوا: ستعلم إذا التقينا كيف نصنع. واستقبل رسول الله ﷺ المدينة وترك أُحُداً خلف ظهره، وجعل وراءه الرماة، وهم خمسون رجلاً وأمّر عليهم عبد الله بن جبير[1] أخا خَوّات بن جبير وقال له: انضحْ عنا الخيل بالنبل لا يأتونا من خَلْفِنَا إن كانت لنا أو علينا، واثبت مكانك لا نؤتين من قبلك.

وظاهر رسول الله ﷺ بين دِرْعَيْن وأعطى اللواء مُصْعَب بن عُمَيْر وأمّر الزبير على الخيل ومعه المقداد، وخرج حمزة بالجيش بين يديه، وأقبل خالد وعكرمة، فلقيهما الزبير والمقداد فهزما المشركين. وحمل النبيّ ﷺ وأصحابه فهزموا أبا سفيان، وخرج طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين، وقال: يا معشر أصحاب محمّد إنّكم تزعمون أنّ الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة. فهل أحدٌ منكم يعجّله سيفي إلى الجنة أو يعجلني سيفه إلى النار؟

فبرز إليه علي بن أبي طالب فضربه عليّ فقطَعَ رجله فسقط وانكشفتْ عورتُه، فناشده الله والرحم فتركه فكبّر رسول الله ﷺ وقال لعليّ: ما مَنَعَك أن تُجْهِزَ عليه؟ قال: إنّه ناشدني الله والرحم فاستحييت منه. وكان بيد رسول الله ﷺ سيف فقال: مَنْ يأخذه بحقه؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم، حتّى قام أبو دُجَانة[2] فقال: وما حقُّهُ يا رسول الله؟ قال: تضرب به العدُوّ حتّى ينحني. قال: أنا آخُذُه. فأعطاه إياه. وكان شجاعاً، وكان إذا أعلم بعصابةٍ له حمراء علم الناسُ أنه يقاتل - فعصب رأسه بها وأخذ السيف

---

(١) ابن جبير قتل في هذه المعركة.

(٢) أبو دجانة من أبطال بدر، دافع عن الرسول ﷺ يوم أُحُد وشهد اليمامة.

وجعل يتبختر بين الصفين فقال رسول الله ﷺ: «إنها مِشْيَة يبغضها الله إلاّ في هذا الموطن». فجعل لا يرتفع له شيءٌ إلاّ حَطمه حتّى انتهى إلى نسوة في سفح الجبل معهن دفوف لهن فيهن امرأة تقول شعراً... فرفع السيف ليضربها، ثمّ أكرم سيف رسول الله ﷺ أن يضرب به امرأة. وكانت المرأة هند والنساء معها يضربن بالدفوف خلف الرجال يحرّضن».

**٥ - مجرى المعركة:**

وقعت معركة أُحُد نهار السبت من شهر شوال سنة ثلاث للهجرة. ولما كان من عادة العرب القيام بمبارزات فردية قبل التحام القوى، فقد خرج طلحة بن أبي طلحة حامل لواء قريش من الصفوف وطلب المبارزة، فخرج إليه علي بن أبي طالب وتقابلا، كما سبق القول، فقطع علي رجله دون أن يجهز عليه.(١)

ثمّ برز رجل من قريش يطلب البراز فتصدّى له الزبير بن العوام فقتله.

ثمّ التحم الجيشان في قتال مالت الكفّة في بدايته إلى جانب المسلمين الذين دخلوا معسكر قريش. وهنا حصل الخطأ الذي كان النبيّ ﷺ قد تنبّه له بإعطائه أمراً لرماة الأقواس بعدم مغادرة أماكنهم مهما كانت نتيجة المعركة. لكن الذي حصل أنه، لما رأى الرماة أن معسكر القرشيين قد دخله المسلمون، انطلق بعضهم باتجاهه يريدون النهب، فقامت قوّة من قريش بقيادة خالد ابن الوليد بمهاجمتهم وإزاحتهم عن مواقعهم مما سمح لفرسان مكّة التصرّف بحرية حققت النصر للمشركين. كما سرت شائعة أن النبي ﷺ قد قتل مما أثر في معنويات المسلمين.

كتب ابن الأثير عن هذه المرحلة في المعركة:(٢)

«واقتتل الناس قتالاً شديداً وأمعن في الناس حمزة وعلي وأبو دجانة في رجالٍ من المسلمين، وأنزل الله نصره على المسلمين وكانت الهزيمة على المشركين. وهرب النساءُ مُصَعِّدات في الجبل، ودخل

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٦.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٨ - ٤٩.

المسلمون عسكرهم ينهبون. فلما نظر بعض الرماة إلى العسكر حين انكشف الكفار عنه أقبلوا يريدون النّهْبَ، وثبتت طائفة وقالوا: نطيع رسول الله ونثبت مكاننا. فلما فارق بعض الرماة مكانهم رأى خالد بن الوليد قِلّة مَنْ بقيَ من الرماة، فحملَ عليهم فقتلهم وحمل على أصحاب النبيّ ﷺ مِنْ خلفهم. فلما رأى المشركون خيلهم تقاتل تبادروا فشدوا على المسلمين فهزموهم وقتلوهم. وقد كان المسلمون قَتَلُوا أصحاب اللواء فبقي مطروحاً لا يدنو منه أحد، فأخذته عَمْرة بنت علقمة الحارثية فرفعته فاجتمعت قريش حوله وأخذه صواب فقتل عليه، وكان الذي قتل أصحاب اللواء عليّ - قاله أبو رافع، قال: فلما قتلهم أبصر النبيّ ﷺ جماعةً من المشركين فقال لعلي: احمل عليهم، ففرّقهم وقتل فيهم، ثمّ أبصر جماعة أخرى فقال له: احمل عليهم، فحمل عليهم وفرّقهم وقتل فيهم. فقال جبريل: يا رسول الله هذه المواساة. فقال رسول الله ﷺ: «إنّه مِنّي وأنا منه». فقال جبريل: «وأنا منكما»، قال: فسمعوا صوتاً: «لا سيف إلاّ ذو الفقار، ولا فتىً إلاّ عليّ».(١)

وكسرتْ رباعية(٢) رسول الله ﷺ السُّفلى وشقَّت شفته وكُلَمَ(٣) في وجنته وجبهته في أصول شعره، وعلاه ابن قمئة بالسيف وكان هو الذي أصابه - وقيل أصابه عتبة بن أبي وقاص، وقيل: عبد الله بن شهاب الزهري جد محمّد بن مسلم، وقيل: إن عتبة بن أبي وقاص وابن قمئة الليثي الأدرمي من بني تيم بن غالب. وكان أدرم ناقص الذقن وأُبيّ بن خلف الجمحي، وعبد الله بن حميد الأسدي أسد قريش تعاقدوا على قتل رسول الله ﷺ، فأما ابن شهاب فأصاب جبهته، وأما عتبة فرماه بأربعة أحجار فكسر رباعيته اليمنى وشق شفته. وأما ابن قمئة فكلم وجنته ودخل من حلق المغفر فيها وعلاه بالسيف فلم يطق أن يقطع فسقط

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦٥.

(٢) الرباعية: أربعة اسنان أمامية.

(٣) كلم: أي جرح.

رسول الله ﷺ ربما فُحِشَتْ ركبته[١]. وأما أَبَـيّ ابـن خـلـف فشدّ عليه بحربة فأخذها رسـول الله ﷺ مـنـه وقـتـلـه بـهـا، وقيـل: بـل كانت حربة الزبير أخذها منه، وقيل أخذها من الحارث ابن الصمة. وأما عبد الله بن حميد فقتله أبو دجانة الأنصاري.

ولـمّـا جـرح رسـول الله ﷺ جـعـل الـدم يسيل على وجهه وهو يمسحه ويقول: «كيف يـفـلحُ قـومٌ خضـبـوا وَجْهَ نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى الله؟».

وقـاتـل دونـه نـفـر خـمـسـة من الأنصار فقُتِلوا، وترّس[٢] أبو دجانة رسول الله ﷺ بنفسه فكان يقع النبل في ظهره وهو منحن عـلـيـه، ورمـى سـعـد بـن أبـي وقـاص دون رسول الله ﷺ فكان رسول الله ﷺ يناوله الـسـهـم ويـقـول: ارم فِـدَاك أبـي وأمـي. وأصـيـبـتْ يـومـئـذٍ عين قـتـادة بـن الـنـعـمـان فـردّهـا رسـول الله ﷺ بـيـده فكـانت أحسن عينيه.

وقـاتـل مصـعـب بـن عـمـير ومعـه لـواء المسلمين فقُتِل، قَتَله ابن قمئة الليثي وهو يظن أنه النبيّ ﷺ فرجع إلى قريش، وقال: قتلتُ محمّداً، فجعل الناس يقولون: قُتل محمّد، قُـتـل مـحـمّـد. ولما قُـتـل مصـعب أعطى رسول الله ﷺ اللواء عليّ بن أبي طالب».

إلاّ ان هذه الشائعة لم تلبث أن تبخّرت بعد أن شوهد الرسول ﷺ وهو حي - وقيل أن أول من عرفه هو كعب بن مالك فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، ابشروا هذا رسول الله حيّ لم يقتل[٣].

وكان الرسول ﷺ قد قاتل يوم أحد قتالاً شـديـداً، فرمى بالـنـبـل حتّى انتهت نباله وانقطع وتر قوسه. وقيل: أنه لما جرح الرسول ﷺ، جعل علي ينقل له الماء ويغسل له الجرح فلم ينـقـطع الـدم، فجاءت فاطمة وأحرقت حصيراً وجعلت على الجرح من رماده فانقطع الدم.

---

(١) أي؛ خُدش جلد ركبته.

(٢) ترّس: أي جعل نفسه ترساً.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٥.

وعن مقتل حمزة بن عبد المطلب كتب ابن كثير:[1]

«قال ابن إسحاق: وقاتل حمزة بن عبد المطلب حتّى قتل أرطأة بن عبد شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وكان أحد النفر الذين يحملون اللواء، وكذلك قتل عثمان بن أبي طلحة وهو حامل اللواء...».

أما قاتل حمزة، فهو وحشي غلام جبير ابن مطعم الذي روى الحادثة كما يلي:

«كنت غلاماً لجُبَيْر بن مطعم، وكان عمّه طعيمة بن عدي قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أحُد، قال لي جبير: إن قتلت حمزة عمّ محمّد بعمي فأنت عتيق. قال: فخرجت مع الناس، وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلّ ما أُخطىء بها شيئاً، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتّى رأيته في عرض الناس كأنه الجمل الأورَق يهدّ الناس بسيفه هدّاً، ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهيأ له أريده وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو مني، إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزّى. فلما رآه حمزة قال: هلمّ إليّ يا ابن مقطّعة البظور، قال: فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه، قال: وهززت حربتي حتّى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت في ثنّته حتّى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوي فغُلب. وتركته وإياها حتّى مات، ثمّ أتيته فأخذت حربتي ثمّ رجعت إلى العسكر، وقعدت فيه ولم يكن لي بغيره حاجة، إنما قتلته لأعتق؛ فلما قدمت مكّة عتقت، ثمّ أقمت حتّى إذا افتتح رسول الله ﷺ مكّة هربت إلى الطائف».[2]

### ٦ - نتيجة المعركة:

كان الخطأ الكبير الذي ارتكبه رماة النبال قد منع المسلمين عن متابعة نجاحهم في المعركة. فالهجوم العام الذي شنّه هؤلاء ضعضع صفوف قريش واستطاع أحد الأنصار من الوصول إلى أبي سفيان قائد جيشهم وكاد يرديه قتيلاً لولا مشاهدته من أحد رجال قريش الذي منعه عن ذلك.

(١) ابن كثير، المرجع نفسه، ص ١٩.

(٢) ابن كثير، المرجع نفسه، ص ١٩.

وكانت جيوش قريش قد تراجعت. لكن رماة نبال المسلمين الذين عصوا أوامر النبي، اتجه قسم منهم إلى معسكر قريش للمشاركة في جمع الغنائم مما جعل خالد بن الوليد يقوم بهجوم عام قرّر مصير المعركة لمصلحة قريش. فقد أطلق خالد الفرسان فقضى على الرماة، ثمّ تحوّلوا نحو صفوف المسلمين حيث سادت البلبلة رغم محاولات النبي ﷺ تثبيتهم في مواقعهم.

ورغم تفرق المقاتلين من حول الرسول ﷺ، فقد صمد في موقعه رغم إصاباته. وقد وصف الطبري الوضع خلال هذه المرحلة فكتب: (١)

«قال أبو جعفر: فلمّا أتى المسلمون من خلفهم انكشفوا وأصاب منهم المشركون، وكان المسلمون لمّا أصابهم ما أصابهم من البلاء أثلاثاً: ثلث قتيل، وثلث جريح، وثلث منهزم؛ وقد جهدته الحرب حتّى ما يدري ما يصنع، وأصيبت رَبَاعِيَةُ رسول الله ﷺ السفْلى، وشُقّتْ شفته، وكُلِم في وجنتيْه وجبْهته في أصول شعره، وعلاه ابنُ قميئة بالسّيف على شقّه الأيمن؛ وكان الذي أصابه عُتْبة بن أبي وقاص.

حدّثنا ابن بشار، قال: حدّثنا ابن أبي عَدِيّ، عن حُمَيْد، عن أنس بن مالك، قال: لمّا كان يوم أحدٍ، كُسِرَتْ رَبَاعِيَةُ رسول الله ﷺ وشُجَّ، فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم عن وجهه، ويقول: ﴿كيف يُفلح قومٌ خضّبوا وجه نبيّهم بالدم. وهو يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ﴾! فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ...﴾. (٢)

قال أبو جعفر: وقال رسول الله ﷺ حين غشيَه القوم: مَنْ رجلٌ يشري لنا نفسه!

فحدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سلمَة، قال: حدّثني محمد بن إسحاق، قال: حدّثني الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو ابن سعد بن معاذ، عن محمود بن عمرو بن يزيد بن السَّكَن، قال: فقام زياد بن السَّكَن في نفر خمسة من الأنصار، وبعض الناس يقول: إنّما هو عُمارة بن زياد بن السَّكن، فقاتلوا دونَ رسول الله ﷺ رجلاً، ثمّ رجلاً،

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦٥ -٦٦.

(٢) آل عمران: من الآية ١٢٨.

يقتلون دونه؛ حتّى كان آخرهم زيادٌ - أو عمارة بن زياد بن السَّكن - فقاتل حتّى أثبتَتْه الجراحة، ثمّ فاءَت من المسلمين فِئَةٌ حتّى أجهضوهم عنه، فقال رسول الله ﷺ: أدنوهُ مني، فأدنوْه منه، فَوَسَّدَ قدمه؛ فمات وخَدُّه على قَدَم رسول الله ﷺ. وترّس دون رسول الله ﷺ أبو دُجانة بنفسه يَقَعُ النَّبل في ظهره وهو مُنْحَنٍ عليه؛ حتّى كثُرت فيه النَّبل، ورَمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله ﷺ، فقال سَعدٌ: فلقد رأيتُه يناولني ويقول: ارْمِ فِداك أبي وأمّي! حتّى إنّه ليُناولُني السَّهم ما فيه نَصْلٌ، فيقول: ارْم به!».

وبالفعل، لما تكاثرت قريش حول النبيّ ﷺ ووقف زياد الذي ذكره الطبري ومعه خمسة من الأنصار يدافعون عنه فقتلوا الواحد بعد الآخر، إلى أن قدمت فرقة من المسلمين وراحت تقاتل المكيين وتردّهم عن رسول الله ﷺ حتّى أبعدتهم عنه.

ولجأ قسم من قريش إلى رمي السهام لقتل الرسول ﷺ، فشكل المسلمون سداً بشرياً من أجسامهم حوله حماه من نبال المشركين. وكان أبرزهم علي وأبو بكر والزبير وعمر بن الخطاب وطلحة بن عبيدالله وسعد بن أبي وقاص، وجلهم من كبار الصحابة.

وتابع المسلمون مقاتلة المكيين إلى أن هزموا وتركوا شهداءهم على أرض المعركة فنكل بهم القرشيون خاصة هند زوجة أبي سفيان التي أخرجت كبد حمزة ولاكته بأسنانها.

ووقف أبو سفيان في مكان مرتفع قبل أن يغادر أرض المعركة وصرخ بأعلى صوته:

«أنعمت فعال، وأن الحرب سجال، يوم بيوم بدر وحنظلة بحنظلة...».(١)

وإثر انتهاء المعركة تنبّه الرسول ﷺ إلى وجوب معرفة مقصد جيش مكّة بعد المعركة. لذلك اتخذ تدابيراً احتياطية رواها ابن الأثير فكتب:(٢)

«ثمّ بعث رسول الله ﷺ علياً في أثرهم، وقال: انظر فإنْ جنبوا الخيل وامتطوا الإبل

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦٨.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٤.

فإنهم يريــدون مكّة، وإن ركبــوا الخيل فإنهـم يريدون الـمدينـــة فوالذي نفسي بيـده لـئـن أرادوها لأناجزنَّهُم. قال علي: فخرجت في أثرهم فامتطوا الإبل وجنبوا الخيل يريدون مكّة، فأقبلت أصيح ما أستطيع أن أكتم. وكان رسول الله ﷺ أمره بالكتمان».

وبعد المعركة صلّى الرسول ﷺ على شهداء المسلمين وعددهم سبعون ودُفنوا في قبر واحد في أرض المعركة.(١)

أمّا قتلى قريش فبلغ عددهم اثنين وعشرين قتيلاً مشركاً.

أمّا نتائج غزوة أحد المعنوية فكانت كبيرة إذ أنها جعلت قريشاً تطمع بغزوات أخرى ضد المسلمين يشاركهم فيها كلّ العرب الذين لم يعتنقوا الإسلام ديناً. وهذا ما تنبّه له الرسول ﷺ فقرر دعوة المسلمين لاستنفار أنفسهم وتحضير أسلحتهم ومطاردة جيش قريش وذلك رفعاً لمعنوياتهم.

ولبّى المسلمون الدعوة ولم يتأخر عنها أحد رغم وضعهم المأسوي، فكانت غزوة حمراء الأسد.

### ج - غزوة حمراء الأسد:

جاءت هذه الغزوة بعد موقعة أحد ورداً على انتصار قريش فيها ورفعاً لمعنويات المسلمين بعد أن نالهم من أُحد الاذى الكبير.

وهكذا، كما سبق القول، لبّى المسلمون دعوة النبي ﷺ لملاحقة جيش قريش وذلك في اليوم الثاني ليوم معركة أُحد. حتّى إن المسلمين الذين أُصيبوا في أُحد بجراح بالغة، خرجوا معه.

وروى ابن الأثير أخبار هذه الغزوة فكتب:(٢)

«لما كان الغد من يوم الأحد أَذَّنَ مؤذّن رسول الله ﷺ بالغزو، وقال: «لا يخرج معنا إلاّ مَنْ حضر بالأمس».

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٤٨.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٧ - ٥٨.

فخرج ليظن[1] الكفار به قوّة، وخرج معه جماعة جرحى يحملون نفوسهم وساروا حتّى بلغوا حمراء الأسد - وهي من المدينة على سبعة أميال - فأقام بها الإثنين والثلاثاء والإربعاء. ومرّ به معبد الخزاعي وكانت خزاعة مسلمهم، ومشركهم عيبة نصح[2] لرسول الله ﷺ بتهامة، وكان معبد مشركاً فقال: يا محمّد لقد عزّ علينا ما أصابك. ثمّ خرج من عند النبي ﷺ فلقيَ أبا سفيان ومن معه بالروحاء قد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ ليستأصلوا المسلمين بزعمهم. فلما رأى أبو سفيان معبداً. قال: ما وراءك؟

قال: محمدٌ قد خرج في أصحابه يطلبكم في جَمْعٍ لم أرَ مثله، قد جمع معه مَنْ تخلّف عنه وندموا على ما صنعوا، وما ترحل حتّى ترى نواصي الخيل.

قال: فوالله قد أجمعنا الرجعة لنستأصل بقيتهم. قال: إنّي أنهاك عن هذا. فثنى ذلك أبا سفيان ومَنْ معه. ومر بأبي سفيان ركبٌ من عبد القيس، فقال لهم: بلّغوا عني محمّداً رسالة وأُحمّل لكم إبلكم هذه زبيباً بعكاظ. قالوا: نعم. قال: أخبروه أنّا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصلهم.

فمروا بالنبي ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه فقال ﷺ: حسبنا الله ونعم الوكيل. ثمّ عاد إلى المدينة».

### د - الدروس المستقاة:

ا - جاءت معركة أُحد كردٍ طبيعي على هزيمة قريش في معركة بدر. لذلك افتدى القرشيون أسراهم تمهيداً لإشراكهم في القتال، وجاؤوا بغتة في ثلاثة آلاف رجل يقودهم أبو سفيان فيما كان خالد بن الوليد يقود الفرسان.

وهكذا أحسن القرشيون تطبيق المبدأ الأول للحرب أي «نسبية الأهداف

---

(١) أي؛ ليعلم.

(٢) نصح: أي موضع اسراره.

للوسائل»، فجمعوا جيشاً كبيراً يفوق قدرة المسلمين على المواجهة.[1]

٢ - بعد معركة بدر تضررت مصالح قريش الاقتصادية بسبب تهديد طريق تجارتها من قبل المسلمين، ففقد القرشيون بذلك حرية عملهم التجاري والاقتصادي. وجاءت معركة أُحد لاستعادة حرية العمل هذه لاسيما بعد أن اعترض المسلمون بقيادة زيد بن حارثة قافلة تجارية لهم حاولت استبدال الطريق التجاري واتباع طريق آخر يمرّ عبر العراق حيث لا وجود للمسلمين. وقد استولى زيد وسريته على القافلة.

٣ - قررت قريش نقل القتال من الطريق التجاري إلى عقر دار المسلمين أي إلى المدينة المنوّرة. وهذا القرار العسكري بنقل القتال إلى أرض العدو هو قرار استراتيجي صائب إذ أنه يحقق المبدأ الثاني من مبادىء الحرب أي؛ «حرية العمل».

---

(١) تعتمد بعض المدارس العسكرية، ومنها مدارس الجيش اللبناني مبادىء ثلاثة للحرب، وهي:

- المبدأ الأول: نسبية الأهداف للوسائل.
- المبدأ الثاني: حرية العمل.
- المبدأ الثالث: الحصيل الأقصى للوسائل.

ونظراً لأننا سنعتمد هذه التسميات خلال تعليقنا على المعارك في موسوعتنا هذه، قررنا شرحها هنا.

«نسبية الأهداف للوسائل»: تعني أن يقارن القائد بين جيشه وجيش خصمه وذلك لخوض معركة متكافئة. فإن كان جيش خصمه متفوّقاً بشكل واضح على جيشه، فعليه اتخاذ تدابير لتعويض هذا النقص من خلال تحسين أداء جنده وتحفيزهم للقتال ووضع خطة محكمة واستعمال الخدعة والمفاجأة والسرعة والحديّة في هجومه.

«حرية العمل»: تعني أن تبقى المبادرة خلال المعركة بيد القائد فيفرض إرادته على خصمه ويختار مكان وزمان المواجهة ويستفيد من المفاجأة والسرعة في التحرّك ومن نوعية الأسلحة. كما أن حرية العمل تعني ان يكون بإمكان القائد استعمال جميع وحداته في المعركة قبل انتهائها. ففي المرحلة التي نتكلّم عنها في هذا الجزء، كانت المعركة تدوم غالباً ساعات فقط. وفي هذه الحال، ينبغي ان تكون كلّ الوحدات التي ستشارك في المعركة في منطقة جغرافية لا تبعد سوى ساعات عن ساحة المعركة.

أخيراً، يفرض مبدأ «الحصيل الاقصى للوسائل»: حسن إدارة الوحدات العسكرية المشاركة في القتال بشكل تعطي فيه كلّ إمكاناتها. وتتفرّع عن هذا المبدأ قواعد حراكية الوحدات وسرعة انتقالها وتنفيذ القائد قتالاً متحركاً واعتماده استراتيجية الهجوم بدل الدفاع وسد جميع الثغرات في جهازية وحداته، وتكليف كلّ وحدة بمهمة ضمن اختصاصها... الخ.

فالقائد الذي يطبق هذه المبادىء يكون قد حضّر جيداً لمعركته وغالباً ما ينتصر فيها. أما إذا هُزم، فيكون قد قام بواجبه كاملاً رغم خسارته.

ومن الأمثلة التاريخية التي تظهر صوابية قرار نقل المعركة إلى أرض الخصم نذكر قيام الرومان بنقل الحرب بينهم وبين قرطاجة إلى أرض هذه الأخيرة. وهذا ما أجبر القائد القرطاجي الكبير هنيبعل، الذي كان يسيطر على الريف الايطالي منذ سنة ٢١٦ق.م، إلى نقل جيشه إلى إفريقيا، الأمر الذي أفقده حرية عمله، فهُزم في معركة زاما سنة ٢٠٢ق.م. التي ربحها القائد الروماني سيبيون الإفريقي.

٤ - استغل القرشيون النساء فاصطحبوهن معهم فرحن يحرضن أزواجهن وأخوانهن على القتال. وهذا ما زاد في حوافز المشركين الذين بذلوا أقصى جهودهم خلال المعركة فانتصروا.

عامة، على القائد العسكري خلق حوافز لجنده لدفعهم إلى الاستبسال في القتال كون حماس المقاتلين في المعركة يساهم في ربحها.

٥ - كان النبيّ ﷺ، وأمام تفوّق جيش قريش الهائل، قد قرّر البقاء داخل المدينة والدفاع عنها. لكن أكثر الصحابة أشاروا عليه بالخروج فاستجاب لرأي الأكثرية.

كان قرار النبيّ ﷺ قراراً استراتيجياً يتجاوب مع مبادىء وقواعد الفن العسكري. فعندما يكون جيش الخصم متفوّقاً بشكل كبير، يعمل القائد على إبعاد جيشه عن المواجهة المباشرة، مستعملاً المناورة إذا أمكن أو محتمياً بأسوار المدينة أو مستغلاً طبيعة الأرض لحماية جنده.

وهذا ما حاول النبيّ ﷺ القيام به بعد خروج جيشه من المدينة فاستند به على جبل أُحد.

لكنه، ورغم ذلك، لم يستطع مواجهة ثلاثة آلاف مقاتل بسبعمائة.

٦ - قام العباس عم النبي ﷺ بالاستعلام عن جيش قريش ونقل المعلومات له ﷺ. فالاستعلام عن وضع العدو ومعرفة تفاصيل تحركاته وأعداد جيشه ونوعية أسلحته وغير ذلك من المعلومات عنه يساهم في نجاح مناورة القوات الصديقة. وهذه المهمّة أنيطت في العصور الحديثة بأجهزة الاستخبارات العسكرية التي وضعت بتصرّفها إمكانات هائلة تطبيقاً للمبدأ العسكري: «إعرف عدوّك»، كون «العدو المعروف هو نصف مغلوب».

٧ - طبّق النبيّ في خطته للقتال مبدأي الحرب الثاني والثالث أي؛ «حرية العمل»

و«الحصيل الأقصى للوسائل». فبالنسبة لحرية العمل، كلف خمسين رامياً من أمهر رماة المسلمين بمنع فرسان قريش من مهاجمة مشاة المسلمين من الخلف طالباً منهم الثبات في أماكنهم. وقد نجحوا في تنفيذ مهمتهم في بداية القتال، لكنهم غادروا مراكزهم لاحقاً، بعد أن دخل المسلمون معسكر القرشيين، بقصد النهب، الأمر الذي سمح لخالد بن الوليد بمهاجمة المسلمين بفرقة من الفرسان وإزاحتهم عن مواقعهم.

أما الحصيل الأقصى للوسائل فقد حاول النبيّ ﷺ تأمينه بتشكيل المسلمين في صفوف متراصة موزعة على مجموعات ثلاث تقاتل قريش وجهاً لوجه فيما جعل جبل أُحد وراءها لحماية ظهور مقاتليها.

لكن المبدأ الأول للحرب أي «نسبية الأهداف للوسائل» كان يميل إلى جانب قريش التي حسمت المعركة لمصلحتها.

٨ – سرت شائعة عن مقتل الرسول ﷺ خلال المعركة أثّرت على معنويات المسلمين فتراجع أداؤهم في القتال. وعندما لجأت قريش إلى رمي السهام لقتل الرسول ﷺ، شكّل المسلمون ستاراً بشرياً من أجسادهم حماه من نبال المشركين.

فالتعلّق بالقائد والقتال في سبيله باندفاع وحماس، كلّها عوامل تساهم في تحقيق النصر.

٩ – لم يحسن أبو سفيان استغلال انتصاره في أُحد للقضاء على المسلمين المنهزمين. بالمقابل، تنبّه الرسول ﷺ إلى ضرورة مراقبة جيش قريش بعد المعركة خوفاً من أن يستغلّ هذا الجيش نتيجتها لملاحقة المسلمين.

فعمليّة استغلال النصر هي مرحلة من مراحل القتال تنفّذ بعد الانتصار في المعركة، ويقوم خلالها المنتصر بملاحقة فلول عدوّه المنهزمة للقضاء عليها ومنعها من إعادة تجميع صفوفها تمهيداً لعمليات لاحقة.

برز في عمليّات استغلال النصر، عبر التاريخ العسكري، القائد جينكيزخان الذي كلف القائدين سوبوتاي واوغوتاي بعملية ملاحقة سريعة باتجاه أوروبا الشرقية اجتازت خلالها جيوشهما مئات الكيلومترات خلال أيام معدودة ملاحقةً فلول أعدائهم المنهزمة.

أما هنيبعل فقد انتقده المؤرخون كونه لم يستغلّ انتصاره الكبير في معركة كانت سنة ٢١٦ق.م. التي سحق فيها الجيش الروماني لمحاصرة روما واحتلالها.

# ملحق رقم ٤

# سيرة حمزة بن عبد المطلب

## (رضي الله عنه)

هو عمّ النبي ﷺ ومن أبطال العرب المشهود لهم منذ الجاهلية. اعتنق الإسلام منذ بدء الدعوة ورافق الرسول ﷺ ودعمه ودافع عنه خاصة أمام شقيقه أبي جهل الذي قام بصفعه في إحدى المرات التي تعرّض فيها هذا الأخير لابن أخيهما محمّد ﷺ. قاد أول سرية أرسلها النبي ﷺ من المدينة في ثلاثين رجلاً من المهاجرين لاعتراض تجارة قريش.

شارك في معركة بدر الكبرى إلى جانب الرسول ﷺ، وكان أوّل من تقدّم للمبارزة الافرادية من المسلمين فقتل الأسود المخزومي الذي كان أول قتلى بدر من المشركين. كما برز إلى جانب علي وعبيدة بن الحارث لقتال شيبة بن ربيعة ورفاقه الذين طلبوا المبارزة، معركة فصرع شيبة وعتبة بن ربيعة. واعتبر حمزة من أهم أبطال معركة بدر.

قتل في معركة أُحد فاعتبر فقده ضربة كبرى للمسلمين. وقد كانت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان وأم معاوية قد أقسمت على أكل كبده. فلما قتل شقّت بطنه وأخرجت كبده ولاكتها، فلم تستطع أن تبتلعها فلفظتها.

ولما أخذ رسول الله ﷺ يتفقّد قتلى أحد ويبحث عن عمه حمزة، وجده ببطن الوادي وقد شقّ بطنه وأخرجت أحشاؤه، فحزن حزناً شديداً خالطه شيء كثير من الغضب وقال:

- «لن أصاب بمثلك أبداً... ما وقفت موقفاً قط أغيظ إليّ من هذا». [١]

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٤.

## الفصل السادس
# غزوات السنة الرابعة للهجرة

رغم خسارة المسلمين في معركة أُحد، بقيت معنوياتهم مرتفعة بفضل إيمانهم بالله وثقتهم برسوله ﷺ الذي تأثر كثيراً بفقدان شهداء أُحد. إلا أنه انطلق بسرعة في إعادة الثقة إلى المقاتلين وفي إفهام العرب جميعاً أن الدعوة التي دعاه الله إليها لن تتوقّف عند أيّ صعوبات أو هزائم مهما بلغت جسامتها.

وهكذا رأينا المسلمين يلبّون دعوة الرسول ﷺ مع نهاية السنة الثالثة للهجرة ويمتشقون سيوفهم ويؤلبون جموعهم ويلاحقون جيش قريش المنسحب نحو مكّة بعد انتهاء معركة أُحد في اندفاع وحماس تميّزت بهما كلّ الوقائع والغزوات خلال السنين اللاحقة.

وتتابعت غزوات المسلمين مع بداية السنة الرابعة للهجرة فكانت غزوات الرجيع وبني النضير ولحيان وذات الرقاع وغزوة بدر الأخيرة علاوة على سريتي عمرو بن أمية وبئر معونة وأحداث أخرى شهدتها هذه السنة من بداية تاريخ الأمة الإسلامية.

### أ - سرية أبي سلمَة:

في المحرم من السنة الرابعة للهجرة دعا النبي ﷺ أبي سلمة بن عبد الأسد أبي طليحة الأسدي وعقد له لواءً على مائة وخمسين رجلاً وأوصاه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً.

روى ابن كثير ما حصل خلال هذه السرية فكتب:[١]

«في المحرم منها كانت سريّة أبي سَلَمة بن عبد الأسد أبي طليحة الأسدي، فانتهى إلى ما يقال له قَطَن.[٢] قال الواقدي: حدّثنا عمر بن عثمان بن عبد الرّحمن بن سعيد اليربوعي، عن سَلَمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سَلَمة وغيره قالوا: شهد أبو سَلَمة أُحُداً فجرح جرحاً على عضده فأقام شهراً يداوى، فلما كان هلال المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من الهجرة، دعاه رسول الله ﷺ فقال: «**اخْرُجْ في هذه السَرِيَّة فقد اسْتَعْمَلْتُكَ عَلَيْهَا**»، وعقد له لواء وقال: «**سِرْ حتّى تأتي أَرْضَ بَنِي أَسَدٍ فَأَغِرْ عَلَيْهِمْ**»، وأوصاه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً. وخرج معه في تلك السرية خمسون ومائة، فانتهى إلى أدنى قَطَن وهو ماء لبني أسد، وكان هناك طليحة الأسدي وأخوه سَلَمة ابنا خويلد، وقد جمعا حلفاء من بني أسد ليقصدوا حرب النبيّ ﷺ، فجاء رجل منهم إلى النبيّ ﷺ فأخبره بما قالوا عليه، فبعث معه أبا سَلَمة في سريّته هذه. فلما انتهوا إلى أرضهم تفرّقوا وتركوا نعماً كثيراً لهم من الإبل والغنم، فأخذ ذلك كلّه أبو سَلَمة وأسر منهم معه ثلاثة مماليك وأقبل راجعاً إلى المدينة، فأعطى ذلك الرجل الأسديّ الذي دلّهم نصيباً وافراً من المغنم، وأخرج صفي النبيّ ﷺ عبداً وخُمس الغنيمة، وقسّمها بين أصحابه، ثمّ قدم المدينة».

### ب - غزوة الرجيع:

سبب غزوة الرجيع أن جماعة من عضل والقارة قصدوا النبيّ ﷺ وطلبوا منه أن يرسل عدداً من أصحابه لتعليمهم مبادىء الدين الاسلامي والقرآن الكريم وشرائع الإسلام. أرسل الرسول ﷺ ستة من المسلمين برئاسة مرثد بن أبي مرثد الغنوي[٣] حليف حمزة بن عبد المطلب.

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٦٨.

(٢) قطن: جبل.

(٣) وقيل: أن رئيس الجماعة كان عاصم بن ثابت.

لكن بوصولهم إلى الهدأة،[1] غدر بهم بنو لحيان من هذيل.

نقل الطبري تفاصيل هذه الحادثة فكتب:[2]

«قدِم على رسول الله ﷺ بعد أُحُد رهْط من عَضَل والقارة فقالوا له: يا رسول الله؛ إن فينا إسلاماً وخيراً؛ فابعث معنا نفراً من أصحابك يُفَقِّهوننا في الدين، ويقرءوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام. فبعث رسولُ الله ﷺ معهم نفراً ستَّة من أصحابه: مَرْثَد بن أبي مرثد الغَنَويّ حليف حمزة بن عبد المطّلب، وخالد بن البكَيْر حليف بني عديّ بن كعب، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح أخا بني عمرو بن عوف، وخبيب بن عديّ أخا بني جَحْجَبي بن كُلْفَة بن عمرو ابن عوف، وزيدَ بن الدَّثِنة أخا بني بياضة بن عامر، وعبدَالله بن طارق حليفاً لبني ظَفَر من بَلِيّ.

وأمَّر رسولُ الله ﷺ على القوم مرثَد بن أبي مرثَد، فخرجوا مع القوم، حتّى إذا كانوا على الرَّجيع (ماء لهذيل بناحية من الحجاز من صدور الهدْأة) غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هُذَيْلاً، فلم يُرَع القومُ وهم في رحالهم إلاّ بالرجال في أيديهم السيوف، قد غشُوهم. فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم، فقالوا لهم: إنّا والله ما نريد قتلكم؛ ولكنّا نريد أن نصيب بِكم شيئاً من أهل مكّة، ولكم عهد الله وميثاقه ألاّ نقتلَكم. فأمّا مرثَد وخالد بن البُكَيْر وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقْداً أبداً؛ فقاتلوهم حتّى قتلوهم جميعاً.

وأمّا زيد بن الدّثِنة وخَبَيْب بن عَدِيّ وعبد الله بن طارق فلانُوا ورقُّوا ورغِبوا في الحياة، فأعطوْا بأيديهم، فأسروهم. ثمّ خرجوا بهم إلى مكّة ليبيعوهم بها حتّى إذا كانوا بالظَّهْران، انتزع عبدُالله بن طارق يدَه من القِران، ثمّ أخذ سيفه واستأخر عنه القوم، فرموْه بالحجارة حتّى قتلوه، فقبْرُه بالظَّهْران.

(١) الهدأة قرية بأعلى مر الظهران في الحجاز.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، صفحة ٧٧ - ٧٨.

وأمّا خُبَيْبُ بن عديّ وزيد بن الدّثِنة، فقدِموا بهما مكّة، فباعوهما فابتاع خبيباً حُجَيْرُ ابن أبي إهاب التميميّ حليف بني نوفل لعُقْبة ابن الحارث بن عامر بن نوفل - وكان حُجير أخا الحارث بن عامر لأمّه - ليقتله بأبيه. وأمّا زيد بن الدّثِنَة، فابتاعه صَفْوان بن أميّة ليقتله بأبيه أميّة بن خلف، وقد كانت هُذيل حين قُتل عاصم بن ثابت قد أرادوا رأسه ليبيعوه من سُلافة بنت سعد بن شُهَيْد، وكانت قد نذرتْ حين أصاب ابنها يوم أُحد: لئن قدرت على رأس عاصم لتشرَبنّ في قِحفه الخمر، فمنعته الدَّبْر. فلما حالت بينهم وبينه، قالوا: دعوه حتّى يمسي فتذهب عنه فتأخذه فبعث الله الوادي. فاحتمل عاصماً فذهب به؛ وكان عاصم قد أعطى الله عهداً ألاّ يمسه مشركٌ أبداً ولا يمسَّ مشركاً أبداً، تنجُّساً منه. فكان عمر ابن الخطاب يقول حين بلغه، أن الدّبْرَ منعته: عجباً، لحفظ الله العبد المؤمن! كان عاصم نذر ألاّ يمسّه مشرك، ولا يمسّ مشركاً أبداً في حياته، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منه في حياته».

ونقل ابن الأثير وابن كثير رواية مشابهة لرواية الطبري.

### ج - سرية عمرو بن أمية الضَّمريّ:

إثر حادثة غزو الرجيع بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أميّة الضَّمريّ إلى مكّة مع رجل من الأنصار، وأمرهما بقتل أبي سفيان.

نقل ابن الأثير عن عمرو بن أمية قوله:[1]

«فخرجت أنا ومعي بعيّر لي وبرجل صاحبي علة فكنت أحمله على بعيري حتّى جئنا بطن يأجج فعقلنا بعيرنا في فناء شِعْب وقلت لصاحبي: انطلق بنا إلى دار أبي سفيان لنقتله، فإنْ خشيتَ شيئاً فالحق بالبعير فاركبه، والحق برسول الله ﷺ وأخبره الخبر وخلّ عني فإني عالمٌ بالبلد.

فدخلنا مكّة ومعي خنجر قد أعددته إن عاقني إنسان ضربتُه به، فقال لي صاحبي: هل لك أن نبدأ فنطوف ونصلي ركعتين فقلتُ: إنّ أهلَ مكّة يجلسون بأفنيتهم وأنا أعرَفُ بها. فلم يزل بي حتّى أتينا البيت فطُفْنا وصلينا ثمّ خرجنا فمررنا بمجلس لهم

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦١ - ٦٢.

فعرفني بعضُهم فصرخ بأعلى صوته هذا عمرو بن أميّة. فثار أهلُ مكّة إلينا وقالوا: ما جاء إلاّ لشَرٍّ، وكان فاتكاً متشيطناً في الجاهلية.

فقلت لصاحبي: النجاء هذا والله الذي كنت أحذر، أما أبو سفيان فليس إليه سبيل فانج بنفسك. فخرجنا نشتد حتّى صعدنا الجبل فدخلنا غاراً فبِتْنَا فيه ليلتنا ننتظر أن يسكن الطلب. قال: فوالله إني لفيه إذ أقبل عثمان بن مالك التيمي يختل بفرس له فقام على باب الغار فخرجتُ إليه فضربته بالخنجر تحت الثدي فصاح صيحة أسمَع أهل مكّة، فأقبلوا إليه ورجعتُ إلى مكاني فوجدوه وبه رَمَق فقالوا: مَن ضربك؟ قال: عمرو بن أمية. ثمّ مات ولم يقدر يخبرهم بمكاني. وشغلهم قتل صاحبهم عن طلبي فاحتملوه. ومكثنا في الغار يومين حتّى سكن عنا الطلب، ثمّ خرجنا إلى التنعيم فإذا بخشبة خبيب، وحوله حرس فصعدتُ خشبته فاحتللته واحتملته على ظهري فما مشيتُ به إلاّ نحو أربعين خطوة حتّى نذروا بي؛ فطرحتُه فاشتدوا في أثري فأخذتُ الطريق فأعيوا ورجعوا وانطلق صاحبي فركبت البعير وأتى النبيّ ﷺ فأخبره. وأما خبيب فلم يُرَ بعد ذلك، وكأنّ الأرض ابتلعته. قال: وسرت حتّى دخلتُ غاراً بضَجَنَان[1] ومعي قوسي وأسهمي، فبينا أنا فيه إذ دخل عليّ رجلٌ من بني الدئل أعور طويل يسوق غنماً فقال: مَنْ الرجل؟ قلت: من بني الدئل فاضطجع معي، ورفع عقيرته يتغنى.

ثمّ نام فقتله أسوأ قِتْلَة ثمّ سرتُ فإذا رجلان بعثتهما قريش يتجسسان أمْرَ رسول الله ﷺ، فرميتُ أحدهما بسهم فقتلته، واستأسرتُ الآخر فقدمتُ على النبيّ ﷺ وأخبرتُه الخبر فضحك حتّى بَدَت نواجذه ودعا لي بخير».

**د - سرية بئر مَعُونة:**

في بئر مَعُونة[2] حصلت مجزرة قتل فيها كلّ المسلمين هناك. وكان سبب ذلك ان

(١) جبل في تهامة.

(٢) هو بئر بين أرض بني عامر وحرة بني سليم بين المدينة ومكّة.

أبا براء سيد عامر بن صعصعة جاء إلى المدينة وأهدى النبيّ ﷺ هدية فلم يقبلها النبيّ ﷺ لأن أبا براء مشرك ولم يعتنق الإسلام. وعرض النبيّ ﷺ عليه الإسلام فلم يقبل،[1] لكنّه طلب إرسال رجال من المسلمين لعرض الموضوع على أهل نجد.

روى الطبري خبر الفاجعة كما يلي:[2]

«قدم أبو بَرَاء عامر بن مالك بن جعفر ملاعِبُ الأسنَّة - وكان سيِّد بني عامر بن صعصعة - على رسول الله ﷺ المدينة، وأهدى له هديّة فأبى رسولُ الله ﷺ أن يقبَلها، وقال: يا أبا بَراء، لا أقبل هديّة مشرك، فأسْلِمْ إن أردتَ أن أقبل هديّتك. ثمّ عرض عليه الإسلام، وأخبره بما له فيه، وما وعد الله المؤمنين من الثّواب، وقرأ عليه القرآن فلم يسلِم ولم يبعُد، وقال: يا محمّد، إنّ أمرك هذا الذي تدعو إليه حَسَنٌ جميل، فلو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نَجْد فدعَوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك. فقال رسولُ الله ﷺ: إني أخشى عليهم أهل نجْد! فقال أبو بَراء: أنا لهم جارٌ، فابعثهم ليدعُوا النّاس إلى أمرك. فبعث رسولُ الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة المُعْنِقَ ليموت في أربعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين؛ منهم الحارث بن الصِّمَّة، وحرام بن مِلْحان أخو بني عديّ بن النجّار، وعُروة بن أسماء بن الصَّلْت السُّلَميّ، ونافع ابن بُدَيْل بن ورقاء الخُزاعيّ، وعامر بن فُهَيرة مولى أبي بكر؛ في رجال مَسَمَّيْن من خيار المسلمين.

فحدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حدّثني محمّد بن إسحاق، عن حُميد الطويل، عن أنس بن مالك، قال: بعث رسولُ الله ﷺ المنذرَ بن عمرو في سبعين راكباً، فساروا حتّى نزلوا بئر مَعونة - وهي أرض بين أرض بني عامر وحَرّة بني سُليم، كِلا البلدين منها قريب، وهي إلى حرّة بني سليم أقرب - فلمّا نزلوها بعثوا حرام بن ملْحَان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطُّفَيْل؛ فلمّا أتاه لم ينظر في كتابه، حتّى

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦٣.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٨١.

عدا على الرجل فقتله، ثمّ استصرخ عليهم بني عامر، فأبَوْا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: لن نُخْفِرَ أبا بَراء؛ قد عقد لهم عقداً وجواراً. فاستصرخ عليهم قبائل من بني سُليم: عُصَيَّة، ورِعْلاً، وذَكْوان؛ فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتّى غَشُوا القوم، فأحاطوا بهم في رحالهم، فلمّا رأوهم أخذوا السيوف، ثمّ قاتلوهم حتّى قُتلوا عن آخرهم، إلاّ كعب بن زيد أخا بني دينار بن النَّجار، فإنهم تركوه وبه رمقٌ، فارتُثّ[1] من بين القتلى، فعاش حتّى قُتِل يوم الخندق».

وأكمل ابن كثير الرواية:[2]

«وكان في سرح القوم عمرو بن أميّة الضمري ورجل من الأنصار من بني عمرو بن عوف فلم ينبئهما بمصاب القوم إلاّ الطير تحوم حول العَسْكر، فقالا: والله إنّ لهذه الطير شأناً، فأقبلا لينظرا فإذا القوم في دمائهم، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة. فقال الأنصاري لعمرو بن أمية: ماذا ترى؟ فقال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فقال الأنصاري: لكنني لم أكن لأرغب بنفسي عن موطن قُتل فيه المنذر بن عمرو، وما كنت لأخبر عنه الرجال. فقاتل القوم حتّى قُتِل وأُخِذ عمرو أسيراً. فلما أخبرهم أنه من مُضَر أطلقه عامر بن الطّفيل وجزّ ناصيته وأعتقه عن رقبة كانت على أمّه فيما زعم. قال: وخرج عمرو بن أمية حتّى إذا كان بالقرقرة من صَدْر قناة أقبل رجلان من بني عامر حتّى نزلا في ظلّ هو فيه. وكان مع العامريين عهد من رسول الله ﷺ وجوار لم يعلمه عمرو بن أمية، وقد سألهما حين نزلا ممن أنتما قالا: من بني عامر، فأمهلهما حتّى إذا ناما عدا عليهما وقتلهما، وهو يرى أن قد أصاب بهما ثأراً من بني عامر، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ. فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ أخبره بالخبر، فقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ قَتَلْتَ قَتِيلَيْن لأفدِيَنَّهُمَا» ثمّ قال رسول الله ﷺ: «هَذَا عَمَلُ أَبِي بَرَاءِ، قَدْ كُنْتُ لِهَذَا كَارِهاً مُتَخَوّفاً».

(1) ارتثّ: أي رفع من ميدان المعركة وهو مجروح.

(2) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٨٠ - ٨١.

**هـ - غزوة بني النضير:**

جاءت هذه الغزوة تابعة لسرية بئر معونة. والسبب أن عامر بن الطفيل المذكور أرسل إلى النبيّ ﷺ يطلب دية العامريَّينَ اللذين قتلهما عمرو بن أُمية. انطلق رسول الله ﷺ إلى قُباء، ثمّ عرّج على بني النضير مستعيناً بهم في ديتهما ومعه جماعة من المسلمين، منهم أبو بكر وعمر وعلي.(١)

كتب ابن الأثير، إكمالاً للرواية، ما يلي:(٢)

«قبل بنو النضير المساعدة في دفع الدية وقالوا: نعم نعينك على ما أحببت. ثمّ خلا بعضهم ببعض وتآمروا على قتله وهو جالس إلى جنب جدار، فقالوا: مَن يعلو هذا البيت فيُلْقِي عليه صخرة فيقتله ويريحنا منه؟ فانتدب له عمرو بن جحاش، فنهاهم عن ذلك سَلاّم بن مِشْكَم وقال: هو يعلم. فلم يقبلوا منه وصعد عمرو بن جحاش، فأتى الخبر من السماء إلى رسول الله ﷺ بما عزموا عليه، فقام وقال لأصحابه: لا تبرحوا حتّى آتيكم وخرج راجعاً إلى المدينة. فلما أبطأ قام أصحابه في طلبه فأخبرهم الخبر، وأمر المسلمين بحربهم».

بعد محاولة اغتياله، قرّر النبيّ ﷺ محاربة بني النضير وإخراجهم من المدينة. روى ابن كثير تفاصيل القتال ضد بني النضير وصولاً إلى إخراجهم من المدينة فكتب:(٣)

«قال الواقدي: فبعث رسول الله ﷺ محمّد بن مَسلمة يأمرهم بالخروج من جواره وبلده، فبعث إليهم أهل النفاق يثبّتونهم ويحرّضونهم على المقام ويعِدونهم النصر. فقويت عند ذلك نفوسهم وحمي حييّ بن أخطب، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أنهم لا يخرجون، ونابذوه بنقض العهود، فعند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم. قال الواقدي: فحاصروهم خمس عشرة ليلة. وقال ابن إسحاق: وأمر النبيّ ﷺ بالتهيّؤ لحربهم والمسير إليهم. قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وذلك في شهر ربيع الأول. قال ابن

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧، ص ٢٦ - ٢٧.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦٤ - ٦٥.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٨٢ - ٨٣.

إسحاق: فسار حتّى نزل بهم فحاصرهم ست ليال، ونزل تحريمُ الخمر حينئذ. وتحصّنوا في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل والتحريق فيها، فنادوه: أن يا محمّد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب من صَنَعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟[1] قال: وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج، منهم عبد الله بن أبيّ ووديعة ومالك وسويد وداعس، قد بعثوا إلى بني النَّضير أن أثبتوا وتمنّعوا، فإنّا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم. فتربّصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله أن يجليهم ويكفّ عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلاّ الحلقة [ففعل]».[2]

الطبري من جهته أكمل الرواية كالآتي:[3]

«فاحتملوا من أموالهم ما استقلّت به الإبل، فكان الرجل يهدم بيته عن نجاف بابه،[4] فيضعه على ظهر بعيره، فينطلق به. فخرجوا إلى خَيبر، ومنهم من سار إلى الشام».

ووزّع النبيّ ﷺ أموال بني النضير على المهاجرين كما نقل البلاذري الذي كتب:[5]

«فقال رسول الله ﷺ للأنصار: ليست لإخوانكم من المهاجرين أموال، فإن شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعاً. وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة، فقالوا: بل اقسم هذه فيهم واقسم لهم من أموالنا ما شئت».

### الدروس المستقاة:

١ - بنو النضير هم القبيلة اليهودية الثانية التي أخرجها النبيّ ﷺ من المدينة بعد أن حاولت اغتياله وذلك كي لا يترك عدواً له داخل معسكره.

---

(١) كان قطع الاشجار المثمرة معمول به في الحروب القديمة وذلك للضغط على المقاتلين للتسليم.

(٢) أي قبل بإجلائهم.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٨٥.

(٤) نجاف الباب: أي العتبة.

(٥) البلاذري، مرجع سابق، ص ٣٠ - ٣١.

وكان بعض أركان الخزرج قد وعدوا بني النضير بالمساعدة في قتالهم ضدّ النبيّ ﷺ، لكنهم تراجعوا عن نصرتهم لاحقاً.

لقد أخطأ بنو النضير في تقدير قوتهم العسكرية نسبة إلى قوّة المسلمين، فخرقوا المبدأ الأوّل للحرب أي؛ «نسبية الأهداف للوسائل»، فخسروا معركتهم وبيوتهم وأخرجوا من المدينة.

٢ - وهكذا وقع ما نبّه إليه الراهب بحيرى من أن اليهود سيحاولون اغتيال النبيّ ﷺ، فأُخرجت قبيلتان من قبائلهما الثلاث من المدينة. أما القبيلة الثالثة أي بنو قريظة، فإن قادتها لم يفيدوا من أخطاء القبيلتين المذكورتين لتجنب نفس مصيرهما. وهذا ما سنذكره في «غزوة بني قريظة».

**و - غزوة ذات الرقاع:**

قيل: إنها سميت كذلك لأنهم رقّعوا فيها راياتهم، وقيل: على اسم شجرة كانت هناك، وقال الواقدي: إنها سميت على اسم جبل فيه بقع حمراء وسوداء وبيضاء.

نقل تفاصيل هذه الغزوة ابن الأثير فكتب:(١)

«أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد بني النضير شهري ربيع ثمْ غزا نجداً يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان حتّى نزل نخلاً وهي غزوة الرقاع سميت بذلك لأجل جبل كانت الوقعة به، فيه سواد وبياض وحمرة. فاستخلف على المدينة عثمان بن عفان، فلقيَ المشركين ولم يكن قتال وخاف الناس بعضهم بعضاً فنزلت صلاة الخوف. وقد اختلف الرواة في صلاة الخوف، وهو مستقصى في كتب الفقه. وجاء رجل من محارب إلى النبيّ ﷺ فطلب منه أنْ ينظر إلى سيفه فأعطاه السيف فلما أخذه وهزّه قال: يا محمّد أما تخافني. قال: لا قال: أما تخافني وفي يدي السيف؟ قال: لا، يمنعني الله منك. فردّ السيف إليه. وأصاب المسلمون امرأة منهم وكان زوجها غائباً، فلما أتى أهله أخبر الخبر فحلف لا ينتهي حتّى يهرق في أصحاب النبيّ ﷺ دماً. وخرج يتبع أثر رسول الله

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦٦ - ٦٧.

ﷺ فنزل رسول الله ﷺ فقال: من يحرسنا الليلة؟ فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار فأقاما بفم شِعب نزله رسول الله ﷺ. واضطجع المهاجري وحرس الأنصاري أول الليل وقام يصلي، وجاء زوج المرأة فرأى شخصه فعرف أنه ربيئة القوم[1] فرماه بسهم، فوضعه فيه فانتزعه وثبت قائماً يصلي. ثمّ رماه بسهم آخر فأصابه فنزعه وثبت يصلي. ثمّ رماه بالثالث فوضعه فيه فانتزعه، ثمّ ركع وسجد، ثمّ أيقظ صاحبه وأعلمه فوثب. فلمّا رآهما الرجل علم أنهما عَلِما به. فلما رأى المهاجري ما بالأنصاري قال: سبحان الله ألا أيقظتني أول ما رماك. قال: كنتُ في سورة أقرأها فلم أحب أن أقطعها، فلما تابع عليّ الرمي أعلمتُك وأيم الله لولا خوفي أن أُضَيِّع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها».

**الدروس المستقاة:**

١ - كان النبيّ ﷺ يعيّن قائداً للمدينة عندما يخرج على رأس المسلمين في إحدى الغزوات، وذلك كي لا يحصل فراغ في السلطة وفي القيادة فيختلف الناس على الرئاسة.

من جهة أخرى، وخلال جميع المعارك التي قادها النبيّ ﷺ، طبّق المسلمون قاعدة استراتيجية مهمّة هي: «وحدة القيادة». فجميع الوحدات والمفارز العسكرية الإسلامية التي كانت تجتمع للقتال تحت راية الإسلام، كان يقودها النبيّ ﷺ بنفسه فيما كان أعداء الإسلام يخوضون القتال غالباً دون أن يجمعهم قائد واحد تحت رايته.

٢ - دأب النبيّ ﷺ على تعيين حرس للمراقبة ليلاً عندما كان المسلمون يتوقّفون للإستراحة أو لنصب معسكر لهم. وهذا ما جنّبهم غالباً المفاجآت العسكرية التي قد تحصل عند انعدام هذه المراقبة.

إلاّ أن ما يدعو إلى الإعجاب هو تصرّف الخفير الذي كان يصلّي وأصيب مرات عدّة فرفض وقف الصلاة لمواجهة خصمه. إلاّ أن في هذا التصرّف مجازفة كبرى، إذ ان هذا

(١) ربيئة: طليعة.

الخفير مسؤول، ليس فقط عن حمايته الشخصية، إنما وخاصة عن حماية المسلمين المستسلمين إلى الرقاد. لذلك اعتبر الجهاد أحياناً أهم من الصلاة.

### ز - غزوة بدر الثانية:

في هذه الغزوة يظهر دور مهم لجاسوس اسمه نُعيم بن مسعود الأشجعي استعمله أبو سفيان لتثبيط همم المسلمين بعد أن قرّر الرسول ﷺ الاجتماع بأبي سفيان إثر غزوة ذات الرقاع.

كتب الطبري عن تفاصيل هذه الغزوة ما يلي:(١)

«حدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سَلَمة، عن ابن إسحاق، قال: لما قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة من غزوة ذات الرّقاع، أقام بها بقيّة جمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجب، ثمّ خرج في شعبان إلى بدر لميعاد أبي سفيان حتّى نزله، فأقام عليه ثماني ليال ينتظر أبا سُفيان. وخرج أبو سُفْيان في أهل مكّة، حتّى نزل مَجَنّة من ناحية مرّ الظّهْران - وبعض الناس يقول: قد قطع عُسفان - ثمّ بدا له الرجوع، فقال: يا معشر قريش، إنّه لا يصلِحكم إلاّ عامٌ خِصْب ترعوْن فيه الشجر، وتشربون فيه اللّبن؛ وإنّ عامكم هذا عام جَدْب؛ وإنّي راجع فارجعوا. فرجع ورجع الناس، فسمّاهم أهل مكّة جيش السَّويق. يقولون: إنّما خرجتم تشربون السَّويق.

وأمّا الواقديّ؛ فإنه ذكر أن رسول الله ﷺ نَدَب أصحابه لغزوة بدْر لموعد أبي سفيان الذي كان وعده الالتقاء فيه يوم أحُد رأس الحوْل للقتال في ذي عقدة. قال: ونُعَيم بن مسعود الأشْجَعيّ قد اعتمر، فقدم على قريش، فقالوا: يا نُعيم، من أين كان وجهك؟ قال: مِنْ يثرب، قال: وهل رأيتَ لمحمّد حركة؟ قال: تركته على تعبئة لغزوكم، - وذلك قبل أن يسلِم نعيم - قال: فقال أبو سفيان: يا نُعيم، إنّ هذا عام جَدْبٌ، ولا يصلحنا إلاّ عامٌ ترعى فيه الإبل الشجر، ونشرب فيه اللبن، وقد جاء أوان موعد محمّد، فالحق بالمدينة

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٨٧ - ٨٨.

فثبِّطهم وأعلمهم أنّا في جمع كثير، ولا طاقة لهم بنا؛ فيأتي الخُلْف منهم أحبّ إليّ من أن يأتي من قبَلنا، ولك عشر فرائض أضعها لك في يد سُهيل بن عمرو يضمنُها. فجاء سهيل بن عمرو إليهم، فقال نعيم لسهيل: يا أبا يزيد، أتضمن هذه الفرائض وأنطلق إلى محمّد فأثبِّطه؟ فقال: نعم، فخرج نُعيم حتّى قدم المدينة؛ فوجد الناس يتجهّزون، فتدسّس لهم، وقال: ليس هذا برأي، ألم يُجرح محمّد في نفسه! ألم يقتل أصحابه! قال: فثبَّط الناس؛ حتّى بلغ رسولَ الله ﷺ، فتكلّم، فقال، والّذي نفسي بيده، ربما لو لم يخرج معي أحد لخرجت وحدِي.

ثمّ أنهجَ الله عزّ وجلّ للمسلمين بصائرهم؛ فخرجوا بتجارات، فأصابوا الدّرهم درهمين؛ ولم يلقوْا عدُوّاً؛ وهي بَدْر الموعد؛ وكانت موضع سوق لهم في الجاهلية، يجتمعون إليها في كلّ عام ثمانية أيام.

قال أبو جعفر: واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة عبد الله بن رَوَاحة».

**الدروس المستقاة:**

١ - تراجع أبو سفيان عن المواجهة العسكرية للمسلمين لأسباب تموينية ولوجستية.

فالقائد المتبصّر يأخذ المعطيات اللوجستية بعين الاعتبار عند تحضير خطة مناورته العملانية. وعندما يصبح تموين الجيش متعذّراً ينبغي اللجوء إلى خطة بديلة، استناداً للمبدأ الاستراتيجي الذي ينصّ على أنه «إذا قالت اللوجستية لا، فعلى القائد تغيير خطته العملانية».

ولنا في التاريخ العسكري أمثلة عديدة فشلت فيها الجيوش في تنفيذ مهماتها لأسباب لوجستية، نذكر منها:

- هزيمة رومل في صحراء ليبيا بسبب عدم إرسال النجدات والتموين إليه من ألمانيا،

- استسلام مجموعة جيوش فون باوليس الألمانية في ستالنغراد عندما أصبح أمر تموينها متعذّراً.

٢ - استعمل أبو سفيان أحد جواسيسه لتثبيط همم المسلمين عن القتال، وقد نجح في مهمّته.

والجاسوسية عرفت منذ الحروب الأولى وطبقت قواعدها بنجاح من قبل كبار الاستراتيجيين. فجنكيزخان، على سبيل المثال، وقبل مهاجمته لمملكة الشاه محمّد، عمد إلى إرسال الجواسيس المغول إلى خوارزم مستترين بزي التجار، وقام هؤلاء بدراسة وافية عن أوضاع هذه المملكة التي غزاها جنكيزخان بعد ذلك فاحتلها ودمّر مدنها.

حالياً، تخصص الجيوش مبالغ طائلة لإقامة شبكة تجسّس كاملة وفاعلة تنقل إليها جميع المعلومات المتوفّرة عن خصمها تمهيداً للقتال ضدّه. كما يكلّف الجواسيس أيضاً بتسريب معلومات خاطئة عن الجيوش الصديقة إلى العدو، وبثّ الشائعات في صفوفه للتأثير في معنويات جنده.

# الفصل السابع
# غزوات السنة الخامسة للهجرة

رأينا ان السنة الرابعة للهجرة لم تشهد معارك كبرى بين المسلمين وأهل قريش رغم أنه وقعت خلالها فاجعة بئر معونة. إلاّ أن هذه السنة شهدت خروج قبيلة بني النضير اليهودية من المدينة ومصادرة النبي ﷺ لأرزاق أفرادها وتوزيعها على المهاجرين، مما ساعدهم على البقاء كونهم كانوا قد تركوا أرزاقهم في مكّة وهاجروا مع الرسول ﷺ.

أما السنة الخامسة للهجرة، فإنها ستشهد خروج القبيلة اليهودية الثالثة من المدينة وهي قبيلة بني قريظة، كما ستشهد أحداثاً كبرى كمعركة الخندق التي برز فيها سلمان الفارسي، وغزوة دومة الجندل.

وهنا لا بدّ من توضيح قضية إخراج القبائل اليهودية من المدينة. فهذه القبائل لم تنسجم بتاتاً مع المسلمين ومبادئهم رغم أن الدعوة النبوية الشريفة كانت تنادي بعبادة الله الواحد والعودة عن عبادة الأصنام، الأمر الذي فهمته الجماعات النصرانية في شبه الجزيرة العربية بعكس الجماعات اليهودية التي حاربت النبيّ ﷺ وحاولت إفشال دعوته السماوية.

فبعد كلّ معركة مع قريش، كان يظهر للرسول أن إحدى القبائل اليهودية عملت ضدّه. وأولى هذه القبائل كانت قبيلة بني قينقاع التي نقضت الإتفاق معه وحاربته في المدّة الزمنية بين بدر وأحد. القبيلة الثانية التي خانته هي قبيلة بني النضير التي تآمر أفرادها على اغتياله في السنة الرابعة للهجرة.

وفي السنة الخامسة، أكمل بنو قريظة سلسلة الخيانات فأكمل الرسول ﷺ إخراج جميع اليهود من المدينة. وهذا ما سنفصّله لاحقاً.

**أ - غزوة دومة الجندل:**

في بداية السنة الخامسة حصلت غزوة دومة الجندل. وسببها أن النبيّ ﷺ أُبلغ أن جمعاً من المشركين قصدوا دومة الجندل وراحوا يعتدون على المارّة. وبين هذه الجموع كان عدد من بني النضير الذين طردهم الرسول ﷺ من المدينة بعد محاولتهم اغتياله. كما أن جماعة من بني النضير كانوا قد بدأوا يؤلّبون قريشاً وقبائل غطفان لمحاربة المسلمين.

لذلك قرّر الرسول ﷺ تنفيذ غزوة دومة الجندل التي نقل أخبارها ابن كثير فكتب:(١)

« أراد رسول الله ﷺ أن يدنو إلى أداني الشام، وقيل له إن ذلك مما يُفْزع قيصر. وذكر له أن بدومة الجندل جمعاً كبيراً وأنهم يظلمون من مرّ بهم، وكان لها سوق عظيم وهم يريدون أن يدنوا من المدينة. فندب رسول الله ﷺ الناس فخرج في ألف من المسلمين، فكان يسير الليل ويكمن النهار، ومعه دليل له من بني عُذْرَة يقال له مذكورٌ. فلمّا دنا من دومة الجندل أخبره دليله بسوائم(٢) بني تميم، فسار حتّى هجم على ماشيتهم ورعائهم فأصاب من أصاب، وهرب من هرب في كلّ وجه. وجاء الخبر أهل دومة الجندل فتفرّقوا، فنزل رسول الله ﷺ بساحتهم فلم يجد فيها أحداً، فأقام بها أياماً، وبثّ السرايا ثمّ رجعوا. وأخذ محمّد بن سلمة رجلاً منهم فأتى به رسول الله ﷺ، فسأله عن أصحابه فقال هربوا أمس، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام فأسلم، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة».

وخلال هذه الغزوة استعمل النبيّ ﷺ على المدينة سباع بن عُرفُطة الغفاري.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٠.

(٢) السوائم: الماشية.

- الدروس المستقاة:

١ - نفّذ النبيّ ﷺ هجوماً استباقياً على دومة الجندل هدف إلى:

- منع المجتمعين فيها من الاقتراب من المدينة بحيث يمكنهم شنّ غارات عليها.

- الاقتراب من حدود الامبراطورية البيزنطية لتهديدها والتأثير في معنويات قادتها.

- تأديب الخارجين عن القانون وخاصة بنو النضير الذين خرقوا اتفاقهم مع المسلمين.

والهجوم الاستباقي ينفذه جيش لاستباق عمل عسكري يحضّره خصمه ضدّه.

٢ - عمد الرسول ﷺ إلى السير بجيش المسلمين ليلاً وإقامة كمين نهاراً.

وهذه الاستراتيجية تهدف عادة إلى عدم لفت أنظار العدو، بل مفاجأته بالهجوم عليه فيما هو غير متحضرٍ للقتال، وذلك تأميناً لمبدأ الحرب الثاني أيّ «حرية العمل».

وبالفعل، فاجأت قوة المسلمين المجتمعين في دومة الجندل وصادرت ماشيتهم وفرّقت جموعهم فنجحت في مهمّتها.

٣ - بغية عدم انحراف القوّة عن الطريق المؤدّية إلى هدفها، استعمل النبيّ ﷺ دليلاً موالياً قادها مباشرة إلى دومة الجندل رغم أن الانتقالات كانت تحصل ليلاً. وهكذا أحسن تطبيق قواعد اختيار الزمان والمكان المناسبين للعملية العسكرية.

**ب - معركة الخندق أو الأحزاب:**

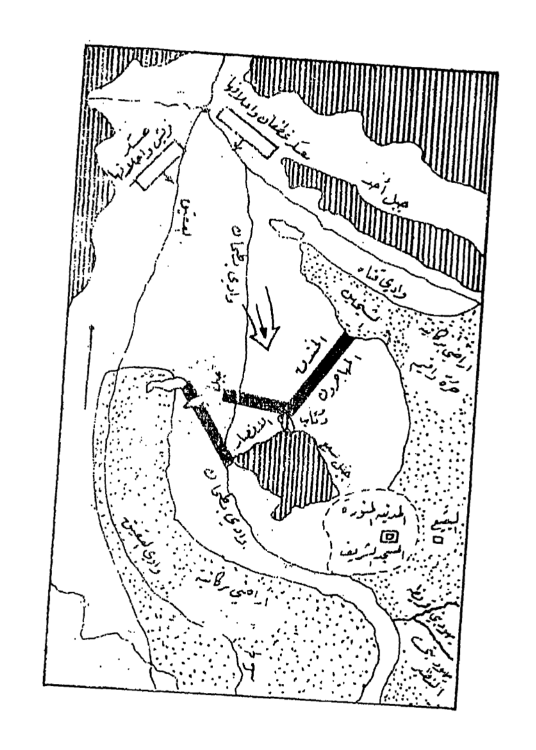
حصلت معركة الخندق في شوال من السنة الخامسة للهجرة[١]، وسببها أن مجموعة من يهود بني النضير ألّبوا الأحزاب على النبي ﷺ ودعوهم إلى محاربة المسلمين. كما أن قبائل العرب، لما رأوا انتصار قريش في أُحد، انضموا إلى أهل مكّة ورغبوا في محاربة المسلمين، وفيهم غطفان وقريش وسائر قبائل العرب وبنو النضير. لذلك عرفت هذه المعركة بواقعة الأحزاب.[٢]

---

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣١٣.

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٣١، ص ٥٧.

## خارطة معركة الخندق



كتب الطبري عن أسباب المعركة:[1]

«كان من حديث الخندق أنّ نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحُقَيق النَّضَريّ، وحيي بن أخطب النضري، وكنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيق النَّضَريّ، وَهَوْذَة بن قيس الوائليّ، وأبو عمّار الوائليّ؛ في نفر من بني النّضِير ونَفَر من بني وائل؛ هم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، خرجوا حتّى قدموا على قريش بمكّة؛ فدَعَوْهم إلى حرْب رسول الله ﷺ، وقالوا: إنّا سنكون معكم عليه حتّى نستأصله، فقالت لهم قريشٌ: يا معشَر يهود؛ إنّكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفدينُنا خيرٌ أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خيرٌ من دينه، وأنتم أولَى بالحقّ منه. قال: فهم الذين أنزل الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾،[2] إلى قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾.[3]

فلمّا قالوا ذلك لقريش، سرّهم ما قالوا ونشِطوا لما دعوْهم إليه من حرْب رسول الله ﷺ، فأجمعوا لذلك واتّعدوا له.

ثمّ خرج أولئك النّفر من يهود حتّى جاؤوا غَطَفان من قيْس عَيْلان فدعوْهم إلى حَرْب رسول الله ﷺ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه؛ وأنّ قريشاً تابعوهم على ذلك وأجمعوا فيه، فأجابوهم».

وهكذا أقام أعداء المسلمين حلفاً سياسياً عسكرياً يهدف إلى غزو المدينة والقضاء على المسلمين فيها. وقيل: أن المؤتمرين اتصلوا بيهود بني قريظة واتفقوا معهم على مساندتهم من داخل المدينة عند بدء المعركة.

**١ - القوى المتقابلة:**

- قوى المسلمين من أنصار ومهاجرين، من جهة.

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٩٠ - ٩١.

(٢) النساء: ٥١.

(٣) النساء: من الآية ٥٥.

- من جهة أخرى:
- قريش بكلّ رجالها وطاقاتها.
- يهود بني النضير.
- يهود بني قريظة الذين ينضمون إلى المهاجرين فور وصولهم إلى مشارف المدينة.
- قبائل عربية أبرزها غطفان ومُرَّة وسعد وأسد وأشجع.

## ٢ - التحضير للمعركة:

قضت خطة قريش بمهاجمة المدينة واحتلالها، لذلك خرجت قريش وقائدها أبو سفيان، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة من فزارة، والحارث بن عوف من مُرَّة ومِسعر بن رُخَيلة بن نويرة من أشجع.[١]

وهكذا أخذ المشركون يستعدون لشن أكبر حملة عسكرية في تاريخ شبه الجزيرة العربية ضد المسلمين.

أما تحضيرات المسلمين فقد أوجزها ابن الأثير الذي كتب:[٢]

«فلما سمع بهم رسول الله ﷺ أمر بحفر الخندق وأشار به سَلْمَان الفارسي وكان أول مشهد شهده مع رسول الله ﷺ وهو يومئذ حُرّ، فعمل فيه رسول الله ﷺ رغبة في الأجر وحَثًّا للمسلمين. وتسلل عنه جماعة من المنافقين بغير علم رسول الله ﷺ فأنزل الله في ذلك: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِيْنَ يَتَسَلَّلُون مِنْكُم لِواذاً﴾.[٣] وكان الرجل من المسلمين إذا نابته نائبة لحاجة لا بدّ منها يستأذن رسول الله ﷺ فيقضي حاجته ثمّ يعود. وقسم الخندق بين المسلمين فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان كُلٌّ يدعيه أنّه منهم، فقال رسول الله ﷺ: «سلمان منّا سلمان منّا أهل البيت».[٤]

وجعل لكلّ عشرة أربعين ذراعاً فكان سلمان وحذيفة والنعمان بن مُقَرِّن، وعمرو بن عوف وستة من الأنصار يعملون فخرجت

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٣.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٧٠ - ٧١.
(٣) النور: من الآية ٦٣.
(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق ٦/٢٠٠.

عليهم صخرة كسرت المِعْوَل فأعلموا النبيّ ﷺ فهبط إليها ومعه سلمان فأخذ المعول وضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتي المدينة حتّى لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم فكبّر رسول الله ﷺ والمسلمون. ثمّ الثانية كذلك، ثمّ الثالثة كذلك ثمّ خرج وقد صدعها، فسأله سلمان عمّا رأى من البرق فقال رسول الله ﷺ: أضاءت الحيرة وقصور كسرى في البرقة الأولى، وأخبرني جبريل أنّ أمّتي ظاهرة عليها. وأضاء لي في الثانية القصور الحُمْر من أرض الشام والروم وأخبرني أنّ أمّتي ظاهرة عليها. وأضاء لي في الثالثة قصور صنعاء وأخبرني أنّ أمّتي ظاهرة عليها فأبشروا. فاستبشر المسلمون وقال المنافقون: ألا تعجبون يعدكم الباطل، ويخبركم أنّه ينظر من يثرب الحيرة، ومدائن كسرى، وإنها تُفتَح لكم، وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا فأنزل الله ﴿وَإِذ يَقُولُ المُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إلاَّ غُرُوراً﴾[1] فأقبلت قريش حتّى نزلت بمجتمع الأسيال من رَومة بين الجرف وزغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من كنانة وتهامة. وأقبلت غطفان ومن تابعهم حتّى نزلوا إلى جنب أحد وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون فجعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف فنزل هناك، ورفع الذراريّ والنساء في الآطام».

وهكذا يظهر، وفق ابن الأثير والطبري والمسعودي وابن كثير وغيرهم، أن سلمان الفارسي هو الذي أشار بشق الخندق حول المدينة. وسبب ذلك قوّة المهاجمين وكثرة عددهم بالنسبة لعدد المقاتلين من المسلمين داخل المدينة. وبالفعل شق الخندق حول المدينة، علاوة على أنّها محصنة بالجبال من مختلف الجوانب ويصعب على الجيش اختراق جبالها التي تشكّل سدّاً وعقبة أمام تقدّمه.

ويظهر أن الرسول ﷺ هو أول من أخذ المعول وضرب الضربة الأولى لشق الخندق. كما أنه راح يحث المسلمين لإنهاء حفر

---

(١) الأحزاب: ١٢.

الخندق قبل وصول جيوش المشركين أمام المدينة.

وكثر المنافقون الذين راحوا ينظرون إلى ذلك العمل نظرة عدم ثقة فأنزل الله تعالى قوله فيهم:(١)

﴿إنَّما المؤْمِنون الذين آمَنُوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أَمْرٍ جامعٍ لم يَذْهَبُوا حتّى يَسْتَأْذِنُوه إنَّ الذين يَسْتَأذنوكَ أُولَئِك الذين يُؤْمِنُون بالله ورسولِه فإذا اسْتَأذنوكَ لبعض شَأنهم فَأْذنْ لِمَن شِئْتَ منهم واستغفر لهم الله إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحيم * لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يَعْلَم اللَّهُ الَّذين يَتَسلَّلُون منكم لواذاً فَلْيَحْذَر الّذِينَ يُخالِفُون عن أَمْرِه أن تُصيبَهم فِتنَةٌ أَو يصيبَهُم عَذابٌ أَليمٌ﴾.

في المقابل ساهمت النساء في العمل، إذ أنهنّ كن يحضّرن الطعام ويرسلنه مع أولادهن إلى المسلمين الذين يحفرون الخندق.

وأخيراً، ولمّا بلغت أسماع المسلمين أنباء وصول قريش إلى مشارف المدينة، كان حفر الخندق قد انجز، وكان عدد الذين يحفرون فيه ثلاثة آلاف.

كتب الطبري يصف وصول جيش المشركين وتحضيرات المسلمين للمجابهة:(٢)

«حدّثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق قال: كان أهلُ الخندق ثلاثة آلاف. قال: ولمّا فرغ رسولُ الله ﷺ من الخندق، أقبلت قريش حتّى نزلت بمجتمع الأسيال من رومَة بين الجُرُف والغابة، في عشرة آلاف من أحابيشِهم، ومَنْ تابعهم من كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غَطَفان ومَنْ تابعهم من أهل نجْدٍ؛ حتّى نزلوا بذَنب نَقَمَى إلى جانب أُحُد.

وخرج رسولُ الله ﷺ والمسلمون؛ حتّى جعلوا ظهورهم إلى سَلْع، في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هنالك عسكره، وأمر بالذراريّ والنساء. فرفعوا في الآطام.

فلمّا انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبر وإلى المسلمين، بعث رسولُ الله ﷺ سعد بن مُعاذ بن النعمان بن امرىء القيس أحد بني عبد الأشهل - وهو يومئذٍ سيّد

(١) النور: ٦٢ - ٦٣.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٩٣ - ٩٤.

الأَوْس – وسعد بن عبادة بن دُلَيم، أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج – وهو يومئذ سيِّد الخَزْرج – ومعهما عبدُ الله بن رَواحة أخو بلْحارث بن الخزرج، وخَوَّات ابن جُبَير، أخو بني عمرو بن عوف؛ فقال: انْطلِقُوا حتّى تنظروا: أحقّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقّاً فالحنوا لي لَحْناً نعرفه، ولا تَفُتُّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس.

فخرجوا حتّى أتوْهم فوجدوهم على أخبث ما بلَغَهم عنهم».

**٣ - الحصار:**

عقد لواء قريش في دار الندوة لعثمان بن طلحة، وانضم إليها بطون غطفان وغيرهم من فزارة. وبلغ عدد مقاتليها ألفاً، وبنو مُرّة أربعمائة مقاتل، وبنو أشجع أربعمائة مقاتل، وبنو سُليم سبعمائة، إضافة إلى بني أسد وبني النضير، وإلى أربعة آلاف راجل وألف وخمسمائة راكب على الجمال وثلاثمائة فارس من قريش. وهكذا بلغ عدد جيوش المشركين عشرة آلاف.[١]

وصلت هذه القوات إلى مشارف المدينة ففوجئت بوجود الخندق الذي لم تكن القبائل العربية قد تعوّدت على أسلوب قتاله. فنزلت في مكان مقابل للخندق اسمه «مجمع الأسيال»،[٢] على مشارف المدينة حيث أمر أبو سفيان فضربت القباب والخيام. وهكذا بدأ الحصار.

أما رسول الله ﷺ، فقد خرج إلى الخندق على رأس ثلاثة آلاف من المسلمين وأمر بضرب الخيام في منطقة يقال لها «سَلع» حيث نصبت قبة خاصة به حمراء اللون.[٣]

وقام الرسول ﷺ بإجلاء المسلمين الذين تقع منازلهم وراء الخندق ووزعهم على حصون المدينة وبيوتها، كما وزع مقاتليه صفوفاً منظّمة خلف الخندق، وغالبيتهم من الرماة. ووقف الفرسان خلفهم.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٠٣.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٧١.

(٣) المرجع نفسه.

وهكذا تقابل الجيشان المشاركان في معركة الخندق، لا يفصل بينهما سوى الخندق الذي اعتبر من الحواجز التي كان يستحيل اجتيازها في ذلك الحين. لذلك اكتفى الجيشان، في بدء المواجهة، بتبادل السهام.

**٤ - موقف بني قريظة:**

- أدرك أبو سفيان استحالة اقتحام الخندق فعمد إلى تحريك بني قريظة اليهود داخل المدينة، فأرسل حيي بن أخطب إلى رئيسهم كعب بن أسد الذي كان قد عاهد النبيّ ﷺ بعدم الاعتداء. لكن حيي أقنع كعباً بنقض حلفه مع الرسول ﷺ.

علم النبيّ ﷺ بنقض كعب للحلف فأرسل سيد قبيلة الأوس سعد بن معاذ، وسيد قبيلة الخزرج سعد بن عبادة، وسيد بني عمرو بن عوف خوّات بن جبير إليه لاستطلاع الخبر، فعادوا بالخبر اليقين عن صحّة نقض العهد.

نقل ابن كثير رواية نقض العهد من قبل بني قريظة فكتب:[١]

«قال ابن إسحاق: فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذّروة والغارب حتّى سمع له. يعني في نقض عهد رسول الله ﷺ وفي محاربته مع الأحزاب. على أن أعطاه حيي عهد الله وميثاقه لئن رجعت قُرَيش وغَطْفان ولم يصيبوا محمّداً أن أدخل معك في حصنك حتّى يصيبني ما أصابك. فنقض كعب بن أسد عهده وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ. قال موسى بن عقبة: وأمر كعب بن أسد وبنو قُرَيظة حُيي بن أخطب أن يأخذ لهم من قريش وغطفان رهان تكون عندهم لئلا ينالهم ضيم إن هُم رجعوا، ولم يناجزوا محمّداً. قالوا: وتكون الرهائن تسعين رجلاً من أشرافهم. فنازلهم حُيي على ذلك. فعند ذلك نقضوا العهد ومزّقوا الصحيفة التي كان فيها العقد إلاّ بني سعنة أسد وأُسَيد وثعلبة، فإنهم خرجوا إلى رسول الله ﷺ. قال ابن إسحاق: فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين بعث سعد بن مُعاذ وهو يومئذٍ سيّد الأوس، وسعد بن عبادة وهو يومئذ سيّد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير قال:

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١١٢ - ١١٣.

«انْطَلِقُوا حتّى تَأْتُوا هَؤُلاَءِ القَوْمَ فَتَنْظُرُوا أَحَقّ ما بَلَغَنَا عَنْهُمْ، فَإِنْ كَانَ حَقّاً فَالْحَنُوا لِي لَحْناً أَعْرِفُهُ[1] وَلاَ تَفُتُّوا فِي أَعْضَادِ المُسْلِمِينَ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى الوَفَاءِ فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنَّاسِ». قال: فخرجوا حتّى أتوهم. قال موسى بن عقبة، فدخلوا معهم حصنهم فدعوهم إلى الموادعة وتجديد الحلف فقالوا: الآن وقد كسر جناحنا وأخرجهم (يريدون بني النّضير) ونالوا من رسول الله ﷺ. فجعل سعد بن عبادة يشاتمهم، فأغضبوه فقال له سعد بن مُعَاذ: إنا والله ما جئنا لهذا، ولما بيننا أكبر من المشاتمة. ثمّ ناداهم سعد بن معاذ فقال: إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم يا بني قُرَيظة، وأنا خائف عليكم مثل يوم بني النّضير أو أمرٌ منه. فقالوا: أكلت أير أبيك. فقال: غير هذا القول، كان أجمل بكم وأحسن. وقال بن إسحاق: نالوا من رسول الله ﷺ وقالوا مَن رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمّدٍ [ولا عقد]. فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه، وكان رجلاً فيه حدّة فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم لما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة. ثمّ أقبل السّعدان ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلّموا عليه ثمّ قالوا: عضل والقارَةُ أي؛ كغدرهم بأصحاب الرّجيع خُبَيْب وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ».

وانتشر خبر نقض بني قريظة للعهد، فسادت حالٌ من الذعر أوساط المسلمين. لكن الرسول ﷺ رفع رأسه وقال: «ابشروا بفتح الله ونصره»،[2] فعادت الحمية إلى صفوفهم رغم بعض مواقف التخاذل وانسحاب أوس بن قيظي وقومه.[3]

إلاّ أن غالبية جيش المسلمين كانت تريد القتال وقد تكلّم باسمهم سعد بن معاذ سيّد قبيلة الأوس فقال:[4]

---

(١) اللحن: يعني هنا اللغز - وهنا - يخالف ظاهر الكلام معناه.

(٢) ابن كثير، المرجع نفسه.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٩٤.

(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٩٤.

«يا رسول الله... والله لا نعطيهم إلاّ السيف حتّى يحكم الله بيننا وبينهم». فقال رسول الله ﷺ: «فأنت وذاك!».

وهكذا ثبت المسلمون في مجابهتهم قريش رغم الحصار الشديد ورغم نقض اليهود من بني قريظة عهدهم معهم وقطعهم المواد الغذائية عن الجيش الاسلامي وتهديدهم بحرق المحاصيل الزراعية.

**٥ - القتال:**

كما سبق القول بدأت المعركة برمي النبال بين الجانبين. وبقي الوضع هكذا والمشركون يحاصرون المسلمين بضعة وعشرين ليلة. إلاّ أن فرساناً من قريش جالوا بالخندق يبحثون عن ثغرة لمهاجمة المسلمين، فشاهدوا مكاناً يمكن للخيول الوثوب فوقه إلى الجهة الأخرى يقال له «السبخة»، فصمموا على اقتحام الخندق.(١)

تصدّى لهم المسلمون وبارز علي بن أبي طالب «عمرو بن وُد» وقتله. كما قُتل آخران من المشركين.

**المرحلة الأولى - محاولة اقتحام الخندق:**

روى الطبري هذه المرحلة من المعركة فكتب:(٢)

«فأقام رسول الله ﷺ والمسلمون وعدوّهم محاصروهم؛ لم يكن بينهم قتال إلاّ أنّ فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد وُدّ بن أبي قيس، أخو بني عامر بن لُؤيّ، وعِكْرمة ابن أبي جهل وهُبَيْرة بن أبي وهب المخزوميّان، ونَوْفَل بن عبد الله، وضِرَار بن الخَطّاب بن مرداس، أخو بني محارب بن فِهْر؛ قد تلبّسوا للقتال، وخرجوا على خيلهم، ومرّوا على بني كِنانة، فقالوا: تهيّئوا يا بني كنانة للحرب؛ فستعلمون اليوم مَن الفرسان! ثمّ أقبلوا نحو الخندق؛ حتّى وقفوا

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٧٢.
وابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١١٤.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٩٤ - ٩٥.

عليه، فلمّا رأوه قالوا: والله إنّ هذه لمكيدةٌ ما كانت العرب تكيدها؛ ثمّ تيمّموا مكاناً من الخندق ضيّقاً، فضربوا خيولهم، فاقتحمت منه؛ فجالت بهم في السبخة بين الخنْدق وسَلْع. وخرج عليّ بن أبي طالب في نَفَر من المسلمين؛ حتّى أخذ عليهم الثُّغْرَةَ التي أقْحَمُوا منها خَيلَهم، وأقبلت الفرسان تُعْنِقُ نحوهم. وقد كان عمرو بن عبد وُدّ قاتل يوم بدر؛ حتّى أثبتتْه الجراحة، فلم يشهد أحداً، فلما كان يوم الخندق خرج مُعْلِماً ليُرى مكانُه؛ فلمّا وقف هو وخيله، قال له عليّ: يا عمرو؛ إنك كنت تعاهد الله ألاّ يَدْعُوك رجلٌ من قريش إلى خلّتَيْن إلاّ أخذتَ منه إحداهما! قال: أجَلْ! قال له عليٌّ بن أبي طالب: فإني أدعوك إلى الله عزّ وجلّ وإلى رسوله وإلى الإسلام، قال: لا حاجة لي بذلك؛ قال: فإني أدعوك إلي النِّزال، قال: ولِمَ يا ابن أخي؛ فوالله ما أحبّ أن أقتلك! قال عليّ: ولكني والله أحبُّ أن أقتلك. قال: فحمِيَ عَمْرو عند ذلك، فاقتحم عن فَرَسه فَعَقَرَهَ - أو ضَرَبَ وجْهَه - ثمّ أقبل على عليّ،فتنازلا وتجاولا، فقتله عليّ عليه السلام وخرج خيلُه منهزمة؛ حتّى اقتحمت من الخَنْدق هاربة. وقتِل مع عمرو رجلان: مُنَبّه بن عثمان بن عُبيد بن السَّبّاق بن عبد الدار، أصابه سهم فمات منه بمكّة؛ ومن بني مخزوم نوفل بن عبد الله بن المغيرة؛ وكان اقتحم الخندق فتورّط فيه، فرموْه بالحجارة، فقال: يا معشرَ العرب، قَتْلَة أحسن من هذه! فنزل إليه عليّ فقتله. فغلب المسلمون على جسده، فسألوا رسولَ الله ﷺ أن يبيعهم جسده، فقال رسول الله ﷺ: لا حاجة لنا بجسده ولا ثمنه؛ فشأنكم به. فخلّى بينهم وبينه».

لكن عكرمة بن أبي جهل هرب بمن معه من الفرسان.

### المرحلة الثانية - تحييد بني قريظة:

روى المؤرخون العرب رواية عن دور لعبه رجل من بني غطفان اسمه «نعيم بن مسعود» من أشجع، ساهم في منع اليهود من بني قريظة عن المشاركة في القتال ضدّ المسلمين. وكان نعيم قد أسلم وكتم إسلامه عن قومه الذين كانوا يشاركون في حصار المسلمين، فجاء الرسول ﷺ الذي كلّفه أن يحاول تحييد قبيلته وبني قريظة.

وتمكن نعيم من دفع بني قريظة إلى الحياد في رواية ننقلها عن ابن الأثير:[1]

«ثمّ إن نُعَيْم بن مسعود الأشجعي أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ﷺ إني قد أسلمت ولم يعلم قومي فمُرني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ إنما أنت رجلٌ واحد فخذّل عنا ما استطعت فإنّ الحرب خُدْعَة. فخرج حتّى أتى بني قريظة وكان نديماً لهم في الجاهلية فقال لهم: قد عرفتم وُدي إياكم. فقالوا: لست عندنا بمتهم. قال: قد ظاهرتم قريشاً وغطفان على حرب محمّد وليسوا كأنتم البلد بلدكم به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحوّلوا منه. وإنّ قريشاً وغطفان إن رأوا نُهزة[2] وغنيمة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين محمّد ولا طاقة لكم به إن خلا بكم. فلا تقاتلوا حتّى تأخذوا منهم رُهُناً من أشرافهم ثقة لكم حتّى تناجزوا محمّداً. قالوا: أشرت بالنُّصح.

ثمّ خرج حتّى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان ومن معه: قد عرفتم وُدّي إياكم وفراقي محمّداً، وقد بلغني أنّ قريظة ندموا، وقد أرسلوا إلى محمّد هل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثمّ نكون معك على من بقي منهم؟ فأجابهم أن نعم، فإن طلبت قريظة منكم رُهُناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً.

ثمّ خرج حتّى غطفان فقال: أنتم أهلي وعشيرتي، وقال لهم مثل ما قال لقريش وحذّرهم. فلمّا كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس كان من صنع الله لرسوله أن أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان وقالوا لهم: أنا لسنا بدارِ مُقَام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتّى نناجز محمّداً. فأرسلوا إليهم إنّ اليوم السبت لا نعمل فيه شيئاً، ولسنا نقاتل معكم حتّى تعطونا رُهُناً ثقة لنا، فإنا نخشى أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا والرجل ونحن ببلاده.

فلمّا أبلغتهم الرسل هذا الكلام قالت قريش وغطفان: والله لقد صدق نعيم بن

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٧٣ - ٧٤.

(٢) النُهزة: أي الفرحة.

مسعود، فأرسلوا إلى قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً، فقالت قريظة عند ذلك: إنّ الذي ذكر نعيم بن مسعود لَحَقّ. وخذل الله بينهم».(١)

**المرحلة الثالثة - نهاية المعركة: انسحاب المشركين:**

بعد تراجع بني قريظة عن المجابهة، وفشل جيش قريش وحلفائها في اقتحام الخندق، تراجع حماس أفراد هذا الجيش وضعفت معنوياتهم فأصبح من المنتظر إنهاء المعركة عند أي مفاجأة جديدة.

ففي إحدى الليالي، وبعد أن بلغ الحصار أشدّه وطال حتّى بلغ الشهر من الزمن، هبّت ريح شديدة تخلّلتها أمطار غزيرة مع رعود وبرق لم يكن سكّان شبه الجزيرة العربية قد تعوّدوها سابقاً. وقد اعتبر المؤمنون أنها رسالة من السماء إلى المشركين.

وبالفعل اقتلعت الرياح بعض الخيام وقلبت القدور وشعر المقاتلون ببرد شديد لم يكونوا متحضرين لمجابهته.

وصف الطبري تراجع جيش قريش وحلفائها وارتحاله عن المعركة وصفاً دقيقاً، فكتب:(٢)

«وبعث الله عزّ وجلّ عليهم الريح في ليالٍ شاتية شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم، وتَطْرح أبنيتهم. فلمّا انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم، وما فرّق الله من جماعتهم، دعا حُذيفة بن اليَمان، فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم ليلاً.

حدّثنا بن حميد، قال: حدّثنا سلمة، قال: حدّثني محمّد بن إسحاق، قال: حدّثنا يزيد بن زياد، عن محمّد بن كعب القُرظيّ؛ قال: قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليَمان: يا أبا عبد الله، رأيتم رسولَ الله وصحبتموه! قال: نعم يا ابن

---

(١) ان هذه الحادثة تذكر بدور الجاسوسية في الحروب الحديثة. ومما لا شك فيه أن المعارك التي خاضها المسلمون بقيادة النبيّ ﷺ أدخلت الكثير على الفن العسكري العربي كالمفاجأتين اللتين حصلتا في معركة الخندق وهما شق الخندق واستعمال الجاسوس نعيم في شق الصف المعادي.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٩٧ - ٩٨.

أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنّا نجهد، فقال الفتى: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا. فقال حذيفة: يا ابن أخي؛ والله لقد رأيتُنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، وصلّى هَوِيّاً من الليل، ثمّ التفت إلينا، فقال: مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثمّ يَرجع - يشرُط له رسولُ الله أنه يرجع - أدخله الله الجنّة؟ فما قام رجل. ثمّ صلّى رسولُ الله ﷺ هَوِيّاً من الليل، ثمّ التفت إلينا فقال مثله، فما قام منّا رجل، ثمّ صلّى رسولُ الله ﷺ هويّاً من الليل، ثمّ التفت إلينا، فقال: مَنْ رجُل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثمّ يرجع - يشرُط له رسولُ الله الرجعة - أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنّة؟ فما قام رجلٌ من القوم من شدّة الخوف وشدّة الجوع وشدّة البرد. فلمّا لم يقم أحدٌ دعاني رسولُ الله ﷺ فلم يكن لي بدّ من القيام حين دعاني. فقال: يا حذيفة؛ إذهب فادخل في القوم فانظر ما يفعلون، ولا تحدثنّ شيئاً حتّى تأتينا؛ قال: فذهبت فدخلتُ في القوم والريحُ وجنود الله تفعل بهم ما تفعل؛ لا تقرُّ لهم قِدْراً ولا ناراً ولا بناء. فقام أبو سفيان بن حرب، فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤٌ جليسه، قال: فأخذتُ بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: مَنْ أنت؟ قال: أنا فلان بن فلان. ثمّ قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنّكم والله ما أصبحتم بدار مُقام، لقد هلك الكُراع والخُفّ، وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره؛ ولقينا من هذه الريح ما ترْون؛ والله ما تطمئنّ لنا قدْرٌ، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناءٌ؛ فارتحلوا فإني مرتحل.

ثمّ قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثمّ ضربه فوثب به على ثلاث؛ فما أطلق عِقاله إلاّ وهو قائم؛ ولولا عهدُ رسول الله ﷺ إليّ الاّ أحْدِث شيئاً حتّى آتيه، ثمّ شئت لقتلتُه بسهم. قال حذيفة: فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ، وهو قائم يصلّي في مِرْط لبعض نسائه مُرَحَّل؛ فلمّا رآني أدخلني بين رجليه وطرح عليّ طرف المِرْط ثمّ ركع وسجد؛ فأذْلَقْتُه. فلمّا سلّم أخبرتُه الخبر. سمعت غطفان بما فعلتْ قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم.

حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حدّثني محمّد بن إسحاق قال: فلمّا

أصبَح نبيّ الله ﷺ انصرف عن الخندَق راجعاً إلى المدينة والمسلمون ووضعوا السلاح».

**٦ - الدروس المستقاة ونتائج المعركة:**

أ - شكّلت معركة الخندق منعطفاً في حرب الرسول ﷺ وقريش، إذ أنها جاءت بالتغييرات التالية:

- تراجع قريش عن مهاجمة المدينة بقصد احتلالها.

- خسارة المشركين المعركة.

- ارتفاع معنويات المسلمين مقابل تراجع في معنويات خصومهم.

- البدء في التفكير بنقل المعركة إلى مكّة نفسها.

- إخلاء المدينة من آخر قبائل اليهود (بنو قريظة) مما أبعَد الخطر الداخلي وخطر الحرب الأهلية والطابور الخامس من داخل صفوف المسلمين. كذلك مصادرة أملاك بني قريظة وتوزيعها على المسلمين.

- تكثيف الغزوات والسرايا بعد هذه المعركة وبدء التفكير بالفتوحات وإرسال الكتب إلى الملوك والحكّام في الشرق الأدنى ودعوتهم لاعتناق الإسلام ديناً.

فقد روي عن الرسول ﷺ قوله بعد تراجع قريش عن المدينة:

«الآن نغزوهم ولا يغزونا».(١)

وبقي الوضع كذلك حتّى فتح مكّة.

ب - لقد كانت معركة الخندق فاصلة بين المسلمين وأعدائهم إذ أن المبادرة بعدها ستصبح إلى جانب المسلمين الذين سينتقلون من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم التي تُوّجت بفتح مكّة. فأفضل وسائل الدفاع هو الهجوم الذي يؤمّن وحده النصر النهائي في الحرب.

كما أن الحملة التي شنّها المشركون ضد المدينة كانت أكبر حملة عسكرية في تاريخ شبه الجزيرة العربية ضد المسلمين، وقد باءت بالفشل ممّا حطّ من معنويات أعداء الإسلام واثّر سلباً في مخططاتهم العسكرية اللاحقة.

ج - رغم أن مبدأ الحرب الأول أي «نسبية الاهداف للوسائل» لم يكن في مصلحة المسلمين، فإن النبيّ عوّض عنه

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٧٤.

بتطبيق المبدأين الثاني: (حرية العمل) والثالث: (الحصيل الأقصى للوسائل). فالخندق الذي شُقّ في المنطقة الوحيدة التي كان بإمكان المشركين مهاجمة المدينة عبرها، فاجأهم وشكّل عقبة كأداء أمام تحرّكهم. وهكذا أفاد المسلمون من المفاجأة وحسن استعمال الأرض.

د - اعتمد الرسول ﷺ طريقة الدفاع المتحرّك فكانت قواته جاهزة باستمرار للتحرك باتجاه أي ثغرة وسدّها فوراً. والدفاع المتحرّك هو نموذج حيوي للدفاع يقترب من الهجوم الذي وحده يحقق النصر.

علاوة على ذلك، دأب الرسول ﷺ على إرسال الدوريات المنتظمة لمراقبة مجريات المعركة مراقبة مستمرّة وشاملة، الأمر الذي حرم المشركين من انتهاز أي فرصة.

هـ - ساهم في تحقيق النصر للمسلمين المعطيات الآتية:

- وحدة القيادة في وقت كان المشركون يقودهم قادة عديدون يلاحق كلّ منهم هدفه الخاص.
- المفاجأة التي حققها وجود الخندق.
- طريقة الدفاع المتحرّك التي اعتمدها المسلمون.
- تسيير دوريات منتظمة لتجنب المفاجآت.
- ثبات المسلمين واستماتتهم في الدفاع عن مدينتهم.
- سوء اختيار زمان المعركة من قبل المشركين، فقد كان الشتاء قاسياً في وقت لم يكن مقاتلوهم مؤهّلين للحرب في ظروف مناخية غير مؤاتية.
- الحرب النفسية التي خطط لها النبيّ ﷺ ونفّذها المسلمون والتي ساهمت في تفريق صفوف الأحزاب وزعزعة الثقة في نفوسهم.

أما الخسائر بالأرواح فكانت كما يأتي:

شهداء المسلمين:[١]

- ستة رجال هم سعد بن معاذ، أنس بن عتيك بن عمرو، عبد الله بن سهل من الأوس، والطفيل بن النعمان وثعلبة بن غنيمة من الخزرج، وكعب بن زيد من بني النجار.

قتلى المشركين:

- ثلاثة مقاتلين.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٢٥.

### ج - غزوة بني قريظة:

بعد تراجع قريش وحلفائها، عاد المسلمون إلى المدينة للاستراحة بعد شهر من القتال. إلاّ أن النبيّ ﷺ راح يفكّر في الوضع الداخلي للمدينة ووجود عدو داخلي فيها يهدد الخطوط الخلفية للمسلمين عند أي معركة جديدة. وهذا العدو من الطابور الخامس أصبح تركه داخل المدينة، المهدّدة بالحصار في كلّ لحظة، خطأً كبيراً. كما أن توحيد قوى المدينة قبل الانطلاق لغزو مكّة أو للفتوحات في سبيل نشر الدين أصبح ضرورة لا بدّ منها.

لذلك قرّر الرسول ﷺ الانتهاء من مشكلة بني قريظة وطردهم من منازلهم ومن كلّ أنحاء المدينة.

المؤرّخون العرب نقلوا خبر جبريل الذي جاء رسول الله ﷺ وحدّثه عن موضوع بني قريظة، ننقله عن الطبري الذي كتب:(١)

«فلمّا كانت الظُّهْر، أتى جبريلُ رسول الله ﷺ - كما حدّثنا ابن حُميد، قال: حدّثنا سَلَمة، قال: حدّثني محمّد بن إسحاق، عن ابن شهاب الزُّهريّ - معتجراً بعمامة من إستبرق، على بغْلة عليها رحَالة، عليها قطيفة من ديباج، فقال: أقد وضعت السِّلاح يا رسول الله؟ قال: نعم، قال جبريل: ما وضعتِ الملائكة السِّلاحَ وما رجعت الآن إلاّ من طلب القوم؛ إنّ الله يأمُرُك يا محمّد بالسَّير إلى بني قُريظة، وأنا عامد إلى بني قُريظة».

وهكذا أرسل النبيّ ﷺ منادياً في المدينة أن لا يصلّي أحدٌ العصر إلاّ في بني قريظة. وكان أول الواصلين إلى المسجد علي بن أبي طالب ومعه عدد من المسلمين، فسلّمه الرسول ﷺ راية المسلمين وأرسله باتجاه بني قريظة على أن يتبعه باقي المسلمين.

سار علي باتجاه بين قريظة وراح المؤمنون ينضمّون إليه حتّى دنا من حصونهم فسمعهم يشتمون الرسول ﷺ بأقبح الكلام وينفون عنه النبوة والرسالة...

عاد علي لإعلام الرسول ﷺ بذلك، فوجده في منتصف الطريق، وتابعا المسير في إتجاه حصون بني قريظة حيث حاول هؤلاء

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٩٨.

مراضاة النبيّ ﷺ الذي أبى محاسنتهم وحدّد مكاناً لاجتماع المسلمين تمهيداً لغزو بني قريظة بالقرب من ماء يدعى «أنا».(١)

وحاصرهم الرسول ﷺ خمساً وعشرين ليلة (وفق الطبري وابن كثير وابن الأثير) حتّى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرّعب. وعرض عليهم النبيّ ﷺ، بواسطة كعب بن أسد أحد الحلول الثلاثة التالية:(٢)

- الدخول في الإسلام،
- القتال،
- الإستسلام.

واستمرّ الحصار لبني قريظة حتّى أصابهم الهلع والتعب والخوف وأيقنوا أن الرسول ﷺ لن يفكّ الحصار عنهم حتّى ينزل فيهم حكمه.

أخيراً قَبِلَ بنو قريظة بحكم الله ورسوله ﷺ. وبعد مداولات عديدة قرّر الرسول ﷺ ما يلي:

- ضرب أعناق الرجال، وقدّر عددهم بستمائة رجل وقيل سبعمائة.
- سبي النساء وتوزيعهن على المسلمين.(٣)
- تقسيم الفيء(٤) من أرزاقهم بين المسلمين.

وهكذا زال بنو قريظة من الوجود.

نقل البلاذري حادثة بني قريظة كما يلي:(٥)

«قالوا: حاصر رسول الله ﷺ بني قُرَيظَة لليالٍ من ذي العقدة ولياٍل من ذي الحجّة سنة ٥ هـ فكان حصارهم خمس عشرة ليلة وكانوا ممّن أعلن على رسول الله ﷺ في غزوة

(١) الطبري، المرجع نفسه، جزء ٢، ص ٩٩.
وابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٢٩.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٩٩.
(٣) تزوّج النبيّ ﷺ إحدى نساء بني عمرو بن قريظة واسمها «ريحانة» بعد أن أسلمت.
(٤) الفيء ما غنمه المقاتلون من أملاك المشركين غير المنقولة.
(٥) البلادري، مرجع سابق، ص ٣٢ - ٣٣.

الخندق وهي غزوة الاحزاب. ثمّ أنّهم نزلوا علـى حُكْمه فحكّم فيهم سَعد بن معاذ الأوسي فحكم بقتل من جرت عليه المَواسِي وبسبي النساء والذُّرِّيَّة وأن يُقْسَم مالُهم بين المسلمين، فأجاز رسول الله ﷺ ذلك وقال لـقد حكمت بحكم الله ورسوله. حدَّثني عبد الواحد بن غِيَاث قال حدَّثنا حمَّاد بن سلمَة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنّ رسولُ الله ﷺ، لما فرغ من الأحزاب دخل مغتسلاً ليغتسل فجاءه جبريل فقال: يا محمد قد وضعتم أسلحتكم وما وضعنا أسلحتنا بعدُ. إنهض إلى بني قُريظة. فقالت عائشة: يا رسول الله لـقد رأيتُهُ من خَلَل الباب وقد عصب التُراب رأسَه. وحدَّثني عبد الواحد بن غِيَاث قال: حدَّثنا حمَّاد ابن سلمة عن أبي جعفر الخَطْمي عن عمَّارة بن خُزَيْمة عن كُثَيِّر بن السائب أنّ بني قريظة عُرِضوا على النبيّ ﷺ، فمن كان منهم محتلماً أو قد نبتت عانته قُتل، ومن لم يكن احتلم ولا نبتت عانته تُرِك. وحدَّثني وهب ابن بَقِيَّة قال حدَّثنا يزيد بن هارون عن هشام عن الحسن قال: عاهَدَ حُيَيّ بن اخطب رسول الله ﷺ على أن لا يظاهر عليه أحداً وجعل الله عليه كفيلاً فلمّا أُتِيَ به رسول الله ﷺ يوم قُرَيْظة وبابنه قال رسول الله ﷺ لقد أوفى الكفيل ثمّ أمر به فضُربت عنقه وعنق ابنه. حدَّثني بكر بن الهيثم قال: حدَّثنا عبد الرزَّاق عن مَعْمَر قال: سألت[1] الزُّهريّ هل كانت لبني قريظة أرض فقال سديداً قسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين على السهام. وحدّثني الحسين بن الأسود قال: حدّثنا يحيى بن ادم عن أبي بكر بن عيّاش عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبّاس قال: قسم رسول الله ﷺ أموال بني قُرَيظَة وَخَيْبَر بين المسلمين. حدّثنا أبو عبيد القاسم بن سلاّم قال: حدّثنا عبد الله ابن صالح كاتب الليث عن الليث بن سَعد عن عُقَيل عن الزُّهري أن رسول الله ﷺ حاصر بني قريظة حتّى نزلوا على حكم سعد بن معاذ فقضى بأن تُقتَل رجالهم وتُسبَى ذراريهم وتُقْسم أموالهم فقُتِل منهم يومئذ كذا وكذا رجلاً».

أما ابن الأثير فقد نقل الرواية كما يلي:[2]

(١) وفي رواية: سمعت.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٧٥ – ٧٧.

«لمّا أصبح رسول الله ﷺ عاد إلى المدينة ووضع المسلمون السلاح وضرب على سعد بن معاذ قُبّة في المسجد ليعوده من قريب. فلمّا كان الظهر أتى جبريل النبيَّ ﷺ فقال: أقدْ وضعتَ السلاح؟ قال: نعم. قال جبريل: ما وَضَعت الملائكةُ السلاح إنّ الله يأمُرُك بالمسير إلى بني قريظة وأنا عامد إليهم. فأمر رسول الله ﷺ منادياً فنادى: مَنْ كان سامعاً مطيعاً فلا يُصَلِّيَنَّ العصرَ إلاّ في بني قريظة. وقدّم علياً إليهم برايته وتلاحق الناس ونزل رسول الله ﷺ وأتاه رجال بعد العشاء الأخيرة فصلوا العصر بها وما عابهم رسول الله ﷺ. وحاصر بني قريظة شهراً أو خمساً وعشرين ليلة، فلما اشتدّ عليهم الحصار أرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن تبعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر - وهو أنصاري من الأوس - نستشيره. فأرسلُه، فلمّا رأوه قام إليه الرجال وبكى النساء والصبيان فرقّ لهم فقالوا ننزل على حكم رسول الله. فقال: نعم وأشار بيده إلى حَلْقه إنّه الذبح. قال أبو لبابة: فما زالت قدماي حتّى عرفتُ أنّي خُنْتُ الله ورسوله، وقلت: والله لا أقمتُ بمكانٍ عصيتُ الله فيه. وانطلق على وجهه حتّى ارتبط في المسجد وقال: لا أبرح حتّى يتوب الله عليّ فتاب الله عليه وأطلقه رسول الله ﷺ.

ثمّ نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فقال الأوس: يا رسول الله افعل في موالينا مثل ما فعلتَ في موالي الخزرج يعني بني قيقناع وقد تقدّم ذكرهم. فقال: ألا ترضون أن يحكم فيهم سعد بن معاذ؟ قالوا بلى. فأتاه قومه فاحتملوه على حِمار ثمّ أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو أحسِن إلى مواليك. فلما كثروا عليه قال: قد آن لسعد أنْ لا تأخذَهُ في الله لومةَ لائم. فعلم كثيرٌ منهم أنه يقتلهم. فلمّا انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ قال: قوموا إلى سيّدكم أو قال: خيركم، فقاموا إليه وأنزلوه وقالوا: يا أبا عمرو أحسِن إلى مواليك فقد ردّ رسول الله ﷺ الحكم فيهم إليك، فقال سعد: عليكم عهد الله وميثاقه أنّ الحكم فيهم إليّ. قالوا: نعم. فالتفت إلى الناحية الأخرى التي فيها النبيّ ﷺ وغضّ بصره عن رسول الله ﷺ إجلالاً وقال: وعلى مَنْ ها هنا العهد أيضاً. فقالوا: نعم. وقال رسول الله ﷺ نعم. قال: فإنّي أحكم أن تقتل المقاتلة، وتُسْبَى الذرية

والنساء، وتقسّم الأموال. فقال له رسول الله ﷺ: لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة.

ثمّ استُنْزِلوا فحبسوا في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار. ثمّ خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق، ثمّ بعث إليهم فضَرَب أعناقهم فيها وفيهم حيي بن أخطب وكعب بن أسد سيدهم وكانوا ستمائة أو سبعمائة، وقيل: ما بين سبعمائة وثمانمائة. وأُتي بحيي بن أخطب وهو مكتوف، فلمّا رأى النبيّ ﷺ قال: والله ما لُمْتُ نفسي في عداوتك، ولكن مَنْ يخذل الله يخذل. ثمّ قال للناس: إنه لا بأس بأمر الله كتابٌ وقَدَر، وملحمةٌ كُتِبَت على بني إسرائيل. فأُجلس وضربتْ عنقه، ولم تقتل منهم إلاّ امرأة واحدة قتلت بحَدَثٍ أحدثته، وقتلت أرفعة بنت عارضة منهم، وأسلم منهم ثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسيد بن عبيد.

ثمّ قسّم رسول الله ﷺ أموالهم فكان للفارس ثلاثة أسهم، للفرس سهمان ولفارسه سهم. وللراجل ممن ليس له فرس سهم. وكانت الخيل ستة وثلاثين فرساً وأخرج منها الخُمس. وكان أول فيء وقع فيه السهمان والخمس، واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه ريحانة بنت عمرو بن خنافة من بني قريظة فأراد أن يتزوجها فقالت: اتركني في مِلْكِكَ فهو أخف عليّ وعليك.[1] فلما انقضى أمر قريظة انفجر جُرْح سعد بن معاذ واستجاب الله دعاءه وكان في خيمته التي في المسجد فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وقالت عائشة: سمعت بكاء أبي بكر وعمر عليه وأنا في حجرتي، وأما النبيّ ﷺ فكان لا يبكي على أحد. كان إذا اشتدّ وجده أخذ بلحيته. وكان فتح قريظة في ذي القعدة وصدر ذي الحجة. وقتل من المسلمين في الخندق ستة نفر، وفي قريظة ثلاثة نفر».

---

(١) لكنها عادت وأسلمت فتزوّجها الرسول ﷺ.

# الفصل الثامن
# غزوات السنة السادسة للهجرة

كانت السنة السادسة سنة مفصلية في التاريخ الاسلامي. فبعد انتصار المسلمين في معركة الخندق رغم الجيش الكبير الذي جندته قريش لحربهم، تابع النبي غزواته الناجحة لتأمين طريق جيشه بين المدينة ومكّة تمهيداً لغزو هذه الأخيرة وفتحها ودخول الإسلام عليها ديناً.

وفي هذه السنة كان استسقاء النبيّ ﷺ لما لحق الناس من الضرر والجدب. وفيها اعتمد عمرته المعروفة بعمرة الحديبية وواعد المشركين. وفيها أفاء الله على رسوله ﷺ قرية فدك في الحجاز.(١) وفيها تزوّج النبيّ ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، ووجّه الرسل إلى قيصر الروم وكسرى الفرس يدعوهما لاعتناق الإسلام.(٢)

فقد أقام الرسول ﷺ في المدينة ذا الحجة والمحرم وصفراً وشهري ربيع، وخرج في جمادى الأول إلى بني لحيان.

### أ - غزوة بني لحيان:

في هذه الغزوة استعمل الرسول ﷺ مبدأ التمويه، إذ أظهر أنه يريد الشام ليفاجيء بني لحيان. واستعمل على المدينة خلال الغزوة «ابن أم مكتوم». كتب الطبري واصفاً هذه الغزوة:(٣)

---

(١) تقع قرية فدك بين المدينة ومكّة.

(٢) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣١٣.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٠٥. وقد نقل باقي المؤرّخين الرواية نفسها.

«قال أبو جعفر: وخرج رسولُ الله ﷺ في جُمادى الأولى على رأس ستّة أشهر من فتح بني قُريظة إلى بني لِحيان، يطلب بأصحاب الرّجيع؛ خُبَيب بن عديّ وأصحابه؛ وأظهر أنه يريد الشأم ليصيب من القوم غِرّةً. فخرج من المدينة، فسلك على غُراب (جبل بناحية المدينة على طريقه إلى الشام) ثمّ على مَخِيض، ثمّ على البتراء؛ ثمّ صفّق ذات اليسار، ثمّ على يَيْن، ثمّ على صُخَيْرات اليمام، ثمّ استقام به الطريق على المحجّة من طريق مكّة، فأغَذّ السير سريعاً؛ حتّى نزل إلى غُران؛ وهي منازل بني لحيان - وغُران وادٍ بين أمَج وعُسْفان - إلى بلد يقال له ساية، فوجدهم قد حذِروا وتمنّعوا في رؤوس الجبال. فلمّا نَزَلها رسولُ الله ﷺ وأخطأه من غرّتهم ما أراد، قال: لو أنّا هبطنا عُسفان لرأى أهل مكّة أنّا قد جئنا مكّة. فخرج في مائتي راكب من أصحابه حتّى نزل عُسفان، ثمّ بعث فارسين من أصحابه؛ حتّى بَلغا كُراع الغَميم، ثمّ كَرّا وراح قافلاً».

### ب - غزوة ذي قَرَد:

عاد الرسول ﷺ إلى المدينة فأقام بها أياماً قبل أن يغير عُيَيْنة بن حصن الفزاري في خيل لغطفان[1] على سرح النبيّ ﷺ بالغابة حيث وجد رجلاً من بني غِفار ومعه امرأته، فقتلوا الرجل وسبوا المرأة.

لحق بهم سَلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي وراح يرميهم بالسهام دون أن يشتبك معهم مباشرة نظراً لكثرتهم. ولما بلغ الخبر النبي ﷺ نادى بالقوم في المدينة فجاءته الفرسان فسلم قيادتهم إلى سعد بن زيد وأمره بأن «اخرج في طلب القوم حتّى ألحقك في الناس».[2]

وهكذا لحق الفرسان بالقوم. ومن أوائل الواصلين إليهم مُحرز بن نضلة[3] الذي

(١) غطفان: هي أشد القبائل العربية عداءاً للإسلام كونها ترتبط بحلف مع اليهود. وهي التي انضمّت إلى قريش وحلفائها في غزوة الخندق بأكبر عدد من الرجال.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٦٣.

(٣) يقال له الأخرم.

حمل عليهم، لكنه قتل قبل أن يصل الباقون لمساعدته، فكان الشهيد المسلم الوحيد في هذه الغزوة.[١]

وبعد أن وصل فرسان المسلمين تتبّعوا العدو الذي لجأ مع غروب الشمس إلى غارٍ فيه ماء يقال له: «ذو قَرَد». لكن المسلمين اجلوا المقاتلين عن الغار ولم يسمحوا لهم بالشرب منه.[٢] كما استعاد المسلمون إبل النبيّ ﷺ وعدداً من الرماح والثياب كان عُيينَة الفزاري ومن معه قد تركوها بسبب ضغط المسلمين عليهم. ولم يلاحق الرسول ﷺ العدو المتراجع نحو بلاد غطفان.

نقل ابن الأثير رواية الغزوة على لسان سلمة بن الأكوع الذي سبق فرسان المسلمين وكان أول من لحق ببني غطفان. قال سلمة:[٣]

«فما برحت مكاني حتى أبصرت فوارس رسول الله ﷺ يتخلّلون الشجر أوّلهم الأخرم الأسدي واسمه مُحرز بن نضلة من أسد بن خزيمة. وعلى أثره أبو قتادة؛ وعلى أثره المقداد بن الأسود الكندي. فأخذت بعنان الأخرم وقلت: أحذر القوم لا يقتطعوك حتّى يلحق رسول الله ﷺ وأصحابه. فقال: يا سلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فلا تَحُلْ بيني وبين الشهادة. قال: فخليته فالتقى هو وعبد الرحمن بن عيينة فعقر الأخرم بعبد الرحمن فرسه وطعنه عبد الرحمن فقتله، وتحوّل عبد الرحمن على فرس الأخرم. ولحق أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ بعبد الرحمن فطعنه فانطلقوا هاربين، قال سلمة: فوالذي كرم وجه محمّد ﷺ لتبعتهم أعدو على رجليّ حتّى ما أرى ورائي من أصحاب محمّد ﷺ ولا غبارهم شيئاً. وعدلوا قبل غروب الشمس إلى غارٍ فيه ماء يقال له: ذو قَرَد ليشربوا منه وهم عِطاش، فنظروا إليّ أعدو في آثارهم فاجليتهم عنه فما ذاقوا منه قطرة.

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٦٣.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٧٩.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٧٩ - ٨٠.

قال: واشتدوا في ثنية ذي أبهر[١] فأرشُقُ بعضهم بسهم فيقع في نُفض كتفه.

وأرادوا فرسين على ثنية فجئت بهما أقودهما إلى النبيّ ﷺ ولحقني عمّي عامر بسطيحة فيها مذقة[٢] من لبن وسطيحة فيها ماء فتوضأتُ وصليتُ وشربتُ ثمّ جئتُ إلى النبيّ ﷺ وهو على الماء الذي أجليتهم عنه بذي قَرَد. وإذا رسول الله ﷺ قد أخذ تلك الإبل التي استنقذتُ من العدو وكلّ بردة، وإذا بلال قد نحر لهم ناقة من الإبل وهو يشوي منها. فقلت: يا رسول الله خلني أنتخب مائة رجل فلا يبقى منهم عين تطرف. فضحك وقال: إنهم ليفرون بأرض غطفان. فجاء رجل من غطفان فقال: نحر لهم فلان جزوراً فلما كشطوا عنها جلدها رأوا غباراً فقالوا: أُتِيْتُم فخرجوا هاربين. فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة وخير رجالتنا سلمة بن الأكوع. ثمّ أعطاني رسول الله ﷺ سهمين سهم الفارس وسهم الراجل، ثمّ أردفني وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة».

### ج - غزوة بني المصطلق من خزاعة:[٣]

بقي رسول الله ﷺ في المدينة شهرين بعد غزوة ذي قَرَد، كان خلالها يرسل المستطلعين لرصد تحرّكات القبائل العربية التي ما زالت معادية للمسلمين، وعلى رأسها قريش.

وبلغه في أحد الأيام أن مجموعة من المقاتلين يتجمعون في أحياء بني المصطلق الذين هم فرع من خزاعة، وذلك بالقرب من مكّة بناءً لأمر رئيسهم «الحارث ابن أبي هزاز» بقصد غزو المدينة واغتيال النبيّ ﷺ. وعلم الرسول ﷺ أن أعدادهم تزداد يوماً بعد يوم وهم يحضّرون خطة الهجوم.

لذلك قرّر الرسول ﷺ تنفيذ خطة هجومية احترازية ضدّ بني المصطلق، فجهز جيشاً للمسلمين جعل لواء المهاجرين فيه لأبي بكر الصديق ولواء الأنصار لسعد بن عبادة.

---

(١) ثنية ذي أبهر: اسم جبل في الحجاز.

(٢) اي؛ شربةٌ من اللبن الممزوج بالماء.

(٣) أو غزوة المُرَيسيع. وسميت على اسم ماءٍ من مياه بني المصطلق.

وسار جيش المسلمين بسرعة بعد أن قرّر الرسول ﷺ الوصول إلى منطقة نزول بني المصطلق على حين غرة لمفاجأتهم ومهاجمة مجموعات المقاتلين الذين يتحضرون لمهاجمته.

أما تفاصيل الغزوة فقد جاء بها ابن كثير فكتب:(١)

«بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار، أبو جويرية بنت الحارث، التي تزوّجها رسول الله ﷺ بعد هذا. فلمّا سمع بهم خرج إليهم حتّى لقيهم على ماء من مياههم يقال له: المُرَيْسيع من ناحية قُدَيْد إلى الساحل، فتزاحم الناس واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق، وقتل من قتل منهم، ونقل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم، فأفاءهم عليه. وقال الواقدي: خرج رسول الله ﷺ لليلتين مضتا من شعبان سنة خمس من الهجرة في سبعمائة من أصحابه إلى بني المصطلق، وكانوا حلفاء بني مدلج، فلمّا انتهى إليهم دفع راية المهاجرين إلى أبي بكر الصديق، ويقال إلى عمّار بن ياسر، وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة. ثمّ أمر عمر بن الخطاب فنادى في الناس أن قولوا لا إله إلاّ الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم، فأبوا فتراموا بالنبل. ثمّ أمر رسول الله ﷺ المسلمين فحملوا حملة رجل واحد، فما أفلت منهم رجل واحد، وقتل منهم عشرة، وأسر سائرهم، ولم يقتل من المسلمين إلاّ رجل واحد. وثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن عون قال: كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال فقال: قد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارون في أنعامهم تسقي على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى سبيهم، فأصاب يومئذ - أحسبه قال - جُوَيْرية بنت الحارث. وأخبرني عبد الله بن عمر بذلك وكان بذلك الجيش. قال ابن إسحاق: وقد أصيب رجل من المسلمين يقال له هشام بن صُبابة أصابه رجل من الأنصار، وهو يرى أنه من العدو فقتله خطأ».(٢)

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٦٩ - ١٧٠.

(٢) ذكر ابن إسحاق أن أخاه مقيس بن صبابة قدم من مكّة مظهراً للإسلام، فطلب ديّة أخيه هشام من رسول الله ﷺ لأنه قتل خطأ، فأعطاه ديّته، ثمّ مكث يسيراً ثمّ عدا على قاتل أخيه فقتله، ورجع مرتداً إلى مكّة.

وبعد انتهاء القتال وزع الرسول ﷺ الغنائم على المسلمين الذين تجمّعوا حول الماء يستقون حيث وقع خلاف بين الأنصار والمهاجرين كاد أن يؤدي إلى قتال بينهم لولا تدخّل العقلاء.

وبنتيجة هذه الغزوة اعتنق سيد بني المصطلق الحارث بن أبي عوف الإسلام مع ابنته جويرة التي تزوّجها النبيّ ﷺ فأصبحت أم المؤمنين. وما إن علم المسلمون بهذا الزواج حتّى اعتقوا ما كانوا قد غنموه من السبايا والأولاد وردوا المال إلى بني قوم جويرية إكراماً لها وللنبي ﷺ.[1] ثمّ أسلم بنو المصطلق بعد ذلك، فأرسل إليهم النبيّ ﷺ الوليد بن عقبة بن أبي مَعيط، كما أرسل إليهم رجالاً من صحابته يعلمونهم أصول الدين فأصبح بنو المصطلق في ما بعد من أكثر العرب اندفاعاً للجهاد في سبيل الله.

**١ - الدروس المستقاة:**

- خلال غزوة بني لحيان أظهر النبيّ ﷺ أنه يريد التوجه بجيشه بغير اتجاههم، وذلك لمفاجأتهم ومهاجمتهم وهم غير مستعدين للقتال. إلا أنهم، ورغم ذلك، تنبّهوا للأمر وامتنعوا في الجبال المجاورة. وهذا يعني أن أحد جواسيسهم أخبرهم بأن الحملة العسكرية تقصدهم رغم سيرها باتجاه مغاير لمساكنهم.

- عندما أغارت خيل غطفان على سرح للنبي ﷺ جاء ردّ فعله سريعاً إذ سيّر مجموعة من الفرسان لحقت بهم واستعادت الإبل منهم. وهذا يعني أن المسلمين كانوا في جهوزية دائمة للتحرك. فسرعة الرد على الغارات ميّزتهم خلال هذه المرحلة من مراحل نشر الدعوة الاسلامية، الأمر الذي شكّل رادعاً قوياً للقبائل المعادية منعها من متابعة الهجمات على المدينة المنّورة.

- خلال غزوة بني المصطلق، شنّ النبيّ ﷺ هجوماً استباقياً ضدّهم لمنعهم من إكمال تجمّعهم ومهاجمة المسلمين. وهكذا أصبحت المبادرة بيده بعد أن كان بنو المصطلق يحاولون ابقاءها معهم.

علاوة على ذلك أفاد المسلمون خلال هذه الغزوة من عنصر المفاجأة إذ هاجموا

(١) قيل أنه اعتق مائة من سبايا بني المصطلق بعد زواج جويرية التي اعتبرت أعظم النساء بركة على بني قومها.

أعداءهم على حين غرّة فهزموهم وقتلوا عدداً كبيراً منهم وسبوا نساءهم وأبناءهم وصادروا أموالهم.

### ٢ - حديث الإفك:

لا بدّ من ذكر موضوع «حديث الإفك» الذي حصل في نهاية غزوة بني المصطلق والذي اتهمت فيه عائشة أم المؤمنين، ابنة أبي بكر، بأمور بعيدة عنها.

وقصّة هذا الحديث أنه لمّا نزل الرسول ﷺ في آخر منزل له قبل الدخول إلى المدينة، خرجت عائشة أم المؤمنين بحاجتها فأوقعت عقداً كان في رقبتها. ثمّ عادت إلى خارج الهودج للتفتيش عنه. وفي هذه الأثناء حُمل الهودج كون رسول الله ﷺ أذن بالانتقال، وبقيت عائشة في المكان وحدها حيث عادت لاحقاً مع رجل مسلم كان قد مرّ بالمكان.

وعندما عادت معه بعد دخول القافلة، تحرّكت ألسن السوء بحقها مما جعل النبيّ ﷺ حائراً فيما يفعَل، إلى أن أنزل الله الحديث الشريف ببراءتها ففرح المؤمنون بهذه البراءة.[١]

### د - صلح الحديبية:

بعد ان استقرّ المسلمون في المدينة وظهروا كقوّة لا يمكن التغلّب عليها بعد غزوة الخندق، وبعد أن تنظّمت أمورهم وعاشوا في حال استقرار وهم ينظمون شؤون مجتمعهم بتوجيه من رسول الله ﷺ، بدأوا يفكّرون بزيارة مكّة المكرّمة وبيت الحرام والحجر الأسود والكعبة المشرفة.

ومكّة لها منزلة كبيرة في نفوس العرب منذ الجاهلية وصدر الإسلام. لذلك كان الرسول ﷺ أكثر الناس شوقاً لزيارتها والتطواف حول كعبتها ورؤية الحجر الأسود الذي سبق ووضعه بنفسه في مكانه عندما اختلفت بطون قريش على أحقّية وضعه مكانه.[٢]

(١) ذكر حديث الإفك جميع المؤرخين العرب كالمسعودي والطبري وابن الأثير وابن كثير وابن هشام وابن الجوزي وابن سعد وغيرهم. ونزلتِ الآيات في سورة النور ببراءة عائشة وهي كثيرة كما نزلت عقوبة رمي المحصّنات.

(٢) سبق الحديث في الجزء الأوّل من هذه الموسوعة عن هذا الموضوع.

ومع حلول شهر ذي العقدة قرّر الرسول ﷺ زيارة مكّة لأداء الحج.

نقل الطبري تفاصيل بداية الرحلة فكتب:(١)

«خرج النبيّ ﷺ معتمراً في ذي القَعدة لا يريد حرباً، وقد استنفر العرب ومَن حوله من أهل البوادي من الأعراب أن يخرجوا معه، وهو يخشى من قُريش الذي صنعوا به أن يعرضوا له بحرْب، أو يصدّوه عن البيت. فأبطأ عليه كثيرٌ من الأعراب، وخرج رسول الله ﷺ ومَن معه من المهاجرين والأنصار، ومَنْ لحِق به من العرب، وساق معه الهدْيَ، وأحرم بالعُمرة، ليأمن النّاسُ من حربه، وليعلم النّاس أنّه إنّما جاء زائراً لهذا البيت، مُعظّماً له.

حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حدّثني محمّد بن إسحاق، عن محمّد ابن مسلِم الزهريّ، عن عروة بن الزُّبير، عن المِسْور بن مَخرَمة ومروان بن الحَكَم؛ إنّهما حدّثاه قالا: خرج رسولُ الله ﷺ عامَ الحديبية، يريد زيارة البيت، لا يريد قتالاً، وساق معه سبعين بَدَنَة، وكان النّاس سبعمائة رجل؛ كانت كلّ بَدَنة عن عشرة نفر.(٢)

قال الزهريّ: فخرَج رسولُ الله ﷺ، حتّى إذا كان بعُسْفان لقيَه بشْر بن سُفيان الكعبيّ، فقال له: يا رسولُ الله، هذه قريش قد سمعوا بمسيرك، فخرجوا معهم العُوذ المَطَافيلُ، قد لبسوا جُلود النمور، وقد نزلوا بذي طُوي، يحلفون بالله لا تدخُلُها عليهم أبداً؛ وهذا خالد بن الوليد في خَيْلهم، قد قدموها إلى كُراع الغَميم.

قال أبو جعفر: وقد كان بعضُهم يقول: إنّ خالد بن الوليد كان يومئذ مع رسول الله ﷺ مسلماً.

حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا يعقوب القُمّيّ، عن جعفر - يعني إبن أبي المغيرة - عن ابن أبْزَى، قال: لما خرج النبيّ ﷺ بالهَدْي، وانتهى إلى ذي الحُلَيْفَة، قال له عمر: يا رسولَ الله، تدخل على قوم هم لك حربٌ بغير سلاح ولا كُراع! قال: فبعث النبيّ ﷺ إلى المدينة، فلم يَدَعْ فيها كُراعاً

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١١٦ - ١١٧.

(٢) وقيل في ألف وخمسمائة (عن ابن سعد).

ولا سلاحاً إلاّ حَمَله. فلمّا دنا من مكّة منعوه أن يدخلَ، فسار حتّى أتى مِنىً، فنزل بمنىً، فأتاه عينه أنّ عِكْرمة ابن أبي جهل قد خرج عليك في خمسمائة، فقال رسولُ الله ﷺ لخالد بن الوليد: يا خالد، هذا ابنُ عمّك، قد أتاك في الخيل، فقال خالد: أنا سيفُ الله وسيف رسوله - فيومئذٍ سُمّي سيفَ الله -: يا رسولَ الله ارْمِ بي حيث شئت. فبعثه على خيل، فلقيَ عِكْرمة في الشّعب، فهزمه حتّى أدخله حيطان مكّة، ثمّ عاد في الثانية، فهزمه حتّى أدخله حيطان مكّة، ثمّ عاد في الثّالثة فهزمه حتّى أدخله حيطان مكّة، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ﴾ - إلى قوله -: ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾(١)

قال: وكفّ الله النبيّ ﷺ عنهم بعد أن أظفره عليهم لبقايا من المسلمين كانوا بقوا فيها من بعد أن أظفره عليهم كراهية أن تطأهم الخيل بغير علم.

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق. قال: فقال رسولُ الله ﷺ: يا ويح قريش! قد أكلتْهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوْا بيني وبين سائر العرب؛ فإن هن أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهَرَني الله عليهم دخُلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوّة. فما تظنّ قريش! فوالله لا أزالُ أجاهدهم على الّذي بعثني الله به حتّى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة.

ثمّ قال: مَن رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟

فحدّثنا ابنُ حُميد، قال: حدّثنا سَلَمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، أنّ رجلاً من أسْلم قال: أنا يا رسولَ الله، قال: فسلكَ بهم على طريق وَعْرٍ حَزْن بين شعَاب، فلمّا أن خرجوا منه - وقد شقّ ذلك على المسلمين، وأفضَوْا إلى أرض سَهْلة عند منقطع الوادي - قال رسولُ الله ﷺ للناس: قولوا نستغفر الله ونتوب إليه. ففعلوا. فقال رسولُ الله ﷺ، والله إنها للحِطّة التي عُرِضَت على بني إسرائيل فلم يقولوها.

قال ابن شهاب: ثمّ أمر رسول الله ﷺ الناس فقال: اسلكوا ذات اليمين، بين

---

(١) الفتح: من الآيتين ٢٤ و٢٥.

ظَهْرَي الحَمْض في طريق تُخرجه على ثنيّة المُرار، على مهبَط الحديبيَة من أسفل مكّة. قال: فسلك الجيش ذلك الطريق، فلمّا رأت خيل قريش قَتَرَة الجيش، وأنّ رسولَ الله ﷺ قد خالفهم عن طريقهم، ركضوا راجعين إلى قريش، وخرج رسول الله ﷺ، حتّى إذا سلك في ثنيّة المُرار، بركَتْ ناقته، فقال الناس: خلأتْ! فقال: ما خلأتْ، وما هو لها بخُلُق؛ ولكن حبَسها حابسُ الفيل عن مكّة؛ لا تدعوني قريش اليومَ إلى خُطّة يسألوني صلَةَ الرَّحِم إلاّ أعطيتهم إياها. ثمّ قال للناس: انزلوا، فقيل: يا رسول الله ما بالوادي ماء ننزل عليه! فأخرَج سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قَليب من تلك القُلب فغزره في جوْفه، فجاش الماءُ بالرَيّ حتّى ضربَ الناسُ عليه بَعَطَن».

**١ - المفاوضات:**

استراح المسلمون في ذلك المكان قبل أن يأتيهم وفد من خزاعة برئاسة بديل بن ورقاء مرسلاً من قريش، فأفهمهم الرسول ﷺ أنه لم يأتِ لحرب قريش. عاد وفد خزاعة وأعلم قريش بأن النبيّ ﷺ جاء مسالماً.

ثمّ أرسلت قريش وفدين آخرين كرّر الرسول ﷺ أمامهما نفس القول فعادا إلى مكّة وأخبرا قريشاً بأن الرسول ﷺ قد جاء حاجاً وليس مقاتلاً.[١]

وهكذا بدا واضحاً أن الرسول ﷺ يريد السلام في حين كانت قريش تريد الحرب بسبب حقدها عليه وخاصة بعدما لاحظته من انضمام العرب إليه وتكريمهم له.

أخيراً أرسلت قريش حوالى أربعين مقاتلاً راحوا يتحرّشون بمعسكر المسلمين محاولين أسر بعضهم. لكنّ النبيّ ﷺ كان قد سبق وتنبّه لهذا الأمر فكلّف بعضاً من مرافقيه بحراسة المعسكر فقام بعضهم بأسر المجموعة التي أرسلتها قريش وأتوا بهم أمام رسول الله ﷺ الذي أمر بإطلاق سراحهم.[٢]

بعد ذلك تابعت قريش مظاهر العداء فأرسلت بعضاً من أمهر رماتها لقتل بعض المسلمين. وكان أحد الحراس المسلمين يقف في «ثنية» الحديبية، فرماه رماة قريش بسهم

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٢٠.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٨٢.

فقتلوه. عند هذا الحد أرسل النبيّ ﷺ فرساناً من المسلمين طاردوا المهاجمين وأسروا اثني عشر فارساً منهم قدموهم للنبي ﷺ الذي أمر أيضاً بإطلاق سراحهم هادفاً من ذلك تلقين قريشاً درساً بالتسامح والعفو.

أخيراً انتدب النبيّ ﷺ عثمان بن عفان وأرسله إلى معسكر قريش على مدخل مكّة. ولمّا وصل عثمان إلى المعسكر أجاره «أبان بن سعيد بن العاص» وكان صديقاً له وسار به إلى أمام أبي سفيان وقادة قريش. والمعروف أن عثمان كان نسيباً لأبي سفيان. وجاء الخبر للنبيّ ﷺ أنه قتل.

نقل ابن الأثير خبر إرسال عثمان فكتب:[1]

«فدعا رسول الله ﷺ عمر ليرسله إلى مكّة، فقال: ليس بمكّة من بني عدي مَن يمنعني وقد علمت قريش عداوتي لها وغِلظتي عليها وأخافها على نفسي، فأرسِلْ عثمان فهو أعزّ بها مني. فدعا عثمان فأرسله ليبلغ عنه فانطلق فلقيه أبان بن سعيد بن العاص فأجاره فأتى أبا سفيان، وعظماء قريش فبلّغهم عن رسول الله ﷺ، فقالوا لعثمان حين فرغ من أداء الرسالة: إنْ شئتَ أنْ تطوف بالبيت فطُفْ به فقال: ما كنت لأفعل حتّى يطوف به النبيّ ﷺ. فاحتبسته قريش عندها، فَبَلَغ النبيّ ﷺ أنه قد قُتِل فقال: لا نبرح حتّى نناجز القوم. ثمّ دعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة وهي سمرة لم يتخلّف منهم أحد إلاّ الجدّ بن قيس. وكان أوّل من بايعه رجل من بني أسد يقال له: أبو سنان، ثمّ أتى الخبر أنّ عثمان لم يقتل».

وذكر الرواة أن البيعة حصلت لمنع المسلمين من الفرار من أرض المعركة.

### ٢ - الصلح:

نظراً لعدم عودة المفاوض المسلم عثمان بن عفان، خيّمت أجواء القتال على وادي الحديبية. إنما جاءت الأخبار في ما بعد أنه حيّ يرزق وهو مقيم عند أبناء عمّه من قريش يتشاور معهم، فزال القلق من نفوس المسلمين.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٨٩.

وكانت قريش قد وجدت مخرجاً للمأزق واقتنعت بعدم جدوى القتال وقررت الصلح، وأرسلت سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي لإقرار هذا الصلح الذي ننقل تفاصيله عن ابن الأثير، الذي كتب:[(١)]

«ثمّ جرى بينهم الصلح، فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل: لا نعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهمّ. فكتبها، ثمّ قال: اكتب هذا ما صالح عليه محمّد رسول الله سهيل بن عمرو، فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال: لعلّي امح رسول الله. فقال: لا أمحوك أبداً. فأخذه رسول الله ﷺ وليس يحسن أنْ يكتب فكتب موضع رسول الله محمّد بن عبد الله، وقال لعلي: لتبلين بمثلها، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن الناس، وإنه من أتى منهم رسول الله بغير إذن وليه رده إليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع رسول الله لم يردّوه عليه ومن أحب أنْ يدخل في عهد رسول الله دخل، ومن أحب أنْ يدخل في عهد قريش دخل. فدخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وأنْ يرجع رسول الله ﷺ عنهم عامه ذلك فإن كان عام قابل خرجنا عنك فدخلْتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً، وسلاح الراكب السيوف في القِرَب لا تدخلها بغيرها».

وفي هذا النص تأكيد على أن النبيّ ﷺ هو الذي كتب اتفاق الصلح بعد أن تفاوض مع سهيل بن عمرو. كما أن النبيّ ﷺ كان خلال المفاوضة يتساهل في أمور كثيرة فيما كان سهيل يتشدّد.

ويروى أن عمر بن الخطاب احتجّ على عدم ذكر رسول الله وعدم ذكر المسلمين. إنما نقل عنه لاحقاً أنه ندم على احتجاجه هذا لأن الأيام أثبتت سلامة موقف الرسول ﷺ.

وشهد على عهد المسلمين رجال منهم أبرزهم: أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن سهيل بن عمرو وسعد بن أبي وقاص ومحمّد بن مسلَمة.[(٢)]

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٨٨.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٨٤.

أما احتجاج المسلمين على الصلح فكان بسبب قدومهم للدخول إلى مكّة، فإذا بهم يؤجل دخولهم سنة كاملة لذلك، عندما طلب النبيّ ﷺ منهم أن ينحروا الجمال، لم يتحرّك أحد منهم رغم تكراره الدعوة ثلاث مرات.

نقل الطبري هذه الحادثة فكتب:[١]

«فلمّا فرغ رسول الله ﷺ من قضيّته قال لأصحابه: قوموا فانحروا، ثمّ احلِقوا. قال: فوالله ما قام منهم رجلٌ حتّى قال ذلك ثلاث مرّات. فلمّا لم يقمْ منهم أحد، قام فدخل على أم سلَمة، فذكر لها ما لقيَ من الناس، فقالت له أمّ سلَمة: يا نبيّ الله، أتحبّ ذلك! اخرج ثمّ لا تكلّم أحداً منهم كلمة حتّى تنحر بَدَنتَك؛[٢] وتدعو حالقِك فيحلقك؛ فقام فخرج فلم يكلّم أحداً منهم كلمة حتّى فعل ذلك؛ نحر بَدنته ودعا حالقِه فحلقه. فلمّا رأَوا ذلك قاموا فنحرُوا؛ وجعل بعضهم يحلق بعضا؛ حتّى كاد بعضهم يقتل بعضاً غَمّاً».

٣ - نتائج الصلح:

كان صلح الحديبية جيداً بالنسبة للمسلمين، فقد وضعت الحرب أوزارها وأمن الناس والتقوا وتفاوضوا. كما دخل عدد كبير من العرب، خلال تلك السنة، في الاسلام، فتعزز بهم.

نقل الطبري عن الزهري قوله:[٣]

«يقول الزهريّ: فما فُتحَ في الإسلام فتحٌ قبلَه كان أعظمَ منه؛ إنما كان القتال حيث التقى النّاس - فلمّا كانت الهدنة، ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس كلُّهم بعضهم بعضاً فالتقوا؛ وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلاّ دخل فيه، فلقد دخل في تيْنك السنتيْن في الإسلام مثلُ ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر».

وأثناء عودة النبيّ ﷺ إلى المدينة نزلت عليه سورة الفتح وفيها البشرى بفتح مكّة قريباً فقال تعالى:

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٢٤.

(٢) بدنته: جمل له.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٢٤.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحلِّقِينَ رُؤُسَكُم ومُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَم تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فتحاً قريباً﴾.(١)

وصمدت هدنة الحديبية لمدّة تقارب السنتين لم يحصل خلالهما أي قتال أو مجابهة بين رسول الله ﷺ وبين قريش حتى كان فتح مكة المكرّمة في السنة الثامنة للهجرة.

### هـ - سرايا مختلفة:

لم يكن صلح الحديبية هدنة بين المسلمين وجميع العرب الذين ما زالوا غير مؤمنين، إنما كان هدنة محصورة بقريش ومكّة. لذلك تابعت مسيرة الجهاد في سبيل الدين التي اعتمدها النبيّ ﷺ خلال إقامته في المدينة. كما أن بعض القبائل العربية المعادية للإسلام حاولت غزو المدينة، ومنها من ارتبط بأحلاف مع القبائل اليهودية أو مع قريش.

لكلّ هذه الأسباب تابع الرسول ﷺ إرسال السرايا والبعوث إلى أنحاء الجزيرة العربية.

كتب الطبري عن إرسال السرايا، نقلاً عن الواقدي:(٢)

«في هذه السنة كانت السرايا:

- سرية عكاشة بن محصن:

وقال الواقديّ: في هذه السنة - في شهر ربيع الآخر منها - بعث رسول الله ﷺ عُكّاشة بن مِحْصَن في أربعين رجلاً إلى الغَمْر؛ فيهم ثابت بن أقْرَم وشُجَاع بن وهب؛ فأغذ السير، ونذِرَ القوم به فهربوا فنزل على مياههم وبعث الطلائع؛ فأصابوا عينا فدلّهم على بعض ماشيتهم؛ فوجدوا مائتي بعير، فحدَرُوها إلى المدينة.

- سرية محمّد بن مسلَمة:

قال: وفيها بعث رسولُ الله ﷺ محمّد بن مسلمَة في عشرة نفر في ربيع الأول منها، فكمن القوم لهم حتّى نام هو وأصحابه؛ فما شعروا إلاّ بالقوم؛ فقتِل أصحاب محمّد بن مسلَمة وأفلتَ محمّد جريحاً.

(١) الفتح: ٢٧.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٢٦ - ١٢٨.

- سرية أبي عبيدة:

قال الواقدي: وفيها أسرل رسولُ الله ﷺ سريَّة أبي عُبيدة بن الجرَّاح إلى ذي القصّة في شهر ربيع الآخر في أربعين رجلاً، فساروا ليلتهم مُشاةً، ووافَوْا ذا القصّة مع عَماية الصُّبح، فأغاروا عليهم، فأعجزوهم هَرَباً في الجبال، وأصابوا نعماً ورِثَّة ورجلاً واحداً، فأسلم، فتركه رسولُ الله ﷺ.

- سرايا زيد بن حارثة:

قال: وفيها كانت سريّة زيد بن حارثة بالجَمُوم، فأصاب امرأة من مُزَيْنة؛ يقال لها حليمة، فدَلَّتْهم على محلَّة بني سُلَيم، فأصابوا بها نَعَماً وشاء وأسَراء؛ وكان في أولئك الأسرَاء زوْج حليمة، فلمَّا قفل بما أصاب وَهَب رسول الله ﷺ للمُزَنيَّة زوجَها ونفسها.

قال: وفيها كانت سريَّة زيد بن حارثة إلى الطَّرَف، في جمادى الآخرة، إلى بني ثعلبة في خمسة عشر رجلاً؛ فهربت الأعراب وخافوا أن يكون رسولُ الله سارَ إليهم، فأصاب من نَعَمهم عشرين بعيراً. قال: وغاب أربع ليال.

قال: وفيها سريّة زيد بن حارثة إلى حِسْمَى في جمادى الآخرة. قال: وكان أوّل ذلك - فيما حدثني موسى بن محمّد، عن أبيه، قال: أقبل دِحْيَة الكلبيّ من عند قيصر؛ وقد أجاز دِحْيَة بمال، وكساه كُسىً؛ فأقبل حتّى كان بحِسْمَى، فلقيَه ناسٌ من جُذام؛ فقطعوا عليه الطريق، فلم يُترك معه شيء؛ فجاء إلى رسول الله قبل أن يدخل بيته فأخبره، فبعث رسول الله ﷺ زيدَ بن حارثة إلى حِسْمى.

قال: وفيها سريّة زيد بن حارثة إلى وادي القُرى في رجب.

- سرية عبد الرحمن بن عوف:

قال: وفيها سريّة عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجَنْدل في شعبان؛ وقال له رسول الله ﷺ: إن أطاعوك فتزوّج ابنَة ملكهم. فأسلم القوم، فتزوّج عبد الرحمن تُماضر بنت الأصْبَغ؛ وهي أمّ أبي سلَمة؛ وكان أبوها رأسَهم وملكهم.

- سرية علي بن أبي طالب:

قال: وفيها سريّة علي بن أبي طالب عليه السلام إلى فَدَك في شعبان.

قال: وحدّثني عبد الله بن جعفر، عن يعقوب بن عُقْبة، قال: خرج عليٌّ بن أبي طالب في مائة رجل إلى فَدَك، إلى حيٍّ من بني سَعْد بن بكر؛ وذلك أنّه بلغ رسول الله أنّ لهم جمعاً يريدون أن يمدّوا يهود خيبر؛ فسار إليهم الليل وكَمَن النّهار؛ وأصاب عيْناً؛ فأقرّ لهم أنه بُعِث إلى خيبر يعرض عليهم نصرَهم على أن يجعلوا لهم ثمر خَيْبر.

- سرية زيد بن حارثة:

قال: وفيها سريّة زيد بن حارثة إلى أمّ قِرْفة في شهر رمضان.

وفيها قتلت أمّ قِرْفة، وهي فاطمة بنت ربيعة بن بدر، قتلها قتلاً عنيفاً؛ ربط برجليها حبْلاً ثمّ ربطها بين بعيريْن حتّى شقَّاها شقّاً؛ وكانت عجوزاً كبيرةً.

وكان من قصّتها ما حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حدّثني ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، قال: بعث رسولُ الله ﷺ زيد بن حارثة إلى وادي القُرى؛ فلقَى به بني فزارة؛ فأصيب به أناسٌ من أصحابه، وارْتُثّ زيد من بين القتلى. وأصيب فيها ورد ابن عمرو أحد بني سعد بني هُذَيم، أصابه أحد بني بدْر؛ فلمّا قدم زيد نَذَر ألاّ يمسّ رأسه غسلٌ من جنابه حتّى يَغْزُوَ فَزَارة. فلمَّا استبلّ من جراحه، بعثه رسولُ الله ﷺ في جيش إلى بني فَزارة، فلقيَهم بوادي القُرى، فأصاب فيهم؛ وقتل قيس بن المسحَّر اليَعْمُريّ مَسْعَدَة بن حكمة ابن مالك بن بدر، وأسر أمَّ قرفة - وهي فاطمة بنت ربيعة بن بدر، وكانت عند مالك بنُ حذيفة بن بدر، عجوزاً كبيرة - وبنتاً لها، وعبد الله بن مسعدة. فأمر زيد بن حارثة أن يقتل أم قِرْفة؛ فقتلها قتلاً عنيفاً، ربط برجليها حبلين ثمّ رَبطهما إلى بعيرين حتّى شقّاها. ثمّ قدموا على رسول الله ﷺ بابنة أم قِرْفة وبعبدالله بن مسعدة؛ وكانت ابنة أم قرفة لسلمة بن عمرو بن الأكوع؛ كان هو الذي أصابها، وكانت في بيت شرف من قومها، كانت العرب تقول: لو كنت أعزّ من أم قرفة ما زدتَ. فسألها رسول الله ﷺ، فوهبها له، فأهداها لخاله حَزْن بن أبي وهْب؛ فولدت له عبد الرحمن بن حَزْن.

وأمّا الرواية الأخرى عن سلَمَة بن الأكوع في هذه السرية، أن أميرها كان أبا بكر بن

أبي قحافة. حدّثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا أبو عامر، قال: حدّثنا عِكْرمة بن عَمار، عن إياس بن سلَمة، عن أبيه، قال أمَّر رسولُ الله ﷺ علينا أبا بكر؛ فغزونا ناساً من بني فَزارة، فلمّا دنَوْنا من الماء أمرَنا أبو بكر فعرّسنا. فلمّا صلّينا الصبح، أمرنا أبو بكر فشننَّا الغارة عليهم. قال: فوردنا الماء فقتلنا به من قتلنا. قال: فأبصرت عُنُقاً من الناس؛ وفيهم النّساء والذراريُّ قد كادوا يسبقون إلى الجبل، فطرحت سهماً بينهم وبين الجبل، فلمَّا رأوا السَّهم وقفوا، فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر؛ وفيهم امرأة من بني فزارة عليها قشْعُ أدَم، معها إبنة لها من أحسن العرب. قال: فنفَّلني أبو بكر ابنتها، قال: فقدمت المدينة، فلقيني رسول الله بالسوق، فقال: يا سلَمة، لله أبوك! هب لي المرأة! فقلت: يا رسول الله؛ والله لقد أعجبَتْني وما كشفت لها ثوباً. قال: فسكت عني حتّى إذا كان من الغد لَقيَني في السّوق، فقال: يا سلَمة، لله أبوك! هبّ لي المرأة، فقلت: يا رسول الله، والله ما كشفت لها ثوباً؛ وهي لك يا رسولُ الله. قال: فبعث بها رسول الله إلى مكّة؛ ففادى بها أسارى من المسلمين كانوا في أيدي المشركين. فهذه الرواية عن سلَمة.

- سرية كرز بن جابر:

قال محمّد بن عمر: وفيها سريّة كُرز بن جابر الفهريّ إلى العُرَنّيين الذين قتلوا راعيَ رسول الله ﷺ».

**و - أحداث أخرى:**

وفي السنة السادسة للهجرة وقعت أحداث مهمّة بالنسبة لمستقبل المسلمين ننقلها عن ابن كثير نظراً لأهميتها:(١)

«نزل فرض الحج كما قرّره الشافعي زمن الحديبية في قوله تعالى: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾.(٢)

**ز - مكاتبة الملوك والحكّام:**

أرسل النبي ﷺ الرسل إلى الملوك والحكّام. ونحن ننقلها هنا نظراً لكونها

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٩٧.

(٢) البقرة: من الآية ١٩٦.

كانت مقدمة للفتوحات الكبرى التي سيقوم بها المسلمون لاحقاً ضد هؤلاء الملوك والحكّام.

كتب الطبري عن الرسل ما يلي:(١)

«قال: بعث رسول الله ﷺ الرُّسُل؛ فبعث في ذي الحجة ستّة نفر: ثلاثة مصطحبين؛ حاطب بن أبي بلتعة من لَخْم حليف بني أسد بن عبد العزى إلى المقوقس، وشجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة - حليفاً لحرب بني أمية شهد بدراً - إلى الحارث بن أبي شَمِر الغسانيّ، ودِحْيَةَ ابن خليفة الكلبيّ إلى قيصر. وبعث سليط ابن عمرو العامريّ عامرَ بن لؤيّ إلى هَوْذَة بن علي الحنفيّ. وبعث عبد الله بن حُذافة السهميّ إلى كسرى. وعمرو بن أمية الضَّمْريّ إلى النجاشيّ.

وأمّا ابنُ إسحاق - فإنّه - فيما زعم، وحدّثنا به ابنُ حميد - قال: حدّثنا سلَمة، عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ قد فرّق رجالاً من أصحابه إلى ملوك العرب والعجم، دعاةً إلى الله عزّ وجلّ فيما بين الحديبية ووفاته.

قال ابنُ إسحاق: ثمّ فرّق رسولُ الله ﷺ بين أصحابه؛ فبعث سَليطَ بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ودّ أخا بني عامر بن لؤي إلى هَوْذة بن عليّ، صاحب اليمامة. وبعث العَلاءَ بن الحضرميّ إلي المنذر بن ساوى أخي بني عبد القَيْس صاحب البحْرَيْن، وعمرو بن العاص إلى جَيْفَر بن جُلَنْدَى وعبّاد بن جُلَنْدَى الأزديَّيْن صاحِبَيْ عُمان. وبعث حاطب بن أبي بَلْتَعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية؛ فأدّى إليه كتابَ رسول الله ﷺ، وأهدى المقوقس إلى رسول الله ﷺ أربع جوار، منهنّ مارية أمّ إبراهيم ابن رسول لله ﷺ. وبعث رسولُ الله دِحْيَةَ بن خليفة الكلبيّ ثمّ الخزْجيّ إلى قيصر، وهو هِرَقْل ملك الروم».

أمّا تفصيل ردود هؤلاء على الرسائل، فننقلها بسبب أهميتها على المعارك اللاحقة، عن ابن الأثير الذي كتب:(٢)

«بعث رسول الله ﷺ الرسل إلى كسرى، وقيصر، والنجاشي، وغيرهم وأرسل حاطب ابن أبي بلتعة إلى المقوقس بمصر، وأرسل

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٢٨.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٩٥ - ٩٨.

شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، وأرسل دِحْيَة إلى قيصر، وأرسل سليط بن عمرو العامري إلى هوذة بن علي الحنفي، وبعث عبد الله بن حُذَافة إلى كسرى، وأرسل عمرو بن أمية الضمريّ إلى النجاشي، وأرسل العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى أخي عبد القيس، وقيل: إنّ إرساله كان سنة ثمان والله أعلم.

فأمّا المقوقس فإنّه قبل كتاب النبيّ ﷺ وأهدى إليه أربع جوار، منهن مارية أمّ إبراهيم بن رسول الله ﷺ. وأما قيصر وهو هرقل فإنه قبل كتاب رسول الله ﷺ وجعله بين فخذيه وخاصرته، وكتب إلى رجل برومية كان يقرأ الكتاب يخبره شأنه فكتب إليه صاحب رُوْمِيَّة إنه النبيّ الذي كنا ننتظره لا شك فيه فاتبعه وصدّقه. فجمع هرقل بطارقة الروم في الدسكرة[1] وغلقت أبوابها ثمّ اطلع عليهم من علية وخافهم على نفسه وقال لهم: قد أتاني كتاب هذا الرجل يدعوني إلى دينه، وإنه والله النبيّ الذي نجده في كتابنا فهلم فلنتبعه ونصدّقه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا. فنخروا نخرة رجل واحد، ثمّ ابتدروا الأبواب ليخرجوا فقال: ردوهم عليّ وخافهم على نفسه، وقال لهم: إنّما قلتُ لكم ما قلتُ لأنظر كيف صلابتكم في دينكم! وقد رأيت منكم ما سرّني فسجدوا له، وانطلق وقال لدحية: إني لأعلم أنّ صاحبك نبيّ مرسل، ولكني أخاف الروم على نفسي، ولولا ذلك لاتبعته فاذهب إلى ضغاطر الأسقف الأعظم في الروم واذكر له أمر صاحبك وانظر ما يقول لك. فجاء دحية وأخبره بما جاء به من رسول الله ﷺ فقال له ضغاطر: والله إن صاحبك نبيٌّ مرسل؛ نعرفه بصفته، ونجده في كتابنا، ثمّ أخذ عصاه وخرج على الروم وهم في الكنيسة فقال: يا معشر الروم: قد جاءنا كتاب من أحمد يدعونا إلى الله وإني أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله، قال: فوثبوا عليه فقتلوه. فرجع دحية إلى هِرقل وأخبره الخبر قال: قد قلت: إنا نخافهم على أنفسنا. وقال قيصر للروم: هلمّوا نعطيه الجزية فأبوا، فقال: نعطيه أرض سورية وهي الشام ونصالحه،

---

[1] الدسكرة: إسم لقرى متعدّدة في العراق والعجم.

فأبوا. واستدعى هرقل أبا سفيان وكان تاجراً إلى الشام في الهدنة فحضر عنده ومعه جماعة من قريش أجلسهم هرقل خلفه، وقال: إني سائله فإنْ كذب فكذبوه.

فقال أبو سفيان: لولا أنْ يؤثَر عني الكذب لكذبت، فسأله عن النبيّ قال: فصغّرتُ له شأنه فلم يلتفتْ إلى قولي، وقال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو أوسطنا نسباً، قال: هل كان من أهل بيته من يقول مثل قوله؟ قلت لا. قال: فهل له فيكم ملك سلبتموه إياه؟ قلت: لا. قال: فمن اتبعه منكم؟ قلت: الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء. قال: فهل يحبّه من يتبعه ويلزمه أو يقليه ويفارقه؟ قلت: ما تبعه رجل ففارقه، قال: فكيف الحرب بينكم وبينه؟ قلت: سجال يدال علينا وندال عليه، قال: هل يغدر؟ قال: فلم أجد شيئاً أغمز به غيرها قلت: لا ونحن منه في هدنة لا نأمن غدره. قال: فما التفت إليها. قال أبو سفيان: فقال لي هرقل: سألتك عن نسبه فزعمت أنه من أوسط الناس وكذلك الأنبياء، وسألتك هل قال أحد من أهل بيته مثل قوله فهو متشبه به؟ فزعمت أن لا، فسألتك هل سلبتموه ملكه فجاء بهذا لتردوا عليه ملكه؟ فزعمت أن لا. وسألتك عن أتباعه فزعمتَ أنهم الضعفاء والمساكين وكذلك أتباع الرسل، وسألتك عمن يتبه أيحبه أم يفارقه؟ فزعمت أنهم يحبونه ولا يفارقونه. وكذلك حلاوة الايمان لا تدخل قلباً فتخرج منه، وسألتك هل يغدر؟ فزعمت أن لا ولئن صدقتني ليغلبن على ما تحت قدميّ هاتين ولوددتُ أني عنده فأغسل قدميه، انطلِق لشأنك. قال: فخرجتُ وأنا أضرب إحدى يدي بالأخرى وأقول أي عباد الله لقد أمر أمر ابن أبي كبشة،(١) أصبح ملوك الروم يهابونه في سلطانهم! قال: وقدم عليه دحية بكتاب النبيّ ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمّد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. السلام على من اتبع الهدى أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإنْ توليت فإن إثم الأكارين(٢) عليك.

---

(١) يقصد النبيّ ﷺ.

(٢) أي: الفلاحون.

وأما الحارث بن أبي شمر الغساني، فأتاه كتاب رسول الله ﷺ مع شجاع بن وهب فلما قرأه عليهم قال: من ينزع مني ملكي أنا سائر إليه. فلما بلغ قوله رسول الله ﷺ قال: بادَ مُلكه.

وأما النجاشي، فإنه لما جاءه كتاب النبيّ ﷺ آمن به واتبعه وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب وأرسل إليه ابنه في ستين من الحبشة فغرقوا في البحر. وأرسل إليه رسولُ الله ﷺ ليزوّجه أم حبيبة بنت أبي سفيان وكانت مهاجرة بالحبشة مع زوجها عبيدالله بن جحش فتنصر وتوفي بالحبشة، فخطبها النجاشي إلى رسول الله ﷺ فأجابت. وزوّجها وأصدقها النجاشي أربعمائة دينار، فلما سمع أبو سفيان تزويج رسول الله ﷺ أم حبيبة قال: ذاك الفحل لا يقدع أنفه.(١)

وأما كسرى، فجاءه كتاب رسول الله ﷺ مع عبد الله بن حذافة فمزّق الكتاب فقال رسول الله ﷺ: «مزق ملكه» وكان كتابه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمّد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من تبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله، وإني أدعوك بدعاء الله وإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين. فأسلم تسلم وإن توليت فإن إثم المجوس عليك. فلمّا قرأه شَقّه قال: يكتب إليّ بهذا وهو عندي!

ثمّ كتب إلى باذان وهو باليمن أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به! فبعث باذان بابويه وكان كاتباً حاسباً ورجلاً آخر من الفرس يقال له: خرخسره، وكتب معهما يأمره بالمسير معهما إلى كسرى. وتقدّم إلى بابويه أن يأتيه بخبر رسولُ الله ﷺ. وسمعت قريش بذلك ففرحوا، وقالوا: أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك، كفيتم. الرجل، فخرجا حتّى قَدِما على رسول الله ﷺ وقد حلقا لحاهما وأعفيا شواربهما فكره النظر إليهما وقال: ويلكما مَنْ أمركما بهذا. قالا: ربنا. يعنيان الملك. فقال: لكن ربي أمرني أن أعفيَ لحيتي وأقصّ شاربي،

---

(١) يقال قدعت الفحل وهو أن يكون غير الكريم، فإذا أراد ركوب الناقة الكريمة ضرب أنفه بالرمح، أو غيزه حتى يرتدع وينكف.

فأعْلَمَاه بما قدما له، وقالا: إنْ فعلتَ كَتَبَ باذان فيك إلى كسرى وإنْ أبيتَ فهو يهلكك ويهلك قومك. فقال لهما رسولُ الله ﷺ؛ ارجعا حتى تأتيان غداً.

وأتى رسولُ الله ﷺ الخبر من السماء إنّ الله قد سلّط على كسرى ابنه شيرويه فقتله في شهر كذا وليلة كذا فدعاهما رسول الله ﷺ وأخبرهما بقتل كسرى. وقال لهما: قولا له إنّ ديني وسلطاني سيبلغ ملك كسرى وينتهي منتهى الخف والحافر. وأمرهما أن يقولا لباذان: أسلِم فإن أسْلَمَ أقرّه على ما تحت يده وأملكه على قومه. ثمّ أعطى خرخسره منطقة ذهب وفضة أهداها له بعض الملوك. وخرجا فقدما على باذان وأخبراه الخبر فقال: والله ما هذا كلام ملك وإني لأراه نبياً ولننظرن فإنْ كان ما قال حقاً فإنه لنبي مُرسل، وإن لم يكن فنرى فيه رأينا. فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه يخبره بقتل كسرى وأنّه قتله غضباً للفرس لما استحل من قتل أشرافهم ويأمره بأخذ الطاعة له باليَمَن وبالكف عن النبي ﷺ. فلمّا أتاه كتاب شيرويه أسلم وأسلم معه أبناء من فارس، وكانت حِمْير تسمي خرخسره صاحب المعجزة بلغة حمير المنطقة.

وأما هوذة بن علي، فكان ملك اليمامة، فلمّا أتاه سليط بن عمرو يدعوه إلى الإسلام وكان نصرانياً أرسل إلى النبيّ ﷺ وفداً فيهم مُجاعة بن مرارة والرّجال بن عنفوة يقول له: إنْ جعل الأمر له من بعده أسلم وسار إليه ونصره وإلاّ قصد حربه. فقال رسولُ الله ﷺ: «لا ولا كرامة، اللهمّ اكفنيه». فمات بعد قليل.

وأما مجاعة والرجال فأسلموا وأقام الرجال عند رسول الله ﷺ حتى قرأ سورة البقرة وغيرها وتفقه وعاد إلى اليمامة فارتدّ، وشهد أنّ رسول الله أشرك مسيلمة معه فكانت فتنته أشد من فتنة مسيلمة.

وأما المنذر بن ساوى والي البحرين، فلمّا أتاه العلاء بن الحضرمي يدعوه ومن معه بالبحرين إلى الإسلام أو الجزية، وكانت ولاية البحرين للفرس، فأسلم المنذر بن ساوى وأسلم جميع العرب بالبحرين. فأما أهل البلاد من اليهود والنصارى والمجوس فإنهم صالحوا العلاء والمنذر على الجزية من كلّ حالم دينار، ولم يكن بالبحرين قتال إنما بعضهم أسلم وبعضهم صالح».

## الفصل التاسع
# غزوات السنة السابعة للهجرة

بدأت السنة السابعة للهجرة بعد أن كان صلح الحديبية قد وُقّع بين النبيّ ﷺ ومكّة. لذلك انطلق المسلمون في غزوات خارجية كان أهمها فتح خيبر وغالبية سكانها من اليهود الذين حاربوا النبيّ ﷺ وأقاموا تحالفات مع أعدائه خاصة قبائل غطفان. والتحقت بالرسول ﷺ جماعة من المسلمين كانوا قد هاجروا إلى الحبشة.

كما غزا الرسول ﷺ وادي القرى، وأرسل سرية بقيادة أبي بكر إلى بني فزارة، وأخرى بقيادة عمر بن الخطاب إلى تُرَبة، وسرية بقيادة عبد الله بن رواحة إلى يسير بن رازم اليهودي، وأخرى بقيادة بشير بن سعد إلى بني مرة. وثلاث سرايا أخرى إحداها مع أبي حدرد إلى الغابة، والثانية إلى إطم، والثالثة بقيادة عبد الله بن حذافة السهمي.

خلال هذا العام قضى الرسول عمرة القضاء فدخل مكّة في ذي القعدة في الشهر الحرام وفق رواية ابن إسحاق الذي نقل عنه ابن كثير الرواية التالية:(١)

«قال ابن إسحاق: فلما رجع رسول الله ﷺ من خيبر إلى المدينة أقام بها شهري ربيع وجماديين ورجباً وشعبان وشهر رمضان وشوالاً يبعث فيما بين ذلك سراياه. ثمّ خرج من ذي القعدة في الشهر الذي صدّه فيه المشركون معتمراً عمرة القضاء، مكان عمرته التي صدّوه عنها. قال ابن هشام: واستعمل على المدينة عُوَيف بن الأضبط الدؤلي، ويقال لها: عمرة القصاص لأنهم صدوا رسول الله ﷺ في ذي القعدة في

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

الشهر الحرام من سنة ست، فاقتصّ رسول الله ﷺ منهم فدخل مكّة في ذي القعدة في الشهر الحرام الذي صدّوه فيه من سنة سبع. بلغنا عن ابن عبّاس أنه قال: فأنزل الله تعالى في ذلك ﴿وَالحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾. وقال معتمر بن سليمان عن أبيه في مغازية: لما رجع رسول الله ﷺ من خَيْبر أقام بالمدينة، وبعث سراياه حتّى استهلّ ذي القعدة فنادى في الناس أن تجهّزوا للعمرة، فتجهّزوا وخرجوا إلى مكّة.

وقال ابن إسحاق: وخرج معه المسلمون ممّن كان صُدّ معه في عمرته تلك، وهي سنة سبع. فلمّا سمع به أهل مكّة خرجوا عنه، وتحدّثت قريش بينها أنّ محمّداً في عسرة وجهد وشدّة. قال ابن إسحاق: فحدّثني من لا أتهم عن عبد الله بن عبّاس قال: صفّوا له عند دار النّدوة لينظروا إليه وإلى أصحابه، فلمّا دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع[1] بردائه وأخرج عضده اليمنى ثمّ قال: «رَحِمَ اللَّهُ امْرأً أَرَاهُمُ اليَوْمَ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً». ثمّ استلم الركن، ثمّ خرج يهرول أصحابه معه حتى إذا واراه البيت منهم، واستلم الركن اليماني، مشى حتّى يستلم الركن الأسود، ثمّ هرول كذلك ثلاثة أطواف، ومشى سائرها، فكان ابن عبّاس يقول: كان النّاس يظنّون أنّها ليست عليهم وذلك أن رسول الله ﷺ إنّما صنعها لهذا الحيّ من قريش، للذي بلغه عنهم حتّى حجّ حجّة الوداع، فلزمها فمضت السنة بها».

### أ - فتح خيبر:

كانت المدينة مركزاً لقبائل يهودية ثلاث، كما سبق القول، وهي قبائل «قريظة وقينقاع والنضير»، وقد رأينا أن هذه القبائل عملت ضدّ النبيّ ﷺ والمسلمين من داخل المدينة ممّا أدى إلى إخراج أفرادها منها ضمن استراتيجية توحيد جهود كلّ القاطنين فيها تمهيداً لنشر الإسلام خارجها.

### ١ - ظروف الغزوة:

إلاّ أن اليهود الذين خرجوا من المدينة استوطنوا واحة خيبر، حيث تابعوا رسم

---

(١) اضطبع بردائه: ادخل بعضه تحت عضده الأيمن، وجعل طرفه على منكبه الأيسر.

مؤامراتهم ضد المسلمين، كما راحوا ينتظرون فرصة سانحة للانقضاض على المدينة بالتعاون مع حلفائهم من العرب، خاصة قبائل غطفان.

وكان الرسول ﷺ يعلم تمام العلم ما يجري في خيبر، لكنه آثر اتباع السياسة واللين بدل الشدّة والعنف في استمالة سكّان خيبر إلى رسالته. غير أن رؤساء اليهود وحلفاءهم من غطفان وغيرهم أصمّوا آذانهم عن النداءات. لذلك قرّر الرسول ﷺ غزو واحتهم، خاصة للانتهاء من هذا الخطر القريب قبل الانتقال إلى الفتوحات الكبرى لبلاد الشام والعراق.

## ٢ - التحضير للغزوة:

بعد أن عاد رسول الله ﷺ من الحديبية أقام في المدينة حوالى عشرين يوماً من ذي الحجة وبداية المحرم. وفي النصف الثاني من المحرم نادى المنادي بالاستعداد لغزوة خيبر، على أن لا يخرج إلاّ من شهد الحديبية من المسلمين. ومن أراد أن يخرج ممّن لم يشهد الحديبية فليكن متطوّعاً لا يفيد من الغنائم.

تقع خيبر إلى الشمال من المدينة، وتبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام، وهي واحة تكثر فيها المياه وأشجار النخيل، وتتوزع بيوتها بين تلال صغيرة أقيمت على رؤوسها حصون قوية للمتموّلين من سكانها، وأحيطت بأسوار عالية تقفل أبوابها ويصعب اجتيازها، في زمن لم يكن المسلمون قد عرفوا فنون الحصار.

سار الرسول ﷺ نحو خيبر في ألف وأربعمائة مقاتل، بينهم مائتا فارس. واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري،[١] وحمل راية المسلمين علي بن أبي طالب.

## ٣ - خطط الغزوة:

سلك المسلمون طريق العصر، فالصهباء، وكانوا يستريحون بعد مسيرة كلّ يوم.

وعند الوصول إلى جوار خيبر رأى الرسول ﷺ أن ينزل في منطقة تدعى «الرّجيع»[٢] تقع على الطريق بين خيبر

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٩٩.
- أما ابن كثير فيرى أنه استخلف على المدينة «غيلة بن عبد الله الليثي».
(٢) الرجيع هو ماء لهذيل بين مكّة والطائف.

ومساكن غطفان، وذلك كي يحول دون اجتماع الفريقين على محاربته.[1]

رافق الحملة قسم من نساء المقاتلين لمساعدة الجيش في إعداد الطعام ولإسعاف الجرحى ودبّ الحماس في نفوس المجاهدين.

وكانت الحملة قد وصلت إلى مشارف خيبر، وعند الصباح أخذ الرسول ﷺ ينظم صفوف المجاهدين تمهيداً لمهاجمة حصون أعدائه.

أما اليهود في خيبر، فانقسمت آراؤهم بين داعٍ لاستنفار اليهود في كامل شبه الجزيرة العربية، وداعٍ إلى المهادنة. إلاّ أن الرأي الذي اعتمد قضى بالتحصّن داخل خيبر وحصونها وخوض معركة شرسة مع المسلمين. كما وضع المخطّطون خطّة تقضي بتحريك غطفان ومهاجمة المسلمين من الخلف وحصرهم بين قوّتين.[2]

هذه الخطّة اعتمدت قبل وصول قوّة المسلمين إلى جوار خيبر، كما عمد قائد اليهود، سلام بن مشكم، إلى توزيع عناصره على جميع حصون خيبر.

### ٤ - القتال:

تمركز جيش المسلمين مقابل خيبر التي فوجيء سكانها بوصوله إذ أن عمّال المزارع خرجوا ودخلوها مذعورين وأغلقوا أبوابها.

أمّا بنو غطفان، فكانوا قد جمعوا جموعهم لمساعدة اليهود وجنّدوا جيشاً كبيراً واتجهوا نحو خيبر لأخذ المسلمين من الوراء. ولمّا أصبح جيشهم على مقربة من جيش المسلمين، خرَج بعض مقاتلي هؤلاء من المهاجرين والأنصار والتفوا عليهم من الوراء ثمّ راحوا يحدثون ضجيجاً كأنّ قسماً من الجيش قد اتجه لمهاجمة غطفان من الخلف.

ظنّ بنو غطفان أن جيشاً آخَرَ من المسلمين يحاصرهم من الوراء فجمعوا جموعهم وأقفلوا راجعين إلى منازلهم من دون أن يتدخّلوا في حرب المسلمين.[3]

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٣٥.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٩٨.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٣٥.

وهكذا تمكّن النبيّ ﷺ، باستعماله هذه الاستراتيجية الجديدة في القتال، من تحييد قسم كبير من أعدائه من دون أن يضطر إلى قتالهم.

كتب ابن الأثير عن بداية المعركة ما يلي:(١)

«لمّا عاد رسول الله ﷺ من الحديبية أقام بالمدينة ذا الحجة وبعض المحرم وسار إلى خَيْبر في ألف وأربعمائة رجل معهم مائتا فارس، وكان مسيره إلى خيبر في المحرم سنة سبع. واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري، فمضى حتّى نزل بجيشه بالرجيع ليحول بين أهل خيبر وغطفان لأنهم كانوا مظاهرين لهم على رسول الله ﷺ. وقصدت غطفان خيبر ليظاهروا يهود عليه، ثمّ خافوا المسلمين أنْ يخلفوهم في أهليهم وأموالهم فرجعوا ودخلوا بين رسول الله ﷺ ويهود. فلمّا أشرف عليها قال لأصحابه: قفوا. ثمّ قال: «اللهمّ ربّ السموات وما أظللن، وربّ الأرضين وما أقللن، وربّ الشياطين وما أضللن، وربّ الرياح وما أذرين، نسألك خير هذه القرية وخير ما فيها ونعوذ بك من شرّها وشرّ أهلها وشرّ ما فيها اقدموا بسم الله»، وكان يقول ذلك لكلّ قرية يقدمها. ونزل على خيبر ليلاً ولم يعلم أهلها فخرجوا عند الصباح إلى عملهم بمساحيهم ومكاتلهم فلمّا رأوه عادوا وقالوا: «محمّد، والله محمّد والخميس معه» - يعنون الجيش. فقال النبيّ ﷺ: «اللّه أكبر. خَربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، (فساء صباح المنذرين) ثلاثاً».

أما ابن كثير فقد كتب عن الموضوع نفسه:(٢)

«قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ حين خرج من المدينة إلى خَيْبر سلك على عِصْر وبنى له فيها مسجداً، ثمّ على الصّهباء ثمّ أقبل بجيشه حتّى نزل به بواد يقال له: الرجيع، فنزل بينهم وبين غطفان، ليحول بينهم وبين أن يمدّوا أهل خيبر، كانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ. فبلغني أنّ غطفان لما سمعوا بذلك جمعوا، ثمّ خرجوا ليظاهروا اليهود عليه، حتّى إذا ساروا منقلة، سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حسّاً،

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٩٩.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٩٨ - ١٩٩.

ظنّوا أن القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا في أموالهم وأهليهم، وخلّوا بين رســـول الله ﷺ وبين خَـــيْـــبر. وقـــال البخاري: حدّثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك، عن يحيى بن سعيد، عن بُشير: أن سويد بن النعمان أخبره أنه خرج مع رسول الله ﷺ عام خيبر، حتّى إذا كانوا بالصّهباء - وهي من أدنى خَيْبر - صلّى العصر، ثمّ دعا بالأزواد فلم يؤت إلاّ بالسويق، فأمره به فثرّي فـأكـل وأكـلـنـا، ثـمّ قـام إلى المغـرب فمضمض ثمّ صلّى ولم يتوضأ».

وقبل أن يبدأ القتال، وقف النبيّ ﷺ بين المسلمين ونهاهم عن محرّمات منها: عدم أكل لحوم الحمير الداجنة وكلّ حيوان ذي ناب من السباع وعدم قتل النساء أو بيع الغنائم.

بـعـد ذلك اخـتـار الـرسـول ﷺ أحـد حصون خيبر المنفردة وأعطى الأمر بمهاجمته واسـمـه حصـن «ناعم»، فحاصروه وضيّقوا عليه ممّا أدّى إلى فتح بابه وخروج اليهود منه قصـداً لـلـقـتـال فـقـتـلـوا جـمـيـعـهـم واحتـلّ المسلمون الحصن.[١]

أمّا ابن كثير فروى بـدايـة الـقـتـال كما يلي:[٢]

«وقال البيهقي: أنبأنا الحاكم، أنبأنا الأصم، أنبأنا الـعـطاردي، عن يونس بن بكير، عن الحسين بـن واقـد، عـن عـبـد الله بـن بـريـدة أخبرني أبي قال: لما كان يوم خَيْبر أخذ اللواء أبو بكر فرجع ولم يفتح له، وقتل محمود بن مسلَمة ورجع الناس، فقال رسول الله ﷺ: **«لأدْفَعَنَّ لِوَائِي غَداً إِلَى رَجُلٍ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، لَنْ يَرْجِعَ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ لَهُ»**، فبتنا طيبة نفوسنا أن الـفـتـح غـداً، فصـلّى رسـول الله ﷺ صـلاة الغداة، ثمّ دعا باللواء، وقام قائماً فما منّا من رجل له منزلة من رسول الله ﷺ إلاّ وهو يرجو أن يكون ذلك الرجل، حتى تطاولتُ أنا لها ورفعت رأسي لمنزلة كانت لي منه. فدعا علي بن أبي طالب وهو يشتكي عينيه قال: فمسحها، ثمّ دفع إليه اللواء ففتح له،

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٠٠.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٠٣.

فسمعت عبد الله بن بريدة يقول: حدّثني أبي أنّه كان صاحب مرحب.

قال يونس، قال ابن إسحاق: كان أول حصون خَيْبر فتحاً حصن ناعم، وعنده قُتِل محمود بن مسلَمة ألقيت عليه رحىً منه فقتلته».

أمّا الطبري فقد نقل تفاصيل قتال علي على باب الحصن تمهيداً لفتحه فكتب:(١)

«حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمّد بن إسحاق، عن عبد الله بن الحسن؛ عن بعض أهله، عن أبي رافع مولَى رسول الله ﷺ، قال: خرجنا مع عليّ بن أبي طالب حين بعثَهُ رسولُ الله ﷺ برايته، فلمّا دنا مِن الحِصْن خرج إليه أهلُه؛ فقاتلهم فضربه رجل من اليهود، فطرح تُرْسَه من يده. فتناول عليٌّ رضي الله عنه باباً كان عند الحصن، فتترّس به عن نفسه، فلم يزل في يدِه وهو يقاتل؛ حتّى فتح الله عليه؛ ثمّ ألقاه من يده حين فرغ؛ فلقد رأيتُني في نفر سبعة أنا ثامنهم، نجهد على أن نَقْلِبَ ذلك الباب فما نَقلِبُه».

وهكذا، وبنهاية اليوم العاشر من القتال، كان المسلمون قد فتحوا أول حصون خيبر.

وفي الأيام التالية جرت مبارزات فردية أمام أحد الحصون قتل فيها بعض اليهود قبل أن يهاجم المسلمون الحصن ويحتلّونه.

وراحت حصون خيبر تسقط الواحد تلو الآخر بعد معارك شرسة، فسقط حصن القموص الشهير.

أخيراً بقي أمام المسلمين حصْنان متصلان ببعضهما البعض كأنهما حصن واحد، هما: الوطيح والسلالم، وهما الحصنان اللذان وضعت فيهما النساء والأولاد والأموال.

أما حصن القموص الذي سقط فكان فيه نساء أشراف من اليهود وبعض كبارهم، لذلك كان حصاره من أشدّ ما واجه المسلمون من مقاومة. وبعد سقوطه، وقعت نساء من اليهود أسرى بين أيدي المسلمين فاختار الرسول ﷺ لنفسه صفية بنت حيّي بن أخطب ووضع عباءته عليها فعرف المسلمون أنه اختارها لنفسه.

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٣٧.

روى الطبري قصّة سقوط حصن القموص كما يلي:[(١)]

«حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، قال: ولما فَتح رسولُ الله ﷺ القَمُوص، حصن ابن أبي الحُقَيق، أتيَ رسول الله بصفيّة بنت حُيّي بن أخطب، وبأخرى معها؛ فمرّ بهما بلال - وهو الذي جاء بهما - على قتلى من قتلى يهود. فلمّا رأتهم التي مع صفيّة صاحت وصَكّتْ وجهها، وحثت التراب على رأسها. فلمّا رآها رسولُ الله ﷺ قال: أغربوا عنّي هذه الشيطانة، وأمر بصفيّة فجهزت خلْفَه، وألقيَ عليها رداؤُه، فعرف المسلمون أنّ رسول الله ﷺ قد اصطفاها لنفسه. فقال رسولُ الله ﷺ لبلال - فيما بلغني - حين رأى من تلك اليهودية ما رأى: أنُزِعَتْ منك الرحمة يا بلال؛ حيث تمرُّ بامرأتين على قتلى رجالهما! وكانت صفيّة قد رأت في المنام وهي عروسٌ بكنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيق؛ أن قمراً وقع في حجرها؛ فعرضت رؤياها على زوْجها فقال: ما هذا إلاّ أنّك تمنّيْن ملك الحجاز محمّداً. فلطَم وجهَها لطمةً اخضرَّتْ عينها منها؛ فأتِيَ بها رسول الله ﷺ وبها أثرٌ منها، فسألها: ما هو؟ فأخبرته هذا الخبر».

**سقوط آخر حصنين:**

حاصر جيش المسلمين حصني الوطيح والسلالم حصاراً شديداً مدّة خمسة عشر يوماً اجتمع بنهايتها رؤساء اليهود وتشاوروا في أمرهم وقرروا تسليم الحصنين بعد أن رأوا ماذا حلّ بباقي الحصون.

وبالفعل، طلب اليهود من الرسول ﷺ تسلّم الحصنين سلماً بدون قتال فقبل طلبهم، وعاهدهم بعد ذلك على البقاء في حصونهم لقاء حصول المسلمين على نصف غلّة خيبر.

وجاء ذلك ضمن إطار استراتيجية النبيّ ﷺ في إبقاء المزارعين من أبناء المناطق المفتتحة في أرضهم يستغلّونها لقاء ضريبة من الأرزاق يدفعونها لبيت المال، نظراً لأن العرب اعتبروا أنفسهم، خلال

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٣٧.

الفتوحات الكبرى، طبقة عسكرية مميّزة يتعاطى أفرادها القتال وليس أعمال التجارة والمال والاقتصاد. وهذه الميزة العسكرية رافقت الجيوش العربية في مختلف مراحل التوسّع وضمّ المناطق الجديدة إلى أرض الإسلام.

روى ابن الأثير قصّة سقوط الوطيح والسلالم فكتب:(١)

«وحاصر رسول الله ﷺ حصني أهل خيبر الوطيح، والسلالم، فلمّا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيّرهم ويحقن دماءهم فأجابهم إلى ذلك. وكان قد حاز الأموال كلّها الشق ونطاة، والكتيبة، وجميع حصونهم، فلمّا سمع بذلك أهل فدْك بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يُسيِّرهم ويخلون له الأموال ففعل ذلك. ولمّا نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله ﷺ أن يعاملهم في الأموال على النصف، وأن يخرجهم إذا شاء فساقاهم على الأموال على الشرط الذي طلبوا وفعل مثل ذلك أهل فدك، وكانت خيبر فَيْئاً للمسلمين. وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب».

أما البلاذري، فاختصر الغزوة بأسطر قليلة فكتب:(٢)

«قالوا غزا رسول الله ﷺ خيبر في سنة ٧ فطاوله أهلها وماكثوه وقاتلوا المسلمين، فحاصرهم رسول الله ﷺ قريباً من شهر ثمّ انّه صالحوه على حقن دمائهم وترك الذُرِّيّة على أن يجلوا ويُخَلُّوا بين المسلمين وبين الأرض والصفراء والبيضاء والبزَّة إلاّ ما كان منها على الأجساد، وأن لا يكتموه شيئاً. ثمّ قالوا لرسول الله ﷺ: إنّ لنا بالعمارة والقيام على النخل علماً فأقِرَّنا فاقرَّهم رسول الله ﷺ وعاملهم على الشطر من الثمر والحبّ، وقال أُقِرُّكم ما اقرَّكم الله. فلمّا كانت خلافة عمر بن الخطّاب «رضي الله عنه» ظهر فيهم الوباء وتعبَّثوا بالمسلمين فأجلاهم عمر وقسم خيبر بين من كان له فيها سهم من المسلمين. حدّثني الحسين بن الأسود قال

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٠٢.

(٢) البلاذري، مرجع سابق، ص ٣٣ - ٣٤.

حدّثنا يحيى بن آدم قال: حدّثنا زياد بن عبد الله بن طُفَيل عن محمّد بن إسحاق[1] قال: سألتُ ابن شهاب عن خَيْبَر فأخبرني أنّه بلغه أنّ رسول الله ﷺ افتتحها عنوة بعد القتال وكانت ممّا أفاءَ الله على رسوله ﷺ، فخمّسها رسول الله ﷺ وقسمها بين المسلمين. ونزل من ترك[2] من أهلها على الجلاء فدعاهم رسول الله ﷺ إلى المعاملة ففعلوا. وحدّثني عبد الأعلى بن حمّاد النَّرْسي قال: حدّثنا حمّاد بن سلَمة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر قال: أتى رسول الله ﷺ أهل خيبر فقاتلهم حتّى ألجأهم إلى قصرهم وغلبهم على الأرض والنخل وصالحهم على أن يحقن دماءَهم ويجلوا ولهم ما حملت ركابهم ولرسول الله ﷺ الصفراءُ والبيضاءُ والحلقة. واشترط عليهم أن لا يكتموا ولا يغيّبوا شيئاً، فإن فعلوا فلا ذمّة لهم ولا عهد. فغيّبوا مَسْكاً فيه مال وحلي لحُيَي بن أخْطَب وكان احتمله معه إلى خَيْبَر حين أجليت بنو النضير».

**٥ - نتائج الغزوة:**

كان لغزوة خيبر نتائج مهمّة بالنسبة للمسلمين. فهي اعتبرت أقوى قرية في الحجاز، لذلك اعتبر فتحها من أهم إنجازات المسلمين العسكرية التي حصلت قبيل فتح مكّة. كما اعتبر هذا الفتح مقدّمة لمعارك لاحقة اعتبرت تمهيدية لفتح مكّة وللانطلاق إلى مرحلة توحيد شبه الجزيرة العربية بقيادة النبيّ ﷺ، لولا وفاته المبكرة.

لذلك ساهم الانتصار في معركة خيبر في رفع معنويات المسلمين وفي الحطّ من معنويات قريش التي كانت تتابع أخبار القتال وتراهن على أن النصر سيكون لليهود. لذلك، عندما علم كبارها بنصر المسلمين، فتّ ذلك في عضدهم وأثّر في معنوياتهم تأثيراً كبيراً سيكون له وقع في معركة فتح مكّة.

من الناحية الاقتصادية، وزّع الرسول ﷺ غنائم الحرب على المسلمين بعد فتح خيبر، كما أنه قسّم محاصيلها الزراعية بينهم

(١) راجع ابن هشام: ص ٧٧٩.

(٢) وفي رواية أخرى: وترك من ترك.

فارتاح المسلمون إلى هذه النتيجة التي ساهمت في تمكين اقتصاد المدينة.

من جهة أخرى، ساهم انتصار خيبر في دفع عدد من قبائل العرب إلى التقرّب من المسلمين وعدم مقاومة انتشار الدين الجديد. وأول الغيث كان في «فدك» وأم القرى وغيرها.

وبالفعل، بقي اليهود في خيبر ووادي القرى وفدك يهتمون بمزارعهم ويدفعون نصف محاصيلها للمسلمين وفقاً لعهدهم مع الرسول ﷺ طيلة حياة النبي ﷺ وخلافة أبي بكر.

أما شهداء المسلمين في خيبر، فقد نقل ابن كثير أسماءهم فكتب:(١)

«على ما ذكره ابن إسحاق بن يسار رحمه الله وغيره من أصحاب المغازي.

فمن خير المهاجرين: ربيعة بن أكثم بن سَخْبرة الأسدي مولى بني أمية، وثقيف بن عمرو، ورفاعة بن مسروح حلفاء بني أمية، وعبد الله بن الهبيب بن أهيب بن سحيم ابن غيرة من بني سعد بن ليث، حليف بني أسد وابن أختهم. ومن الأنصار بشر بن البراء بن معرور من أكلة الشاة المسمومة مع رسول الله ﷺ كما تقدّم، وفضيل بن النعمان السلميّان، ومسعود بن سعد بن قيس بن خالد بن عامر بن زريق الزرقي، ومحمود بن مَسْلمة الأشهلي، وأبو ضياح حارثة بن ثابت بن النعمان العمري، والحارث بن حاطب، وعروة بن مرة سراقة، وأوس الفائد وأنيف بن حبيب، وثابت بن أثْلة وطلحة، وعُمارة بن عُقْبة رمي بسهم فقتله، وعامر بن الأكوع، ثمّ سلمة بن عمرو بن الأكوع أصابه طرف سيفه في ركبته فقتله رحمه الله كما تقدّم، والأسود الراعي. وقد أفرد ابن إسحاق ها هنا قصته وقد أسلفناها في أوائل الغزوة ولله الحمد والمنّة.

قال ابن إسحاق: وممن استشهد بخيبر فيما ذكره ابن شهاب من بني زهرة: مسعود ابن ربيعة حليف لهم من القارة، ومن الأنصار ثمّ من بني عمرو بن عوف أوس بن قَتَادة رضي الله عنهم أجمعين».

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٣٢ - ٢٣٣.

٦ - **الدروس المستقاة:**

أ - لمّا كانت واحة خيبر تشكّل خطراً عسكرياً على المسلمين، قرّر النبيّ ﷺ مهاجمتها وإخضاعها قبل إرسال الجيوش الإسلامية إلى خارج شبه الجزيرة للقيام بالفتوحات الكبرى.

وتوحيد الجبهة الداخلية قبل القيام بعمليات عسكرية خارجية هو ضرورة أساسية، وذلك خوفاً من تحوّل العدو الداخلي إلى طابور خامس يعمل داخل الخطوط الصديقة لمصلحة أعداء الأمّة.

ب - ولّما كان أعداء الداخل موزعين بين خيبر ومساكن غطفان، فقد خطّط الرسول ﷺ للنزول في منطقة بينهما لمنع اجتماعهما لحربه. وهذا التمركز يتخذ عادة تمهيداً لتطبيق خطّة المناورة بالخطوط الداخلية التي تقضي بالآتي:

- مهاجمة العدو الأقوى بعنف وحدّة بهدف وضعه خارج القتال، فيما تقوم وحدات صغيرة بتثبيت الأعداء الباقين ومنعهم من نجدة العدو المهاجَم أو القيام بعمليات هجومية ضد القوّة الصديقة التي تنفذ الهجوم.
- بعد هزيمة العدو الأول، الانتقال تباعاً لمهاجمة باقي الأعداء باتباع الخطة نفسها.

ج - اصطحب الرسول ﷺ بضعة من نساء المقاتلين لدبّ الحماس في نفوس أزواجهنّ وتنفيذ المهام اللوجستية والتموينية للجيش الإسلامي. وهذا التدبير أثبت صوابيته خلال معارك الجاهلية وصدر الإسلام.

د - طبّق النبيّ ﷺ استراتيجية إيهام بني غطفان بأن جيشاً مسلماً يهاجمهم من الوراء، وذلك باصطناع الضجيج من قبل مفرزة صغيرة من المسلمين. نجحت هذه الخطة فغادر بنو غطفان مكان المعركة دون المشاركة فيها.

وهكذا أحسن المسلمون تطبيق مبدأي الحرب الثاني: (حرية العمل) والثالث: (الحصيل الأقصى للوسائل)، دون بذل جهد كبير في سبيل ذلك.

هـ - بلغ جيش المسلمين خيبر دون أن يشعر أهلها باقترابه مستفيداً من عنصر المفاجأة.

و - قبيل المعركة ضد خَيبر أعطى القائد العام النبيّ محمّد ﷺ أوامره التحضيرية

للمعركة موصياً بعدم أكل لحوم الحمير وكلّ حيوان ذي ناب وعدم قتل النساء أو بيع الغنائم، وكلّها وصايا أصبحت في تقاليد الحرب لدى المسلمين.

ز - ولمّا كانت حصون خيبر محصّنة جيداً وموزّعة على التلال، فقد استعمل النبيّ ﷺ في قتاله ضدهم استراتيجية المناورة بالخطوط الداخلية التي شرحنا خطوطها في هذه الفقرة، فلم يهاجمها جميعها بنفس الوقت، بل هاجم الحصن تلو الآخر فراحت الحصون تسقط تباعاً، إلى أن تملّكها المسلمون ووضعوا سكانها خارج القتال. أما الحصنان الأخيران، فقد فاوض النبيّ ﷺ سكانهما وقَبِل بإبقائهم فيهما مقابل حصول المسلمين على نصف غلّة خيبر.

وقد شرحنا سبب قبول النبيّ ﷺ بهذا التدبير خلال حديثنا عن مجرى المعركة.

ح - أعطت معركة خيبر نصراً معنوياً للمسلمين فيما دبّ الذعر في نفوس أعدائهم الذين راحوا يستسلمون أحياناً دون قتال. فالتأثير المعنوي للمعركة قد يفوق أحياناً تأثيرها المادي.

**ب - فتح فَدك ووادي القرى وتيماء:**

بعد سقوط خيبر اتجهت أنظار الرسول ﷺ إلى باقي المناطق التي نزلها اليهود، وأقربها إلى خيبر فدك. لذلك أرسل مُحيصة بن مسعود إلى أهل فدك يدعوهم إلى الإسلام، وكان رئيسهم يومذاك يوشع بن نون.(١)

أما الطبري، فروى رواية أخرى عن فتح فدك:(٢)

«لمّا فرغ رسول الله ﷺ من خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك حين بلغهم ما أوقع الله بأهل خيبر، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك، فقدمت عليه رسلهم بخيبر أو بالطائف، وإما بعد ما قدم المدينة، فقبل منهم ذلك؛

---

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ٤١.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٤٠.

فكانت فدك لرسول الله ﷺ خاصة، لأنه لم يُوجف[1] عليها بخيل ولا ركاب».

أمّا وادي القرى التي يقطنها اليهود أيضاً، فقد فتحت عنوة. فبعد أن خرج المسلمون من خيبر إلى وادي القرى، قام يهودها بإطلاق الأسهم عليهم مما أدى إلى مقتل عبد أسود اسمه «مِدعم» كان قد وهبه رفاعة الجذامي للنبيّ ﷺ.

وجاءت الرواية المفصلة لعملية فتح وادي القرى بقلم ابن كثير الذي رواها كما يلي:[2]

«قال الواقدي: حدّثني عبد الرّحمن بن عبد العزيز عن الزهري، عن أبي سلَمة، عن أبي هريرة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ من خَيْبر إلى وادي القُرى. وكان رفاعة بن زيد بن وهب الجذامي قد وهب لرسول الله ﷺ عبداً أسود يقال له: مِدْعم، وكان يرحل لرسول الله ﷺ. فلمّا نزلنا بوادي القرى انتهينا إلى يهود، وقدم إليها ناس من العرب. فبينا مدعم يحط رحل رسول الله ﷺ وقد استقبلتنا يهود بالرّمي حين نزلنا، ولم نكن على تعبية، وهم يصيحون في آطامهم، فيقبل سهم عاثر فأصاب مِدْعماً فقتله.

قال الواقدي: فعبّى رسول الله أصحابه للقتال وصفّهم، ودفع لواءه إلى سَعْد بن عُبَادة، وراية إلى الحُباب بن المُنذر، وراية إلى سَهْل بن حنيف، وراية إلى عبّاد بن بِشر، ثمّ دعاهم إلى الإسلام وأخبرهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم، وحسابهم على الله. قال: فبرز رجل منهم فبرز إليه الزبير بن العوّام فقتله، ثمّ برز آخر فبرز إليه عليّ فقتله، [ثمّ برز آخر فبرز إليه أبو دجانة فقتله] حتّى قُتل منهم أحد عشر رجلاً، كلّما قتل منهم رجلاً دعا من بقي منهم إلى الإسلام. ولقد كانت الصلاة تحضر ذلك اليوم فيصلي بأصحابه، ثمّ يعود فيدعوهم إلى الإسلام، وإلى الله عزّ وجلّ ورسوله. وقاتلهم حتّى أمسى، وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا بأيديهم، وفتحها عنوة وغنمه الله أموالهم وأصابوا أثاثاً

(١) لم يوجف: أي لم يسر سير الرجيف - وهو نوع من السير.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

ومتاعاً كثيراً. وأقام رسول الله ﷺ بوادي القرى أربعة أيام، فقسّم ما أصاب على أصحابه، وترك الأرض والنخيل في أيدي اليهود وعاملهم عليها. فلمّا بلغ يهود تيماء ما وطيء به رسول الله ﷺ خيبر وفَدَك ووادي القُرى، صالحوا رسول الله ﷺ على الجِزية، وأقاموا بأيديهم أموالهم. فلمّا كان عُمَر أخرج يهود خيبر وفدك، ولم يخرج أهل تيماء ووادي القُرى لأنهما داخلتان في أرض الشام، ويرى أن ما دوّن وادي القرى إلى المدينة حجاز، ومن وراء ذلك من الشام. قال: ثمّ انصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة بعد أن فرغ من خيبر ووادي القرى وغنّمه الله عزّ وجلّ».

### ج - غزوات وسرايا أخرى:

أرسل الرسول ﷺ سرايا عدّة بعد فتح خيبر نذكر أهمها:(١)

١ - سرية أبي بكر الصديق إلى بني فزارة التي سارت إلى أن بلغت ماءً لفزارة وشنّت غارة على القبيلة كانت نتيجتها قتل من ورد الماء المذكور من بني فزارة وأَسْر بعضهم مع بعض النسوة، بادلهم الرسول ﷺ بأسرى للمسلمين كانوا لدى بني فزارة.

٢ - سرية عمر بن الخطاب إلى تُرَبة:(٢)

أرسل النبيّ ﷺ ثلاثين راكباً بقيادة عمر بن الخطاب ومعه دليل من بني هلال لقتال هوازن. وكانوا يسيرون ليلاً ويكمنون نهاراً. فلمّا وصلوا إلى بلاد هوازن هربت القبيلة فعاد عمر إلى المدينة.

٣ - سرية عبد الله بن رواحة إلى يسير بن رازم اليهودي، وعديدها ثلاثين راكباً، وقد جاؤوه في خيبر. وكان قد بلغ النبيّ ﷺ أن يسير يجمع غطفان ليغزوه بهم.

بلغت السرية خيبر حيث جرى قتال قتل خلاله ثلاثون رجلاً من اليهود، وفق ابن

---

(١) عن ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٣٩ - ٢٤٥.
وابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٠٦ - ١٠٧.
والطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٤١ - ١٤٣.
(٢) تبعد عن مكّة أربعة أميال.

كثير.[1] وانسحب المسلمون من دون أن يصاب أحد منهم.

٤ - سرية بشير بن سعد إلى بني مرّة في أرض فَدَك في ثلاثين رجلاً حيث أصيبت غالبية المسلمين في القتال فعادوا إلى المدينة.[2]

٥ - سرية غالب بن عبد الله إلى أرض بني مرّة في الميفعة حيث قتل أحد بني مرة ورجل من الأنصار.[3]

٦ - سرية غالب بن عبد الله إلى بني عبد ابن ثعلبة في مائة وثلاثين رجلاً. وقد أغارت السرية على بني عبد واستاقت النَّعم إلى المدينة.

٧ - سرية بشير بن سعد إلى يُمن وجناب. وسببها أن جمعاً من غطفان قرّروا في الجناب غزو المدينة، فدعا رسول الله ﷺ بشيراً بن سعد وأرسله بسرية إليهم فأصاب منهم نعماً وشاءً. وقد قتل بشير خلال هذه السرية.

٨ - سرية أبي حدرد إلى الغابة. وكان قد بلغ النبيّ ﷺ أن بعضاً من جُشَم يجمعون جمعاً لمقاتلته، فأرسل أبي حدرد مع بعض المسلمين إلى الغابة حيث جرى قتال قتل خلاله أحد المشركين واستاقت السرية إبلاً وأغناماً إلى المدينة.[3]

### د - عمرة القضاء:

خرج الرسول ﷺ في ذي الحجة معتمداً عمرة القضاء، وخرج معه المسلمون ممن كانوا في عمرته الأولى وذلك مكان عمرته التي صدته عنها قريش، واستعمل على المدينة عُويف بن الأضبط الدؤلي.

وأقام النبيّ ﷺ بمكّة ثلاثة أيام أرسل إليه المشركون بنهايتها مع علي بن أبي طالب ليخرج عنهم فأمر الرسول ﷺ بالرحيل وركب مع المسلمين وتركوا مكّة.

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٤٠.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٤١ - ١٤٢.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٠٦.

## الفصل العاشر
# غزوات السنة الثامنة للهجرة

شهدت السنة الثامنة للهجرة بداية الفتوحات الكبرى وخروج المسلمين إلى شمالي شبه الجزيرة العربية في أوّل وقعة لهم مع البيزنطيين في مؤتة من أرض البلقاء من بلاد الشام. وفي هذه الوقعة استشهد جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة فكانت خسارتهم كبيرة على الإسلام.

وفي هذه السنة تمكن المسلمون من فتح مكّة وتكسير أصنام العرب وتحويل الكعبة إلى الإسلام.

وفيها توفيت زينب بنت الرسول ﷺ وولد إبراهيم ابنه من مارية القبطية. وفيها كان إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة.

لذلك كانت السنة الهجرية الثامنة سنة مفصلية بالنسبة إلى النبي ﷺ والمسلمين.

### أ - سرية غالب بن عبد الله الليثي:

أرسل النبيّ ﷺ سرية بقيادة غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملّوح في صفر في الكديد وأمره أن يغير عليهم. وبالفعل شنّت الغارة فقتل عدد منهم واستولت السرية على النّعم، وعاد مقاتلوها إلى المدينة.

وقد نقل الطبري خبراً كان يحدث قليلاً في شبه الجزيرة العربية وهو أنه، وأثناء عودة السرية، هطل مطر غزير لم يرَ أفراد السرية مثله سابقاً.[1]

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٤٤.

أمّا ابن الأثير فقد روى خبر السرية كما يلي:[1]

«وفيها كانت سرية غالب بن عبد الله الليثي الكلبي إلى كلب الليث إلى بني الملوّح في صفر فلقيه الحارث بن البرصاء الليثي فأخذه أسيراً فقال: إني إنما جئت لأسلم. فقال له غالب: إن كنت صادقاً فلن يضرّك رباط ليلة، وإن كنت كاذباً استوثقنا منك. ووكل به بعض أصحابه وقال له: إن نازعك فخذ رأسه، وأمره بالمقام إلى أن يعود. ثمّ ساروا حتّى أتوا بطن الكديد فنزلوا بعد العصر وأرسلوا جندب بن مكيث الجهني ربيئة لهم، قال: فقصدت تلاً هناك يطلعني على الحاضر فانبطحت عليه فخرج لي منهم رجل فنظر فرآني منبطحاً فأخذ قوسه وسهمين فرماني بأحدهما فوضعه في جنبي. قال: فنزعته ولم أتحرّك. ثمّ رماني بالثاني فوضعه في رأس منكبي. قال: فنزعته ولم أتحرّك. قال: أما والله لقد خالطه سهماي ولو كان ربيئة[2] لتحرّك. قال: فأمهلناهم - حتّى راحت مواشيهم واحتلبوا وعطنوا - شننا عليهم الغارة فقتلنا منهم مَنْ قتلنا واستقنا منهم النعم ورجعنا سراعاً. وأتى صريخ القوم فجاءنا ما لا قبل لنا به حتى إذا لم يكن بيننا إلاّ بطن الوادي من قديد بعث الله عزّ وجلّ من حيث شاء سحاباً ما رأينا قبل ذلك مطراً مثله. فجاء الوادي بما لا يقدر أحد يجوزه، فلقد رأيتهم ينظرون إلينا ما يقدر أحد يتقدّم. وقدمنا المدينة، وكان شعار المسلمين: أمت أمت، وكان عدتهم بضعة عشر رجلاً».

**ب - سرية عمرو بن كعب الغفاري:**

أرسل النبيّ ﷺ عمرو بن كعب الغفاري في خمسة عشر رجلاً إلى بني قضاعة لدعوتهم إلى الإسلام. وكانت منازلهم تقع إلى الشمال من المدينة في ناحية بلاد الشام.

وصلت السرية إلى بني قضاعة ونزلت في بعض أحيائهم ودعتهم إلى اتّباع الهدى، فتشاور بنو قضاعة بأمر الدعوة فرفضها رئيسهم «سدوس» وأمر اتباعه بمهاجمة المسلمين والقضاء عليهم.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٠٨.

(٢) الربيئة: أي المراقب الذي يراقب العدو من مكان مرتفع كي لا يفاجيء الجماعة.

تجمّع بنو قضاعة وراحوا يرشقون المسلمين بالنبال فردّوا عليهم بالمثل. ثمّ قام بنو قضاعة بشن هجوم عام غير متكافىء على المسلمين. وكانت أعداد بني قضاعة بالمئات قاومهم المسلمون بخمسة عشر مقاتلاً، ما أدّى إلى استشهادهم جميعاً باستثناء قائد السرية عمرو بن كعب الذي أصيب بجروح عديدة وتظاهر أنه ميت. وعند حلول الظلام تحامل عمرو وعاد إلى المدينة وأخبر الرسول ﷺ الخبر المحزن.

### ج - سرية شجاع بن وهب الأسدي:

أرسل النبيّ ﷺ شجاع بن وهب في أربعة وعشرين رجلاً إلى جمع من هوازن وأمره أن يغير عليهم. فخرج شجاع، وكان يسير خلال الليل ويكمن خلال النهار حتّى وصل إليهم، فقرّر أن يشنّ الغارة عليهم في شكل مفاجىء.

وشنّ المسلمون الغارة ففوجيء بنو هوازن الذين كانوا يتجمّعون في ذلك الحي بالمهاجمين ففرّوا من دون قتال، فاستولى شجاع ومن معه على عدد كبير من الإبل والخراف التي عاد بها إلى المدينة. كما سبى عدداً كبيراً من نساء بني هوازن اختار شجاع أجملهنّ واصطفاها لنفسه، ووزعت الغنائم فأخذ الرسول ﷺ الخمس ونال كلّ مقاتل خمسة عشر بعيراً.[1]

ذكر ابن كثير هذه الغزوة فكتب:[2]

«قال الواقدي: حدّثني ابن أبي سبرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، عن عمر بن الحكم قال: بعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب في أربعة وعشرين رجلاً إلى جمع من هوازن، وأمره أن يغير عليهم، فخرج، وكان يسير الليل ويكمن النهار حتى جاءهم وهم غارّين، وقد أوعز إلى أصحابه أن لا تمعنوا في الطلب، فأصابوا نعماً كثيراً وشاء. فاستاقوا ذلك حتّى إذا قدموا المدينة، فكانت سهامهم خمسة عشر بعيراً كلّ رجل [وزعم غيره أنهم أصابوا سبياً أيضاً وأن الأمير اصطفى عنهم جارية وضيئة]. ثمّ قدم أهلوهم مسلمين، فشاور النبيّ ﷺ أميرهم في ردّهن إليهم، فقال:

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٤٥.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٥٩.

نعم فردّوهن، وخيّر التي عنده الجارية، فاختارت المقام عنده».

د - غزوة ذات السلاسل:

هذه الغزوة هي من أولى الغزوات نحو شمال شبه الجزيرة العربية تمهيداً للفتوحات الكبرى التي ستتمّ في عهدي الخليفتين أبي بكر وعمر. فبلاد الشام كانت محطّ أنظار النبيّ ﷺ بهدف نشر الدين الجديد بين قاطنيها.

ومن المعروف أن الغزوات نحو بلاد الشام بدأت خلال هذه المرحلة من حياة الرسول ﷺ، إذ أنه، وضمن الإطار هذا، أعطى أوامره بتجهيز سرية من مائتي مقاتل بقيادة عمرو بن العاص الذي كان قد اعتنق الإسلام حديثاً. وكانت جدّة عمرو لأبيه من قبيلة «بكيّ»، لذلك وجهت السرية إلى أرض «بليّ» و«عُذرة» بهدف دعوتهم للإسلام.

روى ابن الأثير بعض التفاصيل عن هذه السرية فكتب:(١)

وفيها أرسل رسول الله ﷺ، عمرو بن العاص، إلى أرض بليّ وعذرة يدعو الناس إلى الإسلام، وكانت أمه من بليّ فتألفهم رسول الله ﷺ بذلك فسار حتى إذا كان على ماء بأرض جذام، يقال له: السلاسل، وبه سميت تلك الغزوة ذات السلاسل، فلمّا كان به خاف، فبعث إلى النبيّ ﷺ يستمدّه، فبعث إليه رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين فيهم أبو بكر، وعمر. وقال لأبي عبيدة حين وجهه: لا تختلفا. فخرج أبو عبيدة، فلما قدم عليه قال عمرو: وإنما جئت مدداً إليّ. فقال له أبو عبيدة: يا عمرو إنّ رسول الله ﷺ قال: لا تختلفا، فإن عصيتني أطعتُك. قال: فأنا أميرٌ عليك. قال: فدونك. فصلّى عمرو بن العاص بالناس».

أمّا عدد الذين بعثهم الرسول ﷺ مع أبي عبيدة فكان ثلاثمائة مقاتل من المهاجرين والأنصار.

وراح عمرو بن العاص، بعد أن تولّى قيادة جميع القوى، يغير على أرض بلاد «بلي» و«عُذرة» التي فرّ أهلها أمام المسلمين، حتّى بلغ آخر أرضهم «بلقين»

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١١٠.

حيث كان أفراد القبيلتين قد تجمّعوا يريدون القتال. وبالفعل تقابل الجيشان وجرى رمي بالنبال بينهما قرابة الساعة، هرب بعدها المشركون نحو الشمال، ولم يلاحقهم المسلمون الذين عادوا ظافرين إلى المدينة.

**هـ - غزوة الخبط:**

أرسل الرسول ﷺ سرية بقيادة أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر بلغ عدد أفرادها ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار ذكرها ابن الأثير فكتب:(١)

«وفيها كانت غزوة الخبط، وأميرهم أبو عبيدة بن الجراح، في ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، وكانت في رجب. وزودهم رسول الله ﷺ جراباً من تمر، فكان أبو عبيدة يقبض لهم قبضة ثمّ تمرة تمرة، فكان أحدهم يلوكها ويشرب عليها الماء إلى الليل. فنفذ ما في الجراب فأكلوا الخبط وجاعوا جوعاً شديداً فنحر لهم قيس بن سعد عبادة تسع جزائر فأكلوها فنهاه أبو عبيدة فانتهى.

ثمّ إن البحر ألقى إليهم حوتاً ميتاً فأكلوا منه حتى شبعوا. ونصب أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه فيمر الراكب تحته. فلمّا قدموا المدينة ذكروا ذلك للنبيّ ﷺ فقال: «كلوا رزقاً أخرجه الله لكم». وأكل منه رسول الله ﷺ. وذكروا صنيع قيس بن سعد فقال: إن الجود من شيمة أهل ذلك البيت».

**و - سرية الغابة:**

علم الرسول ﷺ أن جمعاً من قبيلة «قيس» يتجمعون في مكان اسمه «الغابة»، فأرسل مجموعة استطلاع قوامها ستة عشر مقاتلاً إلى المكان وعيّن أبا قتادة رئيساً عليهم.

وكان يقود بني قيس رجل اسمه «رفاعة بن قيس الجشمي».

وصلت السرية إلى قرب المكان وكمنت هناك إلى أن مرّ رفاعة بن قيس المذكور فوثب عليه أبو قتادة وقتله. ثمّ هاجمت السرية المجتمعين الذين فرّوا وتركوا غنائم كثيرة استولى عليها المسلمون.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١١٠ - ١١١.
- ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٩٧ - ٢٩٨.

ذكر ابن الأثير أيضاً هذه السرية فكتب:[١]

«وفيها كانت سرية وجهها رسول الله ﷺ في شعبان أميرها أبو قتادة ومعه عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي..وكان سببها أن رفاعة ابن قيس أو قيس بن رفاعة في بطن عظيم من جشم نزل الغابة يجمع لحرب النبيّ ﷺ، فبعث النبيّ ﷺ أبا قتادة ومن معه ليأتوا منه بخبر فوصلوا قريباً من الحاضر مع غروب الشمس فكمن كلّ واحد منهم في ناحية وكانوا ثلاثة، وقيل: كانوا ستة عشر رجلاً. قال عبد الله بن أبي حدرد: فكان لهم راعٍ أبطأ عليها فخرج رفاعة بن قيس في طلبه ومعه سلاحه فرميته بسهم في فؤاده فما تكلّم. قال: فأخذت رأسه ثمّ شددت في ناحية العسكر وكبّرت وكبّر صاحباي، فوالله ما كان إلاّ النجاء. فأخذوا نساءهم وأبناءهم وما خفّ عليهم واستقنا الإبل الكثيرة والغنم، فجئنا بها رسول الله وجئت برأسه أحمله معي فأعطاني رسول الله ﷺ من تلك الإبل ثلاثة عشر بعيراً. وكنت قد تزوّجت وأخذت أهلي، وعدل البعير بعشر من الغنم».

## ز - سرية كعب بن عمير إلى بني قضاعة:

ذكرها ابن كثير الذي كتب:[٢]

«قال الواقدي: حدّثنا محمّد بن عبد الله الزهري قال: بعث رسول الله ﷺ كعب بن عمير الغفاري في خمسة عشر رجلاً، حتّى انتهوا إلى ذات أطلاح من الشام، فوجدوا جمعاً من جمعهم كثيراً، فدعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم ورشقوهم بالنبل. فلمّا رأى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوهم أشد القتال حتّى قتلوا، فارتث منهم رجل جريح في القتلى، فلمّا أن برد عليه الليل تحامل حتّى أتى رسول الله ﷺ، فهمّ بالبعثة إليهم فبلغه أنهم ساروا إلى موضع آخر».

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١١١.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٦٠.

ح - الدروس المستقاة:

١ - يلاحظ أن غالبية سرايا المسلمين كانت تخوض القتال ضدّ عدوٍّ متفوّق عليها عدداً وعدّة. لكنّ تصميم مقاتليهم وإيمانهم بالدين الجديد وبرسول الله ﷺ واندفاعهم في سبيل نشر الإسلام كانت تدفعهم للاستبسال في القتال والانتصار. فمبدأ الحرب الأول أي «نسبية الأهداف للوسائل» يمكن الاستعاضة عنه بميزات قتالية نذكر منها:

- وحدة القيادة.
- قيمة وإمكانات القائد.
- حماس الجند وحوافزهم وقيمتهم القتالية.
- خطة المناورة الجيدة، واستعمال الحيلة والمفاجأة.
- الاستفادة من الظروف المناخية ومن طبيعة الأرض الصعبة.

وهذا ما كان يتوفّر للمسلمين خلال قيادة النبيّ ﷺ لهم، الأمر الذي يؤمّن لهم النصر غالباً.

٢ - درجت سرايا المسلمين على اتباع استراتيجية النبيّ ﷺ من الاقتراب من مواطن أعدائهم، وذلك من خلال التقدّم ليلاً ونصب كمين نهاراً. وهكذا تمكّن بعضها، خلال السنة الثامنة للهجرة، من مفاجأة أعداء الأمّة الإسلامية الجديدة ومصادرة مواشيهم والانتصار عليهم في القتال كما حصل مع سرية شجاع بن وهب الأسدي.

٣ - وفي السنة الثامنة للهجرة تمكّن المسلمون من السيطرة على الحجاز وانتقلوا بسراياهم وغزواتهم نحو بلاد الشام تمهيداً لفتحها. وبالفعل، سُيّرت جيوش المسلمين، بعد فتح مكّة نحو الشام حيث بدأت التمهيد للمعركة الفاصلة مع الامبراطورية البيزنطية.

وأول سرية اتجهت إلى الشمال كانت بقيادة عمرو بن العاص الذي كان قد اعتنق الإسلام حديثاً.

وهكذا يكون النبي قد اتبع استراتيجية التمدّد شمالاً بعد توحيد الحجاز بقيادته، الأمر الذي أمّن له إمدادات بالمقاتلين الذين كان يجهّزهم ويرسلهم تباعاً لتعزيز سرية عمرو بن العاص.

ورغم إرسال سرايا عدّة شمالاً تمهيداً لخوضها القتال مجتمعة، فإن النبيّ حرص على تأمين «وحدة القيادة» لجميع القوات الإسلامية وذلك بهدف تحقيق مبدأ الحرب الثالث أي «الحصيل الأقصى للوسائل»، وعدم تشتت هذه القوات بسبب الصراع على قيادتها. فهو ﷺ أوصى أبا عبيدة بن الجراح عندما وجهه مدداً لعمرو بن العاص، بالآتي:

«لا تختلفا، فإن عصاك عمرو فأطعه».

وهكذا تولّى عمرو قيادة جميع القوى الإسلامية، فانتصر في قتاله ضد المشركين الذين فرّوا من أمامه.

٤ - درج النبيّ أيضاً خلال هذه المرحلة على اتباع استراتيجية الحرب الاستباقية. فعندما اجتمع جمع من جشم لحربه، أرسل مفرزة إسلامية إلى مكان نزولهم مستبقاً هجومهم عليه. وهكذا انتقل من الدفاع إلى الهجوم فنجح مقاتلوه واستولوا على مواشي الجماعة.

واستراتيجية الحرب الاستباقية ما زالت تنفذ حتى أيامنا هذه، وقد دخلت مؤخراً في سياسة الولايات المتحدة الأميركية فاعتمدها الرئيس جورج بوش ضد أفغانستان والعراق.

### ط - غزوة مؤتة:

غزوة مؤتة هي من الغزوات الهادفة إلى نشر الرسالة الإسلامية في الأقطار المجاورة لمنطقة بداية الدعوة في الحجاز. وهي وجهت إلى أرض البلقاء في بلاد الشام.

#### ١ - التحضير للغزوة:

قرّر الرّسول ﷺ تسيير حملة إلى أرض البلقاء في بلاد الشام لنشر الدعوة الإسلامية، فخرج المنادي في المدينة يدعو المسلمين إلى الجهاد والخروج في الحملة. تدفّق المسلمون لتلبية النداء وفيهم نخبة المهاجرين والأنصار والصحابة فبلغ عددهم نحواً من ثلاثة آلاف مقاتل.

تسلّم قيادة الحملة زيد بن حارثة. وأوصى الرسول ﷺ أنه إذا أصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإذا أصيب فعبدالله بن رواحة. وهذا التدبير تدبير حكيم لا سيما أن قائد الحملة في ذاك الزمان كان يشترك بالقتال

أسـوة بـجـنـوده، لـذلك مـن الممـكـن أن يصاب.[١]

وضـمّـت الحملـة خالـد بـن الـولـيـد وكـان حديث العهد بالإسلام.

ووقف الرسول ﷺ يعطي تعليماته إلى الجيش كعادته فطلب من أفراده أن لا يقتلوا امرأة أو طفلاً أو أعمى وأن لا يهدموا منزلاً ولا يقطعوا شجرة مثمرة.

كتب الطبري عن بداية الحملة ما يلي:[٢]

«قال ابـن إسـحـاق - فـيـمـا حـدّثـنـا ابـن حُميد، قال: حدّثنا سلَمة عنه، قال: لما رجع رسولُ الله ﷺ إلى المدينة من خَيْبر؛ أقام بها شهرَيْ ربيع، ثمّ بعث في جمادى الأولى بَعثَه إلى الشام الذين أصيبوا بمؤتة.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن محمّد بن إسحاق، عن محمّد بن جعفر بن الزبير، عن عُروة بن الزبير، قال: بعث رسولُ الله ﷺ بَعثَهُ إلى مؤتة في جُمادى الأولى من سنة ثمانٍ؛ واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال: إن أصيب زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيبَ جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس.

فتجهّز الناسُ، ثمّ تهيّؤوا للخروج، وهم ثلاثة آلاف، فلمّا حضر خروجهم وَدَّع الناس أمراء رسُول الله وسلّموا عليهم وودّعوهم.

وسار المسلمون بضعة ليالٍ ونزلوا أرض معان في بلاد الشام. وكان نبأ خروجهم قد بلغ مسامع الامبراطور البيزنطي هرقل فجمع جيشاً من الروم والعرب قدَّره المؤرّخون بمائة ألف تمركز في أرض البلقاء.

نقل ابن الأثير رواية سير المسلمين تمهيداً للمعركة فكتب:[٣]

«ثـمّ سـاروا حـتّـى نـزلـوا معـان من أرض الشام، فبلغهم أن هِرقل سار إليهم في مائة ألف من الروم، ومائة ألف من المستعربة، من لخم وجذام وبلقين وبلّي عليهم رجل

---

(١) من المعروف أنّ معارك عديدة في التاريخ خسرها فريق بسبب مقتل قائده. وبالفعل استشهد في هذه الغزوة قادتها الثلاثة، الواحد بعد الآخر.

المستند: ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١١٢.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٤٩.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١١٢ - ١١٣.

من بلّي، يقال له: مالك بن رافلة، ونزلوا مآب من أرض البلقاء. فأقام المسلمون بمعان ليلتين ينظرون في أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ؛ نخبره الخبر، وننتظر أمره، فشجعهم عبدالله بن رواحة على المضيّ، وقال: يا قوم والله إنّ التي تكرهون للتي خرجتم إياها تطلبون الشهادة. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوّة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلاّ بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فما هي إلاّ إحدى الحسنيين، إمّا ظهور وإمّا شهادة».

فقال المقاتلون: صدق ابن رواحة.

وكان يقود الجيش البيزنطي تيودور شقيق هرقل، وفيه مقاتلين من الاغريق ومن قبائل لخم وجذام والقِنَى وبهراء وبَلّي.

أمّا المسلمون، فمكثوا في معان ليلتين ينظرون في أمرهم بعد أن بلغهم خبر قوّة الجيش البيزنطي الكبيرة. ثمّ ساروا شمالاً لمقابلة هذا الجيش حتّى بلغوا قرية اسمها «مشارف» في أرض البلقاء. وعندما شاهدوا جيش الروم انتقلوا إلى قرية اسمها «مؤتة» حيث تمركزت جموعهم.[١]

## ٢ - تمركز الجيشين:

نظّم زيد بن حارثة قوات المسلمين فجعل على الميمنة رجلاً من بني عذرة اسمه «قطبة ابن قتادة»، وعلى الميسرة رجلاً من الأنصار اسمه «عُبابة بن مالك»، وفي المقدمة وقف زيد بن حارثة يحمل الراية التي سلمها له الرسول ﷺ.[٢]

كتب الطبري عن تمركز جيش المسلمين ما يلي:[٣]

«قال: ثمّ مضَى الناس حتى إذا كانوا بتُخوم البلقاء، لَقِيْتهم جموع هِرَقل من الرّوم والعرب، بقرية من قرى البلقاء يقال لها مَشَارِف. ثمّ دنا العدُوّ، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مُؤْتة؛ فالتقى الناس عندها فتعبّأ المسلمون، فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عُذْرة، يقال له قطبة بن قتادة، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له عَبَابَة بن مالك».

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٦٢.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٦٣.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٥٠.

٣ - **القتال:**

أعطى كلّ من زيد وتيودور إشارة الهجوم لجيشهما فالتحم الجمعان في قتال شديد ثبت خلاله المسلمون رغم قلّة عددهم وعدم التكافؤ بالقوى. وكان أشدّ المسلمين في القتال حامل راية النبيّ ﷺ زيد بن حارثة الذي تكاثر عليه الأعداء فاستشهد في ساحة المعركة.

تناول الراية جعفر بن أبي طالب وتابع القتال مقتحماً صفوف الروم على فرس له شقراء فاستشهد أيضاً. فلمّا قتل جعفر حمل الراية عبد الله بن رواحة الذي قاتل أيضاً حتّى استشهد.(١)

روى ابن كثير رواية مقتل الثلاثة الكبار الذين حملوا راية النبيّ ﷺ وقاتلوا بها وكانوا قادة جيش المسلمين الواحد بعد الآخر، فكتب:(٢)

«قال ابن إسحاق: ثمّ مضى الناس حتّى إذا كانوا بتخوم البَلْقاء، لقيتهم جموع هرقل الروم والعرب، بقرية من قرى البَلْقاء يقال لها مَشارف، ثمّ دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة، فالتقى الناس عندها. فتعبّى لهم المسلمون فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عُذْرة يقال له: قطبة بن قَتَادة، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له عُبَايَة بن مالك. وقال الواقدي: حدّثني ربيعة بن عثمان عن المقبري، عن أبي هريرة قال: شهدت مؤتة فلمّا دنا منا المشركون رأينا ما لا قبل لأحد به من العدّة والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب، فبرق بصري، فقال لي ثابت بن أقرم: يا أبا هريرة كأنك ترى جموعاً كثيرة؟ قلت: نعم! قال: إنك لم تشهد بدراً معنا، إنا لم نُنصر بالكثرة رواه البيهقي. قال ابن إسحاق: ثمّ التقى الناس فاقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتّى شاط(٣) في رماح القوم. ثمّ أخذها جعفر فقاتل القوم حتّى قتل، فكان جعفر أول المسلمين عقر في الإسلام. وقال ابن إسحاق: وحدّثني يحيى ابن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١١٤ - ١١٥.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

(٣) شاط: سال دمه ومات.

حدّثني أبي الذي أرضعني، وكان أحد بني مرّة بن عوف، وكان في تلك الغزوة، غزوة مؤتة قال: والله لكأني أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء ثمّ عقرها، ثمّ قاتل القوم حتى قتل.

فلمّا قتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية... ثمّ تقدّم فقاتل حتّى قتل رضي الله عنه».

عند ذلك، وبعد ان بدأ الظلام يخيم على المكـــان وتوقف القتال في اليوم الأول، تداول المسلمون في من سيكون قائدهم الجديد فتمّ الرأي على تكليف خالد بن الوليد رغم حداثته في الإسلام، وذلك لأنّ عبقريّته الحربية كانت قد برزت بوضوح.

أدرك خالد صعوبة تحقيق النصر فقام بتغييرات في صفوف المسلمين، فخفّف من جنود الميمنة والميسرة وكلف فرقة بأن تسير وراء الجيش المهاجم وتثير غباراً كثيفاً ليظهر للعدو بأن مدداً قدمت للمسلمين. وأمر خالد المسلمين بالهجوم دون التوغل كثيراً في صفوف العدو، إنما خاصة الثبات في المراكز.

وعند انقضاء اليوم التالي انسحب الجيشان عن ساحة القتال، فاستغلّ خالد الفرصة وانسحب بالمسلمين متجهاً نحو المدينة.[١]

### ٤ - نتيجة الغزوة:

لم تحقق هذه الغزوة أهدافها بالفتح، لكنها كانت أولى محاولات التمدّد شمالاً نحو بلاد الشام. كما أن مبادرة خالد بن الوليد، الذي أطلق عليه الرسول ﷺ بعدها لقب سيف الله، ساهمت في التخفيف من الخسائر.

وبلغ عدد شهداء المسلمين اثني عشر شهيداً منهم قادة الجيش الثلاثة الذين سبق الكلام عنهم.

ولم يعتبر الرسول ﷺ نتيجة المعركة هزيمة إذ نقل ابن الأثير عن عودة الجيش إلى المدينة ما يلي:[٢]

«فلمّا رجع الجيش ودنا من المدينة لقيهم رسول الله ﷺ والمسلمون، فأخذ عبد الله بن جعفر فحمله بين يديه، فجعل الناس يحثون التراب على الجيش ويقولون: «يا فُرّار

---

(١) ابن كثير، المرجع نفسه، ص ٢٦٥.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١١٥.

في سبيل الله»، ويقول رسول الله ﷺ: «ليسوا بالفرّار، ولكنهم الكرّار إن شاء الله تعالى».

أما ابن كثير فقد حلّل نتيجة معركة مؤتة فكتب:(١)

«بلغ مجموع القتلى اثنا عشر رجلاً، وهذا عظيم جداً أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين، أحدهما وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله عدّتها ثلاثة آلاف مقاتل، وأخرى كافرة وعدّتها مائتا ألف مقاتل، من الروم مائة ألف، ومن نصارى العرب مائة ألف، يتبارزون ويتصاولون. ثمّ مع هذا كلّه لا يقتل من المسلمين إلاّ اثنا عشر رجلاً، وقد قتل من المشركين خلقٌ كثير. هذا خالد وحده يقول لقد اندقت في يدي يومئذ تسعة أسياف، وما صبرت في يدي إلاّ صفحة يمانية، فماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلّها؟!».

**٥ - الدروس المستقاة:**

- طبق النبيّ ﷺ، تحضيراً لغزوة مؤتة، استراتيجية التعبئة العامة فأرسل المنادي في المدينة يدعو جميع المسلمين للجهاد، فاستطاع جمع ثلاثة آلاف مقاتل من الصحابة والأنصار والمهاجرين فأمّن بذلك قاعدة «حشد القوى» تمهيداً للقتال.

- ولتأمين وحدة القيادة خلال الحملة، سمّى بديلاً لكلّ قائد قد يقتل خلال المعركة.

- زوّد الرسول ﷺ الحملة بتوجيهاته التي تعتبر كأمر العمليات العام الذي تصدره قيادات الجيوش حالياً قبل تنفيذ العمليات العسكرية الكبرى. وهذه التعليمات دخلت ضمن التقاليد العسكرية الإسلامية وأصبحت جزءاً منها، فاعتمدها خلفاء النبيّ ﷺ بعد وفاته.

وللتقاليد العسكرية أهمية قصوى في بناء عقيدة قتالية يسير الجيش تحت لوائها ويتقيد قادته وأفراده ببنودها، حتّى ولو كانت شفهية. فجيش بلا تقاليد، هو جيش بلا تاريخ ولا تراث عسكريين.

- نقل المؤرّخون العرب أن جيش الروم الذي وجّه إلى مؤتة بلغ مائة ألف مقاتل، واجهه المسلمون بثلاثة آلاف مقاتل.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٦٥.

وهنا ينبغي التنبّه إلى أمرٍ سيتكرّر غالباً خلال سردنا تفاصيل المعارك في هذه الموسوعة، وهو ميل المؤرّخين العرب إلى المبالغة في أعداد الجيوش العدوّة والتخفيض في أعداد الجيوش الصديقة. وهذا الأمر سننبّه إليه القارىء تباعاً.

- درج القادة المسلمون على توزيع جيشهم تمهيداً للمعركة إلى ميمنة وميسرة ومقدّمة وقلب وساقة. وهذا ما سنلمسه عند تفصيلنا وقائع معركة اليرموك.

- بعد فراغ مركز القيادة العامة لجيش المسلمين، لم يختلف قادتهم على اختيار الخلف بل قرّ الرأي على تكليف أكثرهم جدارة أي خالد بن الوليد الذي بدأت ملامح العبقرية العسكرية تظهر عليه منذ قيادته للمسلمين في نهاية معركة مؤتة.

أمّا التدابير الاستراتيجية التي نجح خالد في تطبيقها، فنوجزها بما يأتي:

- خداع العدو بإيهامه أن مدداً قدمت للمسلمين،

- تخفيض جند الميسرة والميمنة وتعزيز القلب وتكليفه القيام بهجوم محدود على العدو،

- عدم التغرير بالمسلمين ودفعهم للتوغّل بهجومهم في خطوط العدو، إنما تنفيذ هجوم محدود لخداع الروم وجعلهم يقتنعون بأن مدداً وصلت فعلاً للمسلمين،

- تطبيق مبدأ الحرب الأول أي «نسبية الأهداف للوسائل» تطبيقاً رائعاً. فهو، وبعد أن تأكد من تفوّق جيش الروم بشكل كبير وعدم إمكانية التعويض عن هذا التفوّق بالميزات التي يمتلكها المسلمون والتي سبق شرحها في بند سابق في هذا الفصل، استغلّ فرصة انسحاب الجيشين من ساحة القتال للتراجع بالمسلمين تراجعاً تكتيكياً وفك التماس مع العدو والانسحاب إلى المدينة.

والانسحاب التكتيكي، عند تفوّق العدو، هو عملية عسكرية عملانية توصي بها الأنظمة والتعليمات العسكرية. وهي لا تعدّ هزيمة، إنما مناورة لحماية الجيش من الهزيمة والتدمير.

# الفصل الحادي عشر
# فتح مكّة

«في سنة ثمانٍ للهجرة كان افتتاح النبيّ ﷺ مكّة وقد تنازع الناس في فتحها أصلحاً كان أو عنوة؟ وفيها كسرت الأصنام، وهدمت العزّى، ثمّ قال النبيّ ﷺ: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟».

قالوا: «خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم».

قال: «إذهبوا فأنتم الطلقاء».

هذا ما كتبه المسعودي في مروج الذهب عن فتح مكّة.(١)

## أ - أسباب وظروف معركة مكّة:

البلاذري، من جهته، روى سبب نقض الهدنة من قبل قريش ممّا دعا النبيّ ﷺ إلى غزو مكّة، فكتب:(٢)

«قالوا لمّا قاضى رسول الله ﷺ قُرَيشاً عام الحُدَيبيَة وكتب القضيّة على الهدنة وأنّه من أحبّ أن يدخل في عهد محمّد ﷺ دخل، ومن أحبّ أن يدخل في عهد قريش دخل، وأنّه من أتى قريشاً من أصحاب رسول الله ﷺ لم يردّوه، ومن أتاه منهم ومن حلفائهم ردّه؛ قام من كان من كنانة فقالوا ندخل في عهد قريش ومدّتها، وقامت خزاعة فقالت ندخل في عهد محمّد وعقده، وقد كان بين عبد المطّلب وخُزاعة حلف قديم.

ثمّ إنّ رجلاً من خزاعة سمع رجلاً من كنانة ينشدُ هجاءً في رسول الله ﷺ فوثب عليه فشجّه فهاج ذلك بينهم الشرّ

---

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٣١٤.

(٢) البلاذري، مرجع سابق، ص ٤٩ - ٥٠.

والقتال. وأعانت قريش بني كنانة وخرج منهم رجال معهم فبيّتوا خزاعة فكان ذلك مّما نقضوا به العهد، والقضيّة. وقدم على رسول الله ﷺ عمرو بن سالم بن حَصيرَة الخزاعي يستنصر رسول الله ﷺ فدعاه ذلك إلى غزوِ مكّة».

ابن الأثير أيضاً روى رواية مشابهة فكتب:[1]

«وأقام رسول الله ﷺ بعد غزوة مؤتة جمادى الآخرة ورجب. ثم إن بني بكر بن عبد مناة عَدَتْ على خزاعة وهم على ماء لهم بأسفل مكّة يقال له: الوتير، وكانت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، وبكر في عهد قريش في صلح الحديبية. وكان سبب ذلك أنّ رجلاً من بني الحضرمي اسمه مالك بن عباد، وكان حليفاً للأسود بن رزن الديلي ثمّ البكري في الجاهلية، خرج تاجراً. فلمّا كان بأرض خزاعة قتلوه وأخذوا ماله فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه. فعدت خزاعة على بني الأسود بن رزن وهم سلمى وكلثوم وذؤيب فقتلوهم بعرفة عند أنصباء الحرم، وكانوا من أشراف بني بكر. فبينما خزاعة وبكر على ذلك جاء الإسلام واشتغل الناس به. فلما كان صلح الحديبية ودخلت خزاعة في عهد النبيّ ﷺ ودخلت بكر في عهد قريش، اغتنمت بكر تلك الهدنة وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأرهم بقتل بني الأسود، فخرج نوفل بن معاوية الديلي بمن تبعه من بكر حتّى بيت خزاعة على ماء الوتير. وقيل: كان سبب ذلك أن رجلاً من خزاعة سمع رجلاً من بكر ينشد هجاء النبي ﷺ فشجّه، فهاج الشرّ بينهم وثارت بكر بخزاعة حتّى بيتوهم بالوتير. وأعانت قريش بني بكر على خزاعة بسلاح ودوابّ وقاتل معهم جماعة من قريش مختفين، منهم صفوان بن أميّة، وعكرمة بن أبي جهل، وسهل بن عمرو مع غيرهم وعبيدهم. فانحازت خزاعة إلى الحرم وقتل منهم نفر، فلمّا دخلت خزاعة الحرم. قالت بكر: يا نوفل إنا قد دخلنا الحرم إلهك إلهك. فقال: كلمة عظيمة لا إله له اليوم؛ يا بني بكر أصيبوا ثأركم؛ فلعمري إنكم لتسرفون في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه؟

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١١٦.

فلمّا نقضت بكر وقريش العهد الذي بينهم وبين النبيّ ﷺ بما استحلت من خزاعة، خرج عمرو بن سالم الخزاعي ثمّ الكعبي حتّى قدم على رسول الله ﷺ المدينة».

واستنصر الخزاعي النبيّ ﷺ.

«فقال رسول الله ﷺ: قد نُصرت يا عمرو بن سالم».[1]

وأكمل الطبري رواية أسباب نقض الصلح فكتب:[2]

«قال: فلما تظاهرت بنو بكر وقُريش على خُزاعة، وأصابوا منها ما أصابوا، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق بما استحلّوا من خُزاعة - وكانوا في عَقْده وعهده - خرج عمرو بن سالم الخُزاعيُّ، ثمّ أحد بني كعب؛ حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة؛ وكان ذلك ممّا هاج فتح مكّة؛ فوقف عليه وهو في المسجد جالسٌ بين ظهراني الناس، فقال: قد قتّلونا وقد أسلمنا. فقال رسول الله ﷺ حينَ سمع ذلك: قد نُصرْتَ يا عمرو بن سالم! ثمّ عرض لرسول الله ﷺ عَنَانٌ من السماء، فقال: إنّ هذه السحابة لتستهلّ بنصر بني كعب.

ثمّ خرج بُدَيْل من ورقاء في نفر من خُزاعة حتّى قدموا على رسول الله المدينة، فأخبروه بما أصيب منهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم؛ ثمّ انصرفوا راجعين إلى مكّة. وقد كان رسولُ الله ﷺ قال للناس: كأنّكم بأبي سفيان قد جاء ليشدّد العَقْد، ويزيد في المدّة.

ومضى بُديل بن ورقاء وأصحابه، فلقُوا أبا سفيان بعُسفان، قد بعثتْه قريش إلى رسول الله ليشدّد العقد ويزيد في المدّة؛ وقد رهِبوا الذي صنعوا. فلمّا لقيَ أبو سفيان بُديلا، قال: مِنْ أين أقبلت يا بديل؟ وظنّ أنه قد أتى رسول الله، قال: سِرت في خُزاعة في السّاحل وفي بطن هذا الوادي. قال: أوَ ما أتيت محمّداً؟ قال: لا، قال: فلمّا راح بُديل إلى مكّة قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة لقد عَلَف بها النّوى؛ فعَمد إلى مَبْرَك ناقته، فأخذ من بعرها ففتّه؛ فرأى فيه النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بُديل محمّداً.

---

(1) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١١٦.

(2) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٥٣ - ١٥٥.

ثمّ خرج أبو سفيان حتّى قدِم على رسول الله ﷺ المدينة؛ فدخل على ابنته أمّ حبيبة بنت أبي سفيان؛ فلمّا ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوَتْه عنه، فقال: يا بنيّة؛ والله ما أدري أرغبتِ بي عن هذا الفراش، أم رغبتِ به عنّي! قالت: بل هو فراشُ رسول الله، وأنت رجل مشرك نجِس، فلم أحبّ أن تجلس على فراش رسول الله. قال: والله لقد أصابكِ يا بنيّة بعدي شرٌّ. ثمّ خرجَ حتّى أتى رسول الله ﷺ، فكلّمه فلم يردُد عليه شيئاً، ثمّ ذهب إلى أبي بكر فكلّمه أن يكلِّم له رسول الله، فقال: ما أنا بفاعل. ثمّ أتى عمَر بن الخطاب، فكلّمه فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله! فوالله لو لم أجد إلاّ الذرَّ لجاهدتُكم. ثمّ خرج فدخل على عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وعنده فاطمة ابنة رسول الله، وعندها الحسن بن عليّ؛ غلامٌ يَدِبُّ بين يديها، فقال: يا عليّ؛ إنك أمسُّ القوم بي رَحماً، وأقربُهم منّي قرابة، وقد جئتُ في حاجة؛ فلا أرجعَنّ كما جئت خائباً أشفع لنا إلى رسول الله! قال: ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزَم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلّمه فيه. فالتفت إلى فاطمة، فقال: يا ابنة محمّد؛ هل لك أن تأمري بُنيّك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيّد العرب إلى آخر الدهر! قالت: والله ما بلغ بُنَيّ ذلك أن يجير بين الناس، وما يجير على رسول الله أحد. قال: يا أبا الحسن، إنّي أرى الأمور قد اشتدّت عليّ فانصحني. فقال له: والله ما أعلَمُ شيئاً يُغني عنك شيئاً، ولكنّك سيّد بني كنانة؛ فقم فأجْرِ بين الناس، ثمّ الحقْ بأرضك، قال: أَوَ ترى ذلك مُغنياً عني شيئاً! قال: لا والله ما أظنّ؛ ولكن لا أجدُ لك غير ذلك؛ فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيّها الناس، إني قد أجَرْتُ بين الناس؛ ثمّ ركل بعيره فانطلق.

فلمّا قدِم على قريش، قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمّداً فكلّمته، فوالله ما ردّ عليّ شيئاً، ثمّ جئت ابن أبي قُحافة، فلم أجد عنده خيراً، ثمّ جئت ابن الخطاب؛ فوجدته أعْدَى القوم، ثمّ جئت عليّ بن أبي طالب، فوجدته ألْيَن القوم؛ وقد أشار عليّ بشيء صنعتُه؛ فوالله ما أدري هل يغنيني شيئاً أم لا! قالوا: وبماذا أمَرَك؟ قال: أمَرَني أن أجير بين الناس ففعلت؛ قالوا: فهل أجاز ذلك

محمّد؟ قال: لا، قالوا: ويلك! والله إن زاد على أن لعِبَ بك، فما يُغني عنّا ما قلت. قال: لا والله، ما وجدتُ غير ذلك، قال: وأمر رسولُ الله ﷺ الناس بالجهاز؛ وأمر أهله أن يجهزوه؛ فدخل أبو بكر على ابنته عائشة وهي تحرّك بعض جهاز رسول الله ﷺ، فقال: أيْ بنَيّة، أأمركم رسول الله بأن تجهزوه؟ قالت: نعم، فتجهّزْ، قال: فأين ترينه يريد؟ قالت: والله ما أدري.

ثمّ إنّ رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكّة؛ وأمرهمَ بالجدّ والتهيُّؤ، وقال: اللهمّ خذ العيون والأخبار عن قريش حتّى نَبْغَتها في بلادها.

فتجهّز الناس.

حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثني محمّد ابن إسحاق، عن محمّد بن جعفر بن الزبير، عن عُروة بن الزُّبير وغيره من عُلمائنا، قالوا: لما أجمعَ رسولُ الله ﷺ المسير إلى مكّة، كتب حاطب بن أبي بَلْتَعة كتاباً إلى قُريش، يخبرهم بالذي أجمع عليه رسولُ الله من الأمر في السَّيْر إليهم، ثمّ أعطاه امرأة - يزعمُ محمّد بن جعفر أنها من مُزَيْنة؛ وزعم غيرُه أنها سارة، مولاة لبعض بني عبد المطلب - وجعل لها جُعْلاً على أن تُبلّغه قريشاً. فجعلته في رأسها، ثمّ فتلتْ عليه قُرونها، ثمّ خرجتْ به. وأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بما صنع حاطبٌ؛ فبعث عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوام، فقال: أدركا امرأةً قد كتب معها حاطب بكتاب إلى قريش، يحذّرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم؛ فخرجا حتّى أدركاها بالحُلَيفة، حُليفة ابن أبي أحمد؛ فاستنزلاها، فالتمسا في رَحْلها، فلم يجدا شيئاً. فقال لها عليُّ بن أبي طالب: إنّي أحلِفُ ما كذب رسول الله ولا كذبنا؛ ولتُخْرِجنّ إليّ هذا الكتاب أو لنكشفنّك. فلما رأت الجدّ منه، قالت: أعرِض عنّي، فأعرض عنها، فحلّت قرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منه، فدفعته إليه، فجاء به إلى رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله حاطباً؛ فقال: يا حاطب، ما حملك على هذا؟ فقال: يا رسول الله، أما والله إني لمؤمنٌ بالله ورسوله، ما غيّرتُ ولا بدّلتُ، ولكنّي كنتُ امرأً ليس لي في القوم أصلٌ ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم أهلٌ وولد، فصانعتهم عليهم. فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، دعني فلأضربْ عنقه، فإنّ

الرجل قد نافق. فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك يا عمر، لعلّ الله قد اطّلع إلى أصحاب بدر يوم بدر؛ فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

من مجمل ما جاء به أوائل المؤرّخين العرب نرى أن قريشاً هي التي نقضت صلح الحديبية، فهي قد رأت أن وقعة مؤتة التي كانت سلبية بالنسبة للمسلمين قد هيأت الأجواء للقضاء عليهم.

واغتنمت قريش الظروف التي شرحت في ما سبق من هذا الفصل لتنقض العهد وتتنكّر لاتفاقها مع الرسول ﷺ الذي كان قد صمد مدّة ثمانية عشر شهراً. وكان على رأس المحرضين لنقض الصلح عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو.

إنما، وبعد أن وقع الاعتداء المذكور، خاف زعماء قريش من العاقبة فكلفوا أبا سفيان بمحاولة حلّ الأزمة التي بدأت تباشيرها تلوح في الأفق.

حاول أبو سفيان التقرّب من النبيّ ﷺ في مسجد رسول الله ﷺ في المدينة من دون نتيجة. كما حاول طلب مساعدة أبي بكر وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب من دون نتيجة أيضاً، فعاد إلى مكّة خائباً. وهكذا أصبح الصدام واقعاً وبقيت قريش في مكّة تنتظر قدوم المسلمين لغزوها.

### ب - خروج الحملة باتجاه مكّة:

صمّم الرسول ﷺ على مهاجمة مكّة وفتحها بعد أن تأكّد له أن سياسة اللين مع قريش لم تعد السياسة الصحيحة. لذلك نادى المنادي في أرجاء المدينة داعياً المقاتلين إلى تجهيز أنفسهم للقتال والخروج من المدينة.

في الوقت نفسه دعا النبيّ ﷺ حلفاءه من القبائل العربية للالتحاق بجيش المسلمين في المدينة تمهيداً للسير نحو مكّة.

وأخذ المسلمون يتجهّزون للمسير محضرين السيوف والرماح والدروع والسهام وباقي العدة الحربية. كما قدمت القبائل الموالية إلى المدينة من سُليم ومزينة وغطفان وغيرها فأبلغهم الرسول ﷺ أنه يريد مكّة.

وهكذا امتلأت أرباض المدينة بالمقاتلين من المهاجرين والأنصار والقبائل، ومكثوا جميعهم ينتظرون اليوم الموعود للخروج.

أخيراً، وفي العاشر من رمضان للسنة الثامنة للهجرة، صام الرسول ﷺ وأعطى الأوامر للحملة بالانطلاق فانطلقوا وراءه وهو على ناقته «القصواء» بعد أن كلف كلثوم بن حصين بن عتبة الغفاري بتسيير الأمور في المدينة أثناء غيابه.

وكانت جماعات من القبائل العربية تنضم إلى الجيش الزاحف طوال الطريق بين المدينة ومكّة حتّى بلغ عدده عشرة آلاف مؤمن تتأجج صدورهم حماساً لخدمة الرسول ﷺ ورسالته.

روى المؤرّخون أن الله أعمى قلوب القرشيين ومنعهم من تسقّط أخبار الجيش المسلم الزاحف باتجاههم، لكن بني هاشم علموا بخروج نسيبهم فقرّروا التوجّه نحوه وإعلان إسلامهم.

نقل ابن كثير خبر خروج الحملة فكتب:[1] «فمكث رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يمكث بعد ما خرج أبو سفيان، ثمّ أخذ في الجهاز، وأمر عائشة أن تجهّزه وتخفي ذلك. ثمّ خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد أو إلى بعض حاجاته، فدخل أبو بكر على عائشة فوجد عندها حنطة تنسف وتنقى، فقال لها: يا بُنيّة لِمَ تصنعين هذا الطعام؟ فسكتت فقال: أيريد رسول الله ﷺ أن يغزو؟ فصمتت، فقال: يريد بني الأصفر - وهم الروم -؟ فصمتت، قال: فلعلّه يريد أهل نجد، فصمتت، قال: فلعله يريد قريشاً؟ فصمتت، قال: فدخل رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله أتريد أن تخرج مخرجاً؟ قال «نَعَمْ» قال: فلعلّك تريد بني الأصفر؟ قال: «لاَ»، قال: أتريد أهل نجد؟ قال: «لاَ»، قال: فلعلّك تريد قريشاً؟ قال: «نَعَمْ»، قال أبو بكر: يا رسول الله أليس بينك وبينهم مدّة؟ قال: «**أَلَمْ يَبْلُغْكَ مَا صَنَعُوا بِبَنِي كَعْب**»! قال: وأذّن رسول الله ﷺ في الناس بالغزو».

قال ابن إسحاق: فحدّثني محمّد بن مسلم بن شهاب الزهري، عن عَبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عبّاس قال: ثمّ مضى رسول الله ﷺ لسفره واستخلف على المدينة أبا رُهم، كلثوم بن حُصَين بن عُتبة بن

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٠٥ - ٣٠٧.

خلف الغِفاريّ، وخرج لعشر مَضَيْن من شهر رمضان، فصام وصام الناس معه، حتّى كان بالكُدَيد بين عُسفان وأمج أفطر. ثمّ مضى حتى نزل مَرّ الظهران في عشرة آلاف من المسلمين، وقال عروة بن الزبير: كان معه إثنا عشر ألفاً. وكذا قال الزهري وموسى بن عقبة، فسبعت سليم وبعضهم يقول ألفت سليم، وألفت مزينة، وفي كلّ القبائل عدد وإسلام، وأرغب مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار، فلم يتخلّف عنه منهم أحد».

### ج - إعلان إسلام أبي سفيان:

كان بعضاً من بني هاشم قد قرّروا الخروج إلى النبيّ ﷺ وإعلان إسلامهم، كما جاء سابقاً، فخرج العباس عم الرسول ﷺ وأعلن إسلامه. وخرج أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبيّ ﷺ وعبد الله بن المغيرة ابن عمّته مع ابنٍ لأبي سفيان وأسلموا جميعهم.(١)

وفي داخل مكّة سرى جوّ من الخوف من نتائج الغزوة ومن عدد الذين سيقتلون في حال فتحت مكّة عنوة.

أمّا النبيّ ﷺ فكان يفضل دخول مكّة صلحاً وذلك كي يجنب أهلها أقسى أنواع القتل الذي قد يتعرّضون له في حال دخولها حرباً.

في هذه الأجواء، قرّرت قريش إرسال مجموعة من كبارها لمعرفة أخبار الرسول ﷺ والوضع العام. فوقع الاختيار على أبي سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء الذين خرجوا حتّى جاؤوا إلى القرب من جيش المسلمين في سهل «الظهران»، فشاهدوا التجمّعات الضخمة من المقاتلين والأنوار العظيمة في المخيم مما يدلّ على وجود جيش لجبٍ.

روى الطبري رواية تجسّس هؤلاء الثلاثة واعتناق أبي سفيان بن حرب الإسلام فكتب:(٢)

«فحدّثنا أبو كريب، قال: أخبرَنا يُونس بنُ

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٥٦.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٥٧ - ١٥٨.

بكَير، عن محمّد بن إسحاق، قال: حدّثني حُسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عبّاس، عن عكرمة عن ابن عباس، قال: لما نزل رسول الله ﷺ مرّ الظهران، قال العباس بن عبد المطلب، وقد خرج رسول الله ﷺ من المدينة: يا صباح قريش! والله لئن بَغَتها رسول الله في بلادها؛ فدخل مكّة عَنْوة؛ إنه لهلاكُ قريش آخر الدهر! فجلس على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، وقال: أُخرُج إلى الأراك لعلّي أرى حَطاباً أو صاحب لَبَن؛ أو داخلاً يدخل مكّة؛ فيخبرهم بمكان رسول الله؛ فيأتونه فيستأمنونه. فخرجت؛ فوالله إني لأطوف في الأراك ألتمس ما خرجت له؛ إذ سمعت صوت أبي سفيان بن حَرْب وحكيم بن حزام وبُديل بن ورقاء، وقد خرجوا يتحسسون الخبر عن رسول الله ﷺ. فسمعت أبا سفيان وهو يقول: والله ما رأيت كاليوم قطّ نيراناً! فقال بُديل: هذه والله نيران خزاعة، حمشتها الحرب! فقال أبو سفيان: خُزاعة ألأم من ذلك وأذلُّ! فعرفت صوته، فقلت: يا أبا حنظلة! فقال: أبو الفضل: نعم، فقال: لبّيك فِداك أبي وأمي! فما وراءك؟ فقلت: هذا رسول الله ورائي قد دَلف إليكم بما لا قِبَل لكم به بعشرة آلاف من المسلمين. قال: فما تأمرني؟ فقلت: تركب عجز هذه البغلة، فأستأمن لك رسول الله؛ فوالله لئن ظفِر بك ليضربنّ عنقك. فردفني فخرجت به أركض بغلة رسول الله ﷺ نحو رسول الله ﷺ، فكلّما مررت بنار من نيران المسلمين ونظروا إليّ، قالوا: عمٌّ رسول الله ﷺ على بَغْلة رسول الله ﷺ؛ حتّى مررت بنار عمر بن الخطاب. فقال أبو سفيان! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عَقْدٍ ولا عهد! ثمّ اشتدّ نحو النبيّ ﷺ، وركضت البغلة، وقد أردفتُ أبا سفيان؛ حتّى اقتحمتُ على باب القبّة، وسبقت عمر بما تسبق به الدابة البطيئة الرجلَ البطيء. فدخل عمر على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان عدوّ الله؛ قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد؛ فدعني أضرب عنقه؛ فقلت: يا رسول اللهو إنّي قد أجرْتُه! ثمّ جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: والله لا يناجيه اليوم أحدٌ دوني! فلمّا أكثر فيه عُمر، قلت: مهلاً يا عمر! فوالله ما تصنع هذا إلاّ لأنّه رجل من بني عبد مناف؛ ولو كان من بني عَدِيّ بن

كعب ما قلت هذا. فقال: مهلاً يا عبّاس! فوالله لإسلامُك يومَ أسلمتَ كان أحبّ إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم! وذلك لأني أعلمُ أنّ إسلامَك كان أحبّ إلى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم. فقال رسول الله ﷺ: أذهب فقد آمنّاه حتى تغدو به عليّ بالغداة. فرجع به إلى منزله؛ فلمّا أصبح غدا به على رسول الله ﷺ، فلمّا رآه قال: ويحك أبا سفيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلاّ الله! فقال: بأبي أنت وأمّي، ما أوصلك وأحملك وأكرمك! والله لقد ظننتُ أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنّي شيئاً، فقال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أنّي رسول الله! فقال: بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأحملك وأكرمك! أمّا هذه ففي النفس منها شيء! فقال العباس: فقلت له ويلك! تشهّد شهادة الحق قبل والله أن تُضرب عنقك؛ قال: فتشهّد.

قال: فقال رسول الله ﷺ للعبّاس حين تشهّد أبو سفيان: انصرف يا عباس فاحبسه عند خَطْم الجبل بمضيق الوادي، حتّى تمرّ عليه جنود الله، فقلت له: يا رسولَ الله، إنّ أبا سفيان رجلٌ يحبّ الفخر، فاجعل له شيئاً يكون في قومه. فقال: نَعمْ؛ مَنْ دخَل دارَ أبي سفيان فهو آمِنٌ، ومَنْ دخلَ المسجد فهو آمنٌ، ومَن أغلق عليه بابه فهو آمنٌ. فخرجت حتّى حبسته عند خطْم الجبل بمضيق الوادي؛ فمرَّت عليه القبائل، فيقول: مَنْ هؤلاء يا عباس؟ فأقول: سليْم، فيقول: مالي ولسليْم! فتمرّ به قبيلة، فيقول: مَنْ هؤلاء؟ فأقول: أسلم، فيقول: مالي ولأسلَم! وتمرّ جُهينة، فيقول: مالي ولجهينة! حتّى مرّ رسول الله ﷺ في الخضراء؛ كتيبة رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار في الحديد؛ لا يُرى منهم إلاّ الحَدَق، فقال: مَن هؤلاءِ يا أبا الفضل؟ فقلت: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار؛ فقال: يا أبا الفضل، لقد أصبح مُلكُ ابن أخيك عظيماً. فقلت: ويْحك إنها النبوّة! فقال: نعم إذاً. فقلتُ: الحق الآن بقومك فحذّرهم. فخرج سريعاً حتّى أتى مكّة، فصرخ في المسجد: يا معشر قريش، هذا محمّد قد جاءكم بما لا قِبَلَ لكم به! قالوا: فمَهْ! فقال: مَنْ دخل داري فهو آمن، فقالوا: ويحك! وما تُغني عنّا دارك! فقال: ومَنْ دخل المسجد فهو آمن، ومَن أغلق عليه بابه فهو آمن».

**د - دخول مكّة:**

بعد أن دخل أبو سفيان إلى مكّة وصرخ في المسجد:[1]

«يا معشر قريش، هذا محمّد قد جاءكم بما لا قبل لكم به».

فقالوا: «فما قال؟».

قال: «من دخل داري فهو آمن».

قالوا: «ويحك وما تغني عنا دارك؟».

قال: «ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن».

ثمّ قال: «يا معشر قريش اسلموا تسلموا».

وكان جيش المسلمين في هذه الأثناء يتقدّم نحو المدينة حتّى وصل إلى مكان يقال له: «ذي طوق» فتوقف تمهيداً لاعداد خطة الدخول إلى مكّة.

وبعد إعداد الخطة، بدأ المسلمون بدخول مكّة وذلك وفق الخطة التالية:

أ - قسم من الجيش بقيادة خالد بن الوليد يدخل من أسفل مكّة من الليط ومعه أسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب.[2]

ب - قسم بقيادة الزبير بن العوّام يدخل من منطقة «كُدًى». وكان الزبير يقود ميسرة المسلمين ومعه راية المهاجرين. لكن ابن كثير نقل أن النبيّ ﷺ هو الذي دخل مكّة من منطقة «كدّى».[3]

ج - قسم بقيادة سعد بن عبادة يدخل مكّة من منطقة «كَدَاء»، وهذا القسم هو قلب الجيش وعليه راية الأنصار.

د- قسم بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، يدخل مكّة من منطقة «أذاخر» وفيه جمع من المهاجرين والأنصار الذين يحيطون بناقة النبيّ ﷺ.

نقل ابن الأثير رواية دخول أبي سفيان وبعده الجيش إلى مكّة، فكتب:[4]

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٢٢.
- ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣١٤.

(٢) وكان رسول الله ﷺ قد أمر خالداً بذلك فكان أول أمر مباشر لخالد في الإسلام.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣١٦.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٢٢ - ١٢٣.

«فخرج (أبو سفيان) حتى أتى مكّة ومعه حكيم بن حزام فصرخ في المسجد: يا معشر قريش هــذا محمّد قـــد جاءكم بما لا قِبَل لكم به.

فقالوا: فما قال؟ قال: من دخل داري فهو آمن. قالوا: ويحك وما تُغْنِي عنا دارك؟ فقال: ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن، ثمّ قال: يا معشر قريش أسلموا تسلموا.

فأقبلت امرأته هند فأخذت بلحيته وقالت: يا آل غالب اقتلوا هذا الشيخ الأحمق. فقال: أرسلي لحيتي، وأقسم لئن لم تُسْلِمي أنتِ لتضربن عنقك. ادخلي بيتك، فتركته.

وبعث رسول الله ﷺ في أثرهما الزبير وأمره أن يدخُل ببعض الناس من كداء وكان على الجنبة اليسرى. وأمر سعد بن عبادة أن يدخل ببعض الناس من كدى، فقال سعد حين وجَّهه: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة.

فسمعها رجل من المهاجرين فأعلم رسول الله ﷺ، فقال لعلي بن أبي طالب: أدركْه فخذ الراية منه وكن أنت الذي تدخل بها.

وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكّة من الليط في بعض الناس، وكان معه أسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب - وهو أوّل يوم أمّر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد - ولمّا وصل رسول الله ﷺ إلى ذي طوى وقف على راحلته وهو معتجر[1] بشقة بُرْدٌ حبرة أحمر وقد وضع رأسه تواضعاً لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتّى إنّ أسفل لحيته لتمس واسطة الرحل. ثمّ تقدّم ودخل من أذاخر بأعلاها وضربت قبته هناك. وكان عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو قد جمعوا ناساً بالخندمة ليقاتلوا ومعهم الأحابيش، وبنو بكر، وبنو الحارث بن عبد مناة، فلقيهم خالد بن الوليد فقاتلهم فَقُتِل من المسلمين جابر بن جبيل الفهري، وحبيش بن خالد وهو الأشعر الكعبي، ومسلمة بن الميلاء، وقُتِل من المشركين ثلاثة عشر رجلاً. ثمّ انهزم المشركون.

---

(١) الاعتجار: لف الرأس بعمامة وردّ طرفها على الوجه.

وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أُمَرائه أن لا يقتلوا أحداً إلاّ من قاتلهم. فلمّا انهزم المشركون وأراد المسلمون دخول مكّة، قام في وجوههم نساء مشركات يلطمن وجوه الخيل بالخُمُر[1] وقد نشرن شعورهن، فرآهن رسول الله ﷺ وإلى جنبه أبو بكر، فتبسّم رسول الله ﷺ، وقال: يا أبا بكر، كيف قال حسان؟ فأنشده:

«تكاد جيادنا مستمطرات
يلطمهن بالخُمُرِ النساء»

وكان رسول الله ﷺ، قد أمر بقتل ثمانية رجال وإن وُجِدُوا تحت أستار الكعبة، وأربع نسوة. فإمّا الرجال فمنهم: عكرمة بن أبي جهل الذي كان ينفق أموالاً على محاربة الرسول، وصفوان بن أمية وعبد الله بن سعد ابن أبي سرح وعبد الله بن خطل والحويرث ابن نقيذ بن وهب ومِقيس بن صُبابة وعبد الله بن الزبعرى السهمي ووحشيّ بن حرب وحويطب بن عبد العزّى. أمّا النساء فهنّ هند بنت عتبة آكلة المراد وسارة مولاة عمرو بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وقينتا عبد الله بن خطل اللتين كانتا تغنيان بهجاء الرسول ﷺ.[2]

وقد أسلم منهم عكرمة وصفوان وعبد الله ابن سعد ووحشيّ بن حرب وحُويطب.

أمّا عبد الله بن خطل فأسلم ثمّ ارتدّ فقتل.

وأما الحويرث وعبد الله بن الزبعري فقد قتلا من دون أن يُسلما.

تابع ابن الأثير رواية دخول النبيّ ﷺ إلى مكّة، فكتب:[3]

«ولمّا دخل رسول الله ﷺ مكّة كانت عليه عمامة سوداء، فوقف على باب الكعبة وقال: «لا إله إلاّ الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده؛ وهزم الأحزاب وحده.

ألا كلّ دم أو مأثرة أو مال يدّعى فهو تحت قدميّ هاتين، إلاّ سِدانة البيت وسقاية الحاج».

---

(١) الخمر: جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها وصدرها.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٢٣ - ١٢٦.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٢٦ - ١٢٧.

ثمّ قال: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم»؟ قالو: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء.

فعفا عنهم، وكان الله قد أمكنه منهم، وكانوا له فيئاً فلذلك سمي أهل مكّة «الطلقاء».

وطاف بالكعبة سبعاً، ودخلها وصلّى فيها».

الطبري، من جهته، جاءت روايته لدخول النبي ﷺ مكّة وأخذ البيعة أكثر تفصيلاً من رواية ابن الأثير، إذ كتب:(١)

«حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن عمر بن موسى بن الوجيه، عن قتادة السَّدوسيّ؛ أن رسول الله ﷺ قام قائماً حين وقف على باب الكعبة، ثمّ قال: لا إله إلاّ الله وحدَه، لا شريك له، صَدَقَ وعدَه، ونصر عبدَه، وهزم الأحزاب وحدَه. ألا كلّ مأثرة، أو دم، أو مال يُدَّعى؛ فهو تحت قَدَمَي هاتين إلاّ سِدانة البيت وسَقاية الحاجّ. ألا وقتيلُ الخطأ مثل العَمْد؛ السوط والعصا، وفيهما الدية مغلّظة مائة من الإبل، منها أربعون في بطونها أولادها.

يا معشر قريش؛ إنّ الله قد أذهب عنكم نَخْوة الجاهليّة وتعظُّمها بالآباء. الناسُ من آدَمَ؛ وآدَم خلق من تراب. ثمّ تلا رسولُ الله ﷺ: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم...﴾.(٢)

يا معشر قريش، ويا أهل مكّة؛ ما تُرَوْن أني فاعلٌ بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريمٌ وابن أخ كريم. ثمّ قال: اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء.

فأعتقهم رسول الله ﷺ، وقد كان الله أمكنه من رقابهم عَنْوة، وكانوا له فيْئاً فبذلك يسمّى أهل مكّة الطلقاء. ثمّ اجتمع الناس بمكّة لبيعَةِ رسول الله ﷺ على الإسلام، فجلس لهم - فيما بلغني - على الصَّفَا وعمر ابن الخطاب تحت رسول الله أسفلَ من مجلسه يأخذ على الناس. فبايع رسولَ الله ﷺ على السمع والطاعة لله ولرسوله - فيما استطاعوا - وكذلك كانت بيعتُه لمن بايع رسولَ الله ﷺ من الناس على الإسلام. فلمّا فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرّجال بايع

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٦١ - ١٦٢.

(٢) الحجرات: من الآية ١٣.

النساء، واجتمع إليه نساءٌ من نساء قريش؛ فيهنّ هند بنت عُتْبة، متنقّبة متنكّرة لحدَثِها وما كان من صنيعها بحمزة، فهي تخاف أن يأخذها رسول الله ﷺ بحدَثها ذلك. فلمّا دنَوْنَ منه ليبايعنَه قال، رسولُ الله ﷺ - فيما بلغني - تبايِعْنني على ألاّ تشركن بالله شيئاً! فقالت هند: والله إنّك لتأخذ علينا أمراً ما تأخذه على الرّجال وسنؤتيكه. قال: ولا تسرقْن، قالت: والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهَنَة والهنَة، وما أدري أكان ذلك حِلاً لي أم لا! فقال أبو سفيان - وكان شاهداً لما تقول: أمّا ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حِلٍّ، فقال رسول الله ﷺ: وإنّكِ لهند بنت عتبة! فقالت: أنا هند بنت عتبة، فاعفُ عمّا سلف عفا الله عنك! قال: ولا تزنينَ، قالت: يا رسولَ الله، هل تزني الحرّة! قال: ولا تقتلْن أولادكُنّ، قالت: قد ربَّيناهم صغاراً، وقتلتهم يوم بدر كباراً، فأنت وهم أعلم! فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتّى استغرَب. قال: ولا تأتينَ ببهتان تفترينَه بين أيديكُنّ وأرجلُكن، قالت: والله إنّ إتيان البهتان لقبيح؛ ولبعض التجاوز أمثل. قال: ولا تعصينني في معروف، قالت: ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيَكَ في معروف. فقال رسول الله ﷺ لعمر: بايعهنّ واستغفر لهنّ رسول الله، فبايعهنّ عُمر. وكان رسول الله ﷺ لا يُصافح النساء، ولا يمسّ امرأة ولا تمسُّه إلاّ امرأة أحلّها الله له، أو ذات مَحْرَم منه.

حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلَمة، عن ابن إسحاق، عن أبان بن صالح، أنّ بيعة النساء قد كانت على نحويْن - فيما أخبره بعض أهل العلم - كان يوضَع بين يدي رسول الله ﷺ إناء فيه ماء، فإذا أخذ عليهنّ وأعطينه غمسَ يده في الإناء، ثمّ أخرجها. فغمس النساءُ أيديهنّ فيه. ثمّ كان بعد ذلك يأخذ عليهنّ، فإذا أعطينه ما شرط عليهنّ، قال: اذهبْنَ فقد بايعتُكنّ، لا يزيد على ذلك».

**- تحطيم الأصنام:**

عندما دخل الرسول ﷺ الكعبة نظر إلى جدران البيت فشاهد صور الملائكة والأنبياء فأمر بأن تمحى كلّ الصور. ثمّ أخذ محجنه وراح يضرب الأصنام ويحطمها ويقلبها على وجوهها ويقول:

- «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً».

نقل ابن كثير رواية تحطيم أصنام العرب في الكعبة فكتب:[1]

«وروى البيهقي عن ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، عن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه قال: دخل رسول الله ﷺ يوم الفتح مكّة وعلى الكعبة ثلاثمائة صنم فأخذ قضيبه فجعل يهوي إلى الصنم وهو يهوي حتّى مرّ عليها كلّها. ثمّ روي من طريق سويد عن القاسم بن عبد الله، عن عبد الله ابن دينار، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ لمّا دخل مكّة وجد بها ثلاثمائة وستين صنماً، فأشار إلى كلّ صنم بعصا فكان لا يشير إلى صنم إلاّ ويسقط من غير أن يمسّه بعصاه.

وأمر الرسول ﷺ بلالاً بالصعود إلى ظهر الكعبة ورفع الأذان، ففعل هذا الأخير ذلك. وصلّى النبيّ ﷺ في الحرم بعد الأذان مع المسلمين.

ثمّ توجّه الرسول ﷺ إلى الصفا لأخذ البيعة من الناس، فتقدّم الرجال يسلّمون عليه ويبايعونه، وتبعتهم النساء.

وأقام الرسول ﷺ في القبّة التي أقامها له المسلمون في جبل هند في أعلى مكّة قريباً من قبر السيّدة خديجة وعمّه أبي طالب.

وخلال إقامته المؤقّتة في مكّة، أرسل النبيّ ﷺ سرية بقيادة خالد بن الوليد إلى قبيلة جذامة فأطاعته بعد أن قتل بعض رجالها. ثمّ أرسله إلى «نخلة» ليهدم صنم «العزّى» ففعل.[2]

كما أرسل النبيّ ﷺ عمرو بن العاص إلى بني هذيل لهدم صنم «سُواع» ففعل. ثمّ أرسل سعد بن زيد بن الأشهل إلى «المشلّل» لهدم الصنم «مناة» ففعل.

وأقام النبيّ ﷺ خمسة عشر يوماً في مكّة المكرّمة بعد أن أصبحت مدينة مسلمة، وخرج بعدها لقتال «هوازن».

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٢٥.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء٤، ص ١٦٤.

وكان فتح مكّة لعشر ليالٍ بقين من شهر رمضان سنة ثمانٍ للهجرة.

وهكذا فتح الله مكّة أمام المسلمين بقيادة النبيّ ﷺ. نقل ابن كثير عن أعداد المقاتلين المشاركين في غزوة مكّة فكتب:

«قال ابن إسحاق: وكان جميع من شهد فتح مكّة من المسلمين عشرة آلاف: من بني سُلَيم سبعمائة ويقول بعضهم ألف، ومن بني غفار أربعمائة [ومن أسلم أربعمائة] ومن مَزينة ألف وثلاثة نفر، وسائرهم من قريش والأنصار وحلفائهم وطوائف العرب من تميم وقيس وأسد. وقال عروة والزهري وموسى بن عقبة: كان المسلمون يوم الفتح الذين مع رسول الله ﷺ اثنا عشر ألفاً، فالله أعلم».

**و - الدروس المستقاة:**

١ - أخطأت قريش في تقدير مدى خسائر المسلمين في معركة مؤتة، فأقدمت على نقض شروط صلح الحديبية، ممّا عجّل في مهاجمة مكّة وفتحها. فالمعلومات التي كانت تملكها قريش عن إمكانات المسلمين العسكرية لم تكن كافية لاتخاذ قرارات صائبة بالنسبة للمواجهة معهم.

لقد أحسن المسلمون في منع وصول المعلومات عنهم إلى قريش. حتّى أن النبيّ ﷺ أرسل علي والزبير لمنع امرأة، تحمل كتاباً إلى قريش من أحد عملائها، من بلوغ مكّة.

هذه السريّة سمحت للمسلمين بإرسال حملة كبيرة إلى مكّة وفتحها.

٢ - اعتمد النبيّ ﷺ أيضاً، عند تحضيره الحملة ضد قريش، استراتيجية التعبئة العامة للمسلمين وذلك تطبيقاً لمبدأ الحرب الأول «نسبية الأهداف للوسائل»، نظراً لما تملكه قريش من إمكانات عسكرية وما يربطها من تحالفات مع القبائل العربية التي كانت ما تزال على وثنيتها.

٣ - سار الرسول ﷺ في رأس الحملة معطياً المثل الصالح لاتباعه. فالقائد الذي يقود جنوده بنفسه يحفّزهم للقتال ويدفعهم إلى بذل كلّ طاقتهم في سبيل نصرة قضيته، خاصة إذا كانت قضية محقّة.

٤ - بعد أن اجتمعت القبائل والمقاتلون وبلغ عدد الجيش الزاحف إلى مكّة عشرة آلاف مقاتل، طبّق النبيّ ﷺ الاستراتيجية العسكرية: «أظهر القوّة كي لا تضطر لاستعمالها». فحملته على مكّة، لم تكن

تهدف إلى تدمير المدينة وقتل أنسبائه من آل هاشم، إنما دفعهم إلى اعتناق الإسلام ديناً وترك عبادة الأصنام. وبالفعل كان النبيّ ﷺ يفضّل دخول مكّة صلحاً.

لذلك نجحت استراتيجية الردع تجاه قريش فاعتنق أبو سفيان الإسلام وتبعه الباقون، الأمر الذي جنّب المدينة معركة كانت ستكون دامية جداً.

٥ - إن السيطرة على جيش زاحف إلى مدينة مفتوحة هي أمر صعب جدّاً لم يستطع تنفيذه عبر عصور التاريخ سوى قلّة من القادة العسكريين، أبرزهم النبيّ ﷺ عند دخول جيشه إلى مكّة.

فمن يتصفّح كتب التاريخ العسكري يقرأ فيها فصولاً عن الممارسات الهستيريّة التي كانت تعقب دخول الجيوش المنتصرة إلى المدن الآهلة بالسكان.

أمّا درجة ضبط المقاتلين ومنعهم من التعدّي على السكّان التي ظهرت خلال فتح المسلمين لمكّة، فهي حال نادرة في هذه الفصول التاريخيّة الّتي حفلت بأمثلة عن الفوضى والفلتان الأمني اللذين رافقا عمليات احتلال المدن والحصون.

٦ - أعدّ النبيّ ﷺ خطّة محكمة لدخول مكّة من جهات عدّة ووزّع المهمات على إمرائه بدقّة متناهية محدّداً القبائل التي يقودها كلّ قائد. ففي الاستراتيجية العسكرية، يعمد القائد إلى تنظيم خطة مناورته ولحظ جميع تفاصيل تنفيذها وذلك بهدف الردّ على جميع الأسئلة التي قد يطرحها المنفّذون، وكي لا يستفيد أي منهم من غموض الخطة للقيام بممارسات لا يريدها القائد العام. وهذه التفاصيل التي لا تلحظ في البنود الأساسية للخطة، يخصص لها بند خاص فيها بعنوان «معلومات تنسيقية».

## ملحق رقم ٥

# سيرتا العباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف

### ١ - العباس بن عبد المطلب:(١)

ابن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو الفضل المكي عم رسول الله ﷺ، ووالد الخلفاء العباسيين، وكان أسنّ من رسول الله ﷺ بسنتين أو ثلاث. أسر يوم بدر فافتدى نفسه بمال، وافتدى ابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث. ولمّا أسر وشُدّ في الوثاق وأمسى الناس، أرقَ رسولُ الله ﷺ فقيل يا رسول الله ما لك؟ فقال: «**إني أسْمَعُ أنِينَ العَبَّاسِ فِي وثاقِهِ فَلاَ أنَام**»، فقام رجل من المسلمين فحلّ من وثاق العباس حتّى سكن أنينه فنام رسول الله ﷺ. ثمّ أسلم عام الفتح، وتلقى رسول الله ﷺ إلى الجحفة فرجع معه، وشهد الفتح، ويقال إنه أسلم قبل ذلك ولكنه أقام بمكّة بإذن النبيّ ﷺ له في ذلك، كما ورد به الحديث فالله أعلم. وقد كان رسول الله ﷺ يجله ويعظّمه وينزله منزلة الوالد من الولد، ويقول: «هذَا بَقِيَّةُ آبَائِي». وكان من أوصل الناس لقريش وأشفقهم عليهم، وكان ذا رأي وعقل تام وافٍ، وكان طويلاً جميلاً أبيض بضّاً ذا ظفرتين.(٢) وكان له من الولد عشرة ذكور سوى الإناث، وهم تمام - وكان أصغرهم - والحارث، وعبد الله، وعبيد الله، وعبد الرحمن، وعون، والفضل، وقثم، وكثير، ومعبد. وأعتق سبعين مملوكاً من غلمانه.

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٢) الظفرة: مرض تصاب به العين.

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عبد الله قال: حدثني محمّد بن طلحة التميمي من أهل المدينة، حدّثني أبو سهيل نافع بن مالك عن سعيد بن المسيب عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ للعباس: **«هَذَا العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ أجْوَدُ قُرَيْشٍ كَفّاً وَأوْصَلُها»**. تفرد به

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لعمر حين بعثه على الصدقة، فقيل منع ابن جميل وخالد بن الوليد والعباس عم رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: **«مَا يَنْقِمُ ابْنُ جَمِيلٍ إلاّ أنْ كَانَ فَقِيراً فَأغْنَاهُ. وَأمَّا خَالِدٌ فإنَّكُمْ تَظْلِمُونَ خَالِداً وَقَدِ احْتَبَسَ أدْرَاعَهُ وَأعْتَادَهُ فِي سَبِيلِ الله. وَأمَّا العَبَّاسُ فَهِيَ عَلَيَّ وَمِثْلُهَا»** ثمّ قال: **«يا عُمَرُ أمَا شَعَرْتَ أنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ[1] أبيهِ؟»**.

وثبت في صحيح البخاري عن أنس أن عمر خرج يستسقي وخرج بالعباس معه يستقسي به، وقال اللهمّ إنا كنّا إذا قحطنا توسّلنا إليك بنبيّنا فتسقينا، وإنا نتوسّل إليك بعم نبيّنا، قال فيسقون. ويقال إن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان كانا إذا مرّا بالعباس وهما راكبان ترجّلا إكراماً له. قال الواقدي وغيره: توفي العباس في يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب، وقيل من رمضان سنة ثنتين وثلاثين، وقيل سنة أربع وثلاثين، وفضائله ومناقبه كثيرة جداً.

## ٢ - عبد الرحمن بن عوف:[2]

ابن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة، أبو محمّد القرشي الزهري، أسلم قديماً على يدي أبي بكر، وهاجر إلى الحبشة وإلى المدينة، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع، وشهد بدراً وما بعدها. وأمره رسول الله ﷺ حين بعثه إلى بني كلب وأرخى له عذبة[3] بين كتفيه، لتكون أمارة عليه للإمارة. وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الثمانية

(١) صنو أبيه: مثل أبيه.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٥٨ - ١٦٠.

(٣) عذبة العمامة: طرفها.

السابقين إلى الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى، ثمّ أحد الثلاثة الذين انتهت إليهم منهم. ثمّ كان هو الذي اجتهد في تقديم عثمان رضيّ الله عنه، وقد تقاول هو وخالد بن الوليد في بعض الغزوات فأغلظ له خالد في المقال، فلمّا بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «**لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ**» وهو في الصحيح. وقال معمر الزهري: تصدق عبد الرحمن بن عوف على عهد النبيّ ﷺ بشطر ماله أربعة آلاف، ثمّ تصدّق بأربعين ألفاً ثمّ تصدّق بأربعين ألف دينار، ثمّ حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله، ثمّ حمل على خمسمائة راحلة في سبيل الله، وكان عامة ماله من التجارة.

فأمّا الحديث الذي قال عبد بن حميد في مسنده: ثنا يحيى بن إسحاق: ثنا عمارة بن زاذان عن ثابت البناني عن أنس بن مالك أن عبد الرحمن بن عوف لما هاجر آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عثمان بن عفان فقال له إن لي حائطين فاختر أيّهما شئت. فقال: بارك الله لك في حائطيك، ما لهذا أسلمت، دلّني على السوق. قال فدلّه فكان يشتري السمنة والأقيطة والإهاب،[1] فجمع فتزوّج فأتى النبيّ ﷺ فقال: «**بارك الله لك أولمْ ولو بشاة**». قال فكثر ماله حتّى قدمت له سبعمائة راحلة تحمل البر وتحمل الدقيق والطعام. قال: فلما دخلت المدينة سمع لأهل المدينة رجة فقالت عائشة: ما هذه الرجة؟ فقيل لها عير قدمت لعبد الرحمن بن عوف سبعمائة تحمل البر والدقيق والطعام. فقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يَدْخُلُ عَبْدُ الرَّحْمنِ بْنُ عَوْفٍ الجَنَّةَ حَبْواً**» فلمّا بلغ عبد الرحمن ذلك قال: أشهدك يا أمه أنها بأحمالها وأحلاسها[2] وأقتابها في سبيل الله.

ولمّا حضرته الوفاة أوصى لكلّ رجل ممّن بقي من أهل بدر بأربعمائة دينار - وكانوا مائة - فأخذوها حتّى عثمان وعلي. وقال علي: اذهب يا ابن عوف فقد أدركت

---

(١) الإهاب: جلد الحيوان.

(٢) الأحلاس: جمع حلس وهو غطاء يوضع على ظهر البعير.

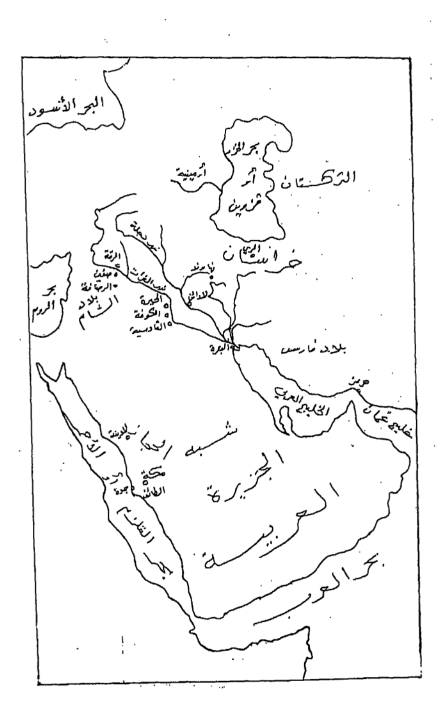
صفوها، وسبقت زيفها. وأوصى لكلّ امرأة من أمّهات المؤمنين بمبلغ كثير حتّى كانت عائشة تقول سقاه الله من السلسبيل. وأعتق خلقاً من مماليكه ثمّ ترك بعد ذلك كلّه مالاً جزيلاً، من ذلك ذهب قطع بالفؤوس حتّى مجلت[١] أيدي الرجال. وترك ألف بعير ومائة فرس، وثلاثة آلاف شاة ترعى بالبقيع. وكانت نساؤه أربعاً فصولحت إحداهنّ من ربع الثمن بثمانين ألفاً. ولمّا مات صلّى عليه عثمان بن عفان، وحمل في جنازته سعد بن أبي وقاص، ودفن بالبقيع عن خمس وسبعين سنة. وكان أبيض مشرباً حمرة حسن الوجه، دقيق البشرة، أعين أهدب الأشفار، أقنى،[٢] له جمة، ضخم الكفين، غليظ الأصابع، لا يغير شيبه رضي الله عنه.

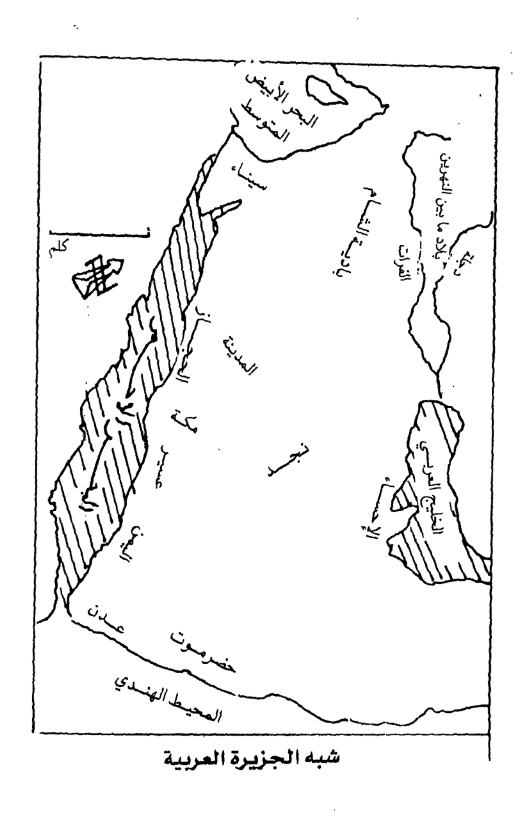
---

(١) مجلت يده: مرنت.

(٢) أقنى: مرتفع أعلى الأنف.

# خارطة بلاد العرب والشام وما بين النهرين






**شبه الجزيرة العربية**

# فهرس الجزء (٢)

الخرائط:

